مذكرات

أغاثا كريستي



15.5.2016

تعال قل لي كيف تعيش

مذكراتها في سورية والعراق

ترجمة أكرم الحمصي



أغاثا كريستي

تعال
قل لي كيف تعيش

مذكراتها في سورية والعراق

ترجمة أكرم الحمصي



تعال قل لي كيف تعيش



المؤلف: أغاثا كريستي

عنوان الكتاب: تعال قل لي كيف تعيش

ترجمة: أكرم الحمصي

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2015

Author: **Agatha Christie**

Title: **Come Tell Me How You Live**

Translator: **Akram Alhomsy**

cover designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C. : **Al-Mada**

First Edition: **2015**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289



إلى زوجـي، ماكس مالـوان، إلى "الكولونيـل، و"بامبس"، و"ماك"، و"غيلفورد"، و"ب."،

أهدي، بكل الحب، هذه الوقائع المتعرجة.

تمهيد

هذا الكتاب هو جواب، جواب على سؤال كثيراً ما يطرح عليّ.

« أنت، إذن، تنقبين في سورية، أليس كذلك؟ أخبريني عن الأمر. كيف تعيشين؟ في خيمة؟ « الخ، الخ...

معظم الناس، على الأرجح، لا يرغبون في معرفة الجواب. فالأمر، بالنسبة إليهم، مجرد تجاذب لأطراف الحديث. ثم يظهر، بين الفينة والأخرى، شخص أو اثنان يعنيهما الأمر بالفعل.

وهو، كذلك، السؤال الذي يطرحه علم الآثار على الماضي :**تعال قل لي كيف عشت؟**

ونعثر على الإجابة باستخدام المعاول والمجارف والسلال :

"تلك كانت قدور الطهو التي استخدمناها". وفي تلك الصومعة الكبيرة كنا نحتفظ بقمحنا. وبتلك الإبر المصنوعة من العظام كنا نخيط ثيابنا". "تلك كانت بيوتنا، هذا حمامنا، وهنا نظام الصرف الصحي لدينا!". "وهنا، في هذه الآنية، توجد الأقراط الذهبية التي قدمت لابنتي بائنة". "هنا، في هذه الجرة الصغيرة، مساحيق تجميلي. كل قدور الطهو من نموذج شائع للغاية. سوف تعثرين على المئات منها. نحن نشتريها من الخزاف عند الزاوية. أتقولين وولورث؟ أهكذا تدعونها في عصركم؟".

يصادفنا، بين الفينة والأخرى، قصر ملكي، وفي بعض الأحيان

معبـد، وفي مناسبات أقل مدفن ملكي. هـذه الأشياء رائعة. نقرأ عنها في العناوين الرئيسيـة للصحف وهي مادة للمحاضرات ويتم عرضها علـى الشاشات ويسمـع عنها الجميع! بيد أنني أظـن، بوصفي أعمل في التنقيـب، أن التشويق الحقيقي يكمن في الحيـاة اليومية- في حياة الخزاف- حياة المزارع- حياة صانـع الأدوات- حياة صانع الأختام والتمائـم الحيوانية، بل، في الواقـع، في حياة الجزار، والخباز، وصانع الشمعدانات.

تحذيـر أخـير يجـب أن أقدمه كـي لا يصـاب أحد بالخيبـة. هذا الكتـاب ليس عميقاً، وهـو لا يلقي الضوء على علـم الآثار من زوايا مثيرة للاهتمام، ولا يقدم وصفاً جميلاً للمناظر الطبيعية، ولا يتصدى للمشكلات الاقتصادية، ولا يتأمل في القضايا العرقية – وليس فيه من تاريخ.

إنه في الواقع مجرد كأس صغيرة من الجعة – مجرد كتاب صغير للغاية يحفل بالأعمال اليومية والأحداث اليومية.

جلسة على تل

(مع الاعتذار الواجب للويس كارول)

سأخبرك كل ما أستطيع

إن كنت ستحسن الإصغاء؛

التقيت بشاب واسع الاطلاع

يجلس على تل.

«من أنت يا سيدي؟» قلت له.

«وعم تبحث؟»

انتشر جوابه في رأسي

كلطخة دم على صفحة من كتاب.

قال: «أفتش عن أوان قديمة

من أيام ما قبل التاريخ،

ثم أقيسها بالكثير

والكثير من الطرق المختلفة.

ثم أبدأ (مثلك) بالكتابة؛

لكن كلماتي أطول بمرتين
من كلماتك، أكثر علماً بكثير.
إنها تثبت خطأ زملائي!»
لكنني أنا كنت عندها أفكر في خطة
لقتل مليونير
وإخفاء جثته في عربة
أو في ثلاجة كبيرة ما.
فهتفت، وقد أعياني الرد
وانتابني شيء من الخجل:
«تعال أخبرني كيف تعيش!
ومتى، وأين، ولماذا؟»
نبرته اللطيفة تنضح فكراً:
«خمسة آلاف عام مضت
هي، عندما أفكر فيها،
أفضل العصور التي عرفت.
أما أنت، فعليك تعلم ازدراء ما بعد الميلاد
والتسلح بالبراعة وحسن الأداء،
عندها يمكنك القدوم معي والتنقيب
دون أن تلتفتي إلى الوراء».
لكنني كنت أفكر كيف أدس

بعض الزرنيخ في الشاي
و لم أستطع في الحال أن أضبط
عقلي على ما قبل الميلاد.
نظرت إليه، وتنهدت برفق،
وجهه، بدوره، كان هنيئاً...
وهتفت: «تعال قل لي كيف تعيش؟،
وماذا تعمل بالضبط؟»
فقال: « أصطاد أشياء صنعها
رجال في كل مكان حلوا فيه،
أصورها وأصنفها
وأوضبها وأرسلها إلى أرض الوطن.
هي أشياء لا نبدلها بالذهب،
(علاوة، في الواقع، على النحاس!)
بل على رفوف المتاحف نعرضها
فهذا هو السلوك الصحيح.
أستخرج أحياناً تمائم
وتماثيل صغيرة مليئة بالفسوق،
لأنهم في أيام ما قبل التاريخ تلك
كانوا بدائيين إلى أقصى الحدود!
بهذه الطريقة نتسلى،

هي ليست طريقة للإثراء

لكن علماء الآثار يحيون طويلاً

ويتمتعون بأفضل صحة».

في تلك اللحظة سمعته، لأنني كنت للتو

قد أنجزت خطة

لوقاية جثة من الفناء

بنقعها في محلول ملحي.

فشكرته كثيراً لأنه حدثني

بالكثير من حسن الاطلاع،

وقلت إنني سأذهب معه

على متن حملة...

والآن، إن غمست بمحض المصادفة

أصابعي في الحمض

أو حطمت آنية خزفية ما (بشكل أخرق!)

لأنني لا أتمتع برباطة الجأش،

أو إن رأيت نهراً متدفقاً

وسمعت صرخة من بعيد،

أتنهد، لأنها تذكرني كثيراً

بذلك الشاب الذي تعلمت معرفته-

بطلته الدمثة، وكلامه البطيء،

أفكاره معلقة بماض بعيد،

وجيوبه مثقلة بكسر خزفية،

وهو يحاضر بعلم وتواضع،

ويستخدم كلمات طويلة لا أعرفها،

وعيناه، بتوهج وألق،

تجوسان الأرض هنا وهناك،

في سعيه الحثيث كي يريني

أن هناك أشياء يجب أن أعرفها

وأنني معه ينبغي أن أمضي

كي أنقب في أحد تلك التلال!

الفصل الأول

ذاهبون إلى سورية

سننطلق إلى سورية في بضعة أسابيع!

التسوق، في فصل الخريف أو في فصل الشتاء، من أجل جو حار أمر تكتنفه صعوبات جمة. إذ يكتشف المرء، في الوقت غير المناسب، أن ملابس الصيف الماضي التي كان يأمل بتفاؤل أن تفي بالغرض لا تفي بالغرض في الواقع. لسبب وحيد هو أنها تبدو (كالملاحظات الباعثة على الإحباط التي يمكن للمرء أن يقع عليها في لوائح ناقلي الأثاث) «مخدوشة، مكشوطة، وعليها ندوب». (ناهيكم عن أنها انكمشت وبهت لونها وصار شكلها غريباً!).

فإلى الأسواق والمتاجر، إذن، حيث:

«بالطبع سيدتي، لم يسألنا أحد عن هذا النوع من الأشياء حتى هذه اللحظة بالذات! لدينا هنا أطقم قصيرة ساحرة للغاية– بقياسات كبيرة وألوان قاتمة».

آه! يا للقياسات الكبيرة المنفرة. كم هو مهين أن يكون قياسك كبيراً! وكم هو مهين أكثر أن يلاحظ الناس على الفور أن قياسك كبير.

(على الرغم من أن هناك أياماً أفضل تهتف فيها بائعة يلفها معطف رزين طويل أسود قائلة: «لكن هل سيدتي حقاً امرأة بالغة؟»).

أنظر إلى الأطقم القصيرة ذات لمسات الخملة غير المنتظرة والحواشي المثنية. وأشرح له بحزن أن ما أريده هو حرير يمكن غسله أو قطن.

«ربما ترغب سيدتي في أن تجرب قسم الأسفار لدينا».

تجرب «سيدتي قسم الأسفار «لدينا»- لكن دون كبير أمل. ما تزال الأسفار حتى اليوم محاطة بعوالم من الأوهام الرومانسية. إنها تحمل لمسة من فردوس مفقود- الفتيات هن من يذهبن في أسفار- الفتيات النحيلات واليانعات اللواتي يلبسن بناطيل من كتان لا يتجعد، واسعة للغاية حول القدمين وتلتصق بالجسم عند الوركين، فتيات يمارسن الرياضة بفرح ببذل اللعب. فتيات يحتفظ المتجر من أجلهن بثمانية عشر نوعاً مختلفاً من السراويل القصيرة!

يبدي المخلوق اللطيف المكلف بقسم الأسفار «لدينا» تعاطفاً واضحاً.

«آه، لا، سيدتي، ليست لدينا قياسات كبيرة» (يا للهول! قياسات كبيرة وأسفار؟ أين الرومانسية في هذا؟)

ويضيف:

«لن تناسبك، ألا تظنين ذلك؟»

أوافق بحزن أنها لن تناسبني.

تغلب قبعات السفاري على القسم الاستوائي «لدينا». قبعات سفاري بنية. قبعات سفاري بيضاء. قبعات سفاري ذات تصاميم خاصة. وإلى جانب قبعات لينة مزدوجة، عابثة بعض الشيء، يزهر القرنفلي والأزرق والأصفر فيها كأزهار استوائية غريبة. وهنالك

أيضاً حصان خشبي كبير وتشكيلة من سراويل ركوب الخيل.

لكن- أجل- هنالك أشياء أخرى. ها هو ذا ثوب يناسب زوجات بُناة الإمبراطورية. ثم قماش الشانتون! معاطف وتنورات من الشانتون بتصاميم بسيطة- هراء الفتيات ليس موجوداً هنا- تناسب الأجساد الكبيرة والأجساد الضامرة! أنتقل إلى حجرة فيها تصاميم وقياسات متنوعة. وما تكاد تمضي بضع دقائق حتى أستحيل زوجة صاحب!

ما تزال تساورني بعض الشكوك - لكنني أقمعها - فالثوب، في نهاية المطاف، لطيف وعملي ويمكنني أن أندس فيه.

ينتقل اهتمامي إلى اختيار النوع المناسب من القبعات. والواقع أن النوع المناسب من القبعات لم يعد موجوداً اليوم، وعلي أن أكلف أحداً بصنعها من أجلي، وهو أمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها.

إن ما أريده تحديداً، وما أنا عازمة على الحصول عليه، وما هو من شبه المؤكد أنني لن أحصل عليه، هو قبعة من اللباد ذات أبعاد معقولة تناسب رأسي. قبعة من ذلك النوع من القبعات التي كان الناس يضعونها على رؤوسهم منذ عشرين عاماً تقريباً عندما يصطحبون كلابهم في نزهة أو يذهبون للعب جولة من الغولف. أما الآن، فلم يعد هناك، ويا للحسرة، سوى الأشياء التي يعلقها المرء على رأسه- فوق إحدى عينيه، أو فوق إحدى أذنيه، أو على قفا عنقه - بحسب ما تمليه آخر صيحات الموضة - أو القبعة اللينة المزدوجة التي يزيد قطرها عن ياردة كاملة.

أشرح للبائع أن القبعة التي أريد شراءها هي قبعة ذات تاج يشبه تاج القبعة اللينة المزدوجة لكنها تتمتع بربع قياس حافتها.

«لكنهم يصنعونها عريضة من أجل الوقاية التامة من الشمس يا

سيدتي».

«بالطبع، لكن المكان الذي سأسافر إليه تسوده، باستمرار تقريباً، رياح عاتية ليس من شأنها إبقاء قبعة ذات حافة على رأس المرء أكثر من دقيقة».

«يمكننا إضافة حبل من المطاط يا سيدتي».

«أريد قبعة ذات حافة لا تزيد عن هذه التي على رأسي».

«بالطبع سيدتي، قبعة بتاج ضحل ذات مظهر جميل للغاية».

«لا أريد قبعة ذات تاج ضحل! تلك القبعة ستفي بالغرض تماماً!».

لقد انتصرت! نختار اللون- واحداً من تلك الظلال الجديدة التي تحمل أسماء جميلة على شاكلة: ترابي، صدئي، طيني، حجري، غباري، الخ...

ثم بضع مشتريات ثانوية- مشتريات تنبئني غريزتي أنها ستكون غير ذات نفع أو أنها ستوقعني في مشاكل جمة. حقيبة سفر ذات سحاب مثلاً. الحياة في أيامنا هذه تخضع لسلطة السحاب التي لا ترحم وتعقيداته التي لا تعد ولا تحصى. بلوزات ذات سحاب يقفل باتجاه الأعلى، تنورات ذات سحاب يقفل باتجاه الأسفل، بدلات تزلج تنتشر السحابات في كل أرجائها. أثواب نسائية صغيرة ذات سحابات لا فائدة منها بالتأكيد، بل هي موجودة لمجرد المرح.

لماذا؟ وهل هناك ما هو أكثر خطراً من سحاب ينقلب عليك بلؤم؟ فهو يورطك في مآزق أكبر بكثير من تلك التي يوقعك فيها أي زر أو مشبك أو لاقط أو إبزيم أو خطاف.

اجتاحت والدتي، في الأيام الأولى للسحابات، موجة من الحماسة

لهـذا الابتكار اللذيذ، فاقتنـت مشدين صنعا مـن أجلها مزودين من الأمام بسحاب يقفل إلى الأعلـى. لكن النتائج كانت مؤسفة إلى أبعد حـد! فلم يقتصر الأمر على أن عملية شـد السحاب إلى الأعلى كانت مفعمـة بالكثير من الألم- بـل إن السحاب كان يرفض بعناد أن يحل! فتحول خلع المشد إلى ما يشبه عملاً جراحياً! وقد بدت والدتي لبرهة من الوقت، بالنظر إلى الاحتشام الفيكتوري الفرح الذي كانت عليه، قـادرة على العيش مع المشـد ما بقي لها من أيـام- كامرأة عصرية في مشد حديدي!

ولذلـك كنت أنظـر إلى السحاب بكثير من الشـك، على الدوام. بيـد أنه يبـدو أن كل حقائب السفـر بلا استثناء هي مـن النوع المزود بسحاب.

«أساليـب الشد القديمة بطلت يا سيدتي» يقول البائع وهو يرمقني بنظرة إشفاق.

ثـم يضيف مقدمـاً عرضاً توضيحيـاً: «الأمر، كمـا ترين، بسيط للغاية».

بساطتـه لا شـك فيها بالتأكيـد- ثم، عندئذ، أفكـر في أن الحقيبة خاوية.

أقول وأنا أتنهد: حسناً. على المرء أن يجاري الزمن».

وأشتري الحقيبة وبعض الهواجس ما تزال تنتابني.

أنـا، الآن، المالكـة الفخورة لحقيبـة سفر ذات سحـاب ومعطف زوجة باني الإمبراطورية وتنورتها وقبعة مقبولة بالإجمال.

ما يزال هنالك الكثير مما ينبغي فعله.

هكـذا، أنتقل إلى قسـم القرطاسية وأشتري عدداً مـن أقلام الحبر وأقـلام التخطيط. وأعلم، من خبرتي السابقـة، أنه على الرغم من أن قلم الحـبر يتصرف بطريقة نموذجيـة في إنكلترا، فإنـه يعتبر نفسه، في اللحظـة التـي يطلق لـه فيها العنـان في الصحراء، حـراً في الإضراب عـن العمل ويتصرف علـى هذا الأساس سواء برشقـي ورشق ثيابي ومفكرتـي وكل ما هـو مفيد بالحبر بشكل عشوائـي، أو بأن يرفض، بخفر، أن يقوم بما يزيد عن رسم خدوش غير مرئية على سطح الورقة. أشـتري كذلـك قلمي رصاص متواضعين. أقـلام الرصاص، لحسن الحـظ، ليست مزاجية. وعلى الرغم من مهارتهـا الكبيرة في التواري عـن الأنظار دون ضجـة، إلا أنه يوجد في متناول يـدي مصدر دائم لأقـلام الرصاص. فما نفع المهندس المعماري، في نهاية المطاف، إن لم يكن لاقتراض أقلام الرصاص منه؟

يضـم بند المشتريات التالي أربع ساعات يد. الصحراء ليست رفيقة بالساعات. فما أن تمضـي بضعة أسابيع هناك، حتى تكف الساعة في يدك عـن القيام بعملها. يقـال إن الوقت نمط تفكير. ثـم تتخذ خياراً من اثنين، إذ تكـف عن العمل لثمان أو تسع مرات يومياً لفترات تبلغ عشرين دقيقـة في كل مرة، أو تبدأ في الركض إلى الأمام من غير تمييز. وأحياناً تتناوب، بحياء، على الأمرين. قبل أن تتوقف أخيراً عن العمل بشـكل نهائي. فيضـع المرء في معصم يده الساعـة رقم اثنين وهكذا. وهنالـك بنـد مشتريات إضافي قوامـه ساعتا يد رخيصتـان استعداداً للحظة التي سيقول زوجـي لي فيها: «هل لك أن تقرضيني ساعة كي أعطيها لرئيس العمال؟»

يتمتـع رؤساء عمالنـا العرب، بغض النظر عـن كفاءتهم، بما يمكن

وصفـه بأنه يد ثقيلة على كل أنـواع الأدوات الزمنية. وتحديد الوقت يتطلـب منهم، في مطلـق الأحوال، قدراً كبيراً مـن الجهد الذهني. إذ يمكنـك رؤيتهم بساعات يد كبيرة، مستديرة، كوجه القمر يضعونها، بجديـة بالغـة، رأساً على عقب ويحدقون فيهـا بتركيز مؤلم بحق كي تكـون الإجابـة، في نهايـة المطاف، باطلـة! وهم، فضـلاً عن ذلك، يعبئون هذه الكنوز بقوة تعجز معظم النوابض عن الصمود أمامها!

لذلـك يحـدث أحياناً أن لا ينتهـي الموسم إلا وقد تمـت التضحية بساعـات الحملة الواحـدة تلو الأخـرى. وبذلك تصبـح ساعتا اليد الرخيصتان هاتان وسيلة لإرجاء ذلك اليوم المشؤوم.

التوضيب

هنالـك عدة مدارس للتوضيب. إذ يبـدأ البعض في التوضيب قبل مدة من موعد السفر تتراوح بين أسبوع وأسبوعين. وهناك من يرمون في الحقيبـة بضعة أشيـاء قبل ساعة ونصف الساعة مـن موعد السفر. وهنالك الموضبون الحريصـون ولا النهمون للمناديل الورقية! وهناك من يزدرون المناديل الورقيـة ويوضبون حقائبهم كيفما اتفق، متكلين على قـادم الأيام! وهناك مـن يخلفون وراءهم كل مـا يحتاجون إليه عمليـاً! وهنالك من يأخذون كميات كبيرة من أشياء لن يحتاجوا إليها على الإطلاق!

شيء واحد يمكن قوله باطمئنان عن التوضيب الآثاري- إنه يقوم، بصـورة رئيسة، على الكتب. أيـة كتب ينبغي أخذها- أية كتب يمكن أخذها، أية كتب يوجد متسع لها- أية كتب يمكن (بكثير من الحزن!) أن تـترك؟ لدي قناعة راسخة أن كافة علمـاء الآثار يوضبون حقائبهم علـى الشكل التـالي: يقررون العدد الأقصى مـن حقائب الثياب التي

ستسمح لهم شركة واغـون لي، ذات طول الأناة، بنقلها. ثم يحشون هذه الحقائب بالكتب حتى حافتها. ثم يُخرجون، على مضض، بضعة كتب ويضعون في الفـراغ الذي حصلوا عليه بهذه الطريقة القمصان والمنامات والجوارب، الخ.

يتكـون لدي، عندما أنظر إلى غرفة ماكس، انطباع مفاده أن فراغ الغرفة برمته مملوء بالكتب! وألتقط، من خلال فرجة بين الكتب، وجه ماكس القلق.

يسألني: «هل تظنين أنه سيكون لدي متسع لكل هذه الكتب؟»

الإجابـة بالنفي هـي على قدر من البداهة يبـدو في الإفصاح عنها الكثير من القسوة.

يدخل إلى غرفتي في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر ويسأل بلهفة: «هل هناك في حقائبك من متسع؟»

كان علـى خبرتـي الطويلة أن تنبهنـي إلى ضرورة الـرد بحزم بأن «لا»، لكنني أتردد ويقع علي الحكم على الفور.

«إن كنت تستطيعين أن تضيفي غرضاً أو اثنين «

«ليست كتباً؟»

ينظـر إلي كما لو أن المفاجأة تكاد تصيبه بالإغماء ويقول: «بالطبع كتب - وأي شيء آخر يمكن أن تكون؟»

ثـم يتقـدم، ويكبـس مجلديـن كبيريـن فـوق ثـوب زوجـة باني الإمبراطورية الذي يتمدد بأناقة على قمة حقيبة.

أطلق صرخة احتجاج، لكن بعد فوات الأوان.

«هذا هراء!»، يقول ماكس، «هنالك الكثير من المتسع!» ويضغط

بقوة على غطاء الحقيبة الذي يأبى أن يغلق بعناد.

ثم بلهجة متفائلة: «إنها ليست مليئة تماماً حتى في هذه اللحظة».

لحسن الحظ، يتحول اهتمامه، في تلك اللحظة، إلى ثوب من الكتان المطبوع، المطوي والممدد في حقيبة أخرى. «ما هذا؟»

أجيبه إنه ثوب.

يقول ماكس: «مثير للاهتمام. واجهته مليئة بموضوعات الخصوبة».

من أكثر البواعث على ضيق المرأة حين تكون زوجة لعالم آثار معرفته الخبيرة بما يكتنف أشد الأشكال براءة!

يلاحظ ماكس، عرضاً، في الخامسة والنصف من بعد الظهر، أنه يحسن به أن يذهب ويبتاع بضعة قمصان وجوارب وأشياء مماثلة. لكنه يعود بعد ثلاثة أرباع الساعة ساخطاً لأن كافة المتاجر تقفل أبوابها في السادسة مساء. وعندما أقول له ذلك، يجيب بأنه لم يلاحظ هذا الأمر من قبل.

يقول الآن إنه لم يعد لديه ما يفعله باستثناء «ترتيب أوراقه».

أخلد إلى الفراش في الحادية عشرة مساء تاركة ماكس جالساً إلى مكتبه (الذي يمنع ترتيبه أو مسح الغبار عنه تحت طائلة أشد العقوبات) غارقاً في رسائل وفواتير وكتيبات ورسوم فخاريات وأعداد لا تحصى من الكسر الخزفية وعلب ثقاب متنوعة لا يوجد فيها أي عود ثقاب بل حبات غريبة مغرقة في القدم.

يدخل إلى غرفة النوم في الساعة الرابعة صباحاً والإثارة بادية على محياه وفي يده كوب من الشاي كي يعلن أنه عثر، أخيراً، على ذلك

المقال المشوق للغاية عن اللقى الأناضولية الذي أضاعه في شهر تموز المنصرم. قبل أن يضيف إنه يأمل أنه لم يوقظني.

أجيبه بأنه أيقظني بالطبع وأنه من الأفضل له أن يحضر كوباً من الشاي لي أيضاً!

يعود مع الشاي ويقول إنه عثر، كذلك، على عدد كبير من فواتير كان يظن أنه سددها. أنا، بدوري، أعاني من هذه الخبرة. ونتفق، نحن الاثنين، أن الأمر محزن.

في التاسعة صباحاً، أُستدعى بوزني الثقيل، كي أجلس على حقائب ماكس المتورمة.

يقول ماكس بتواضع: «إن لم تستطيعي إغلاقها، فلا أحد آخر يستطيع!»

ننجح، أخيراً، في إنجاز المهمة الخارقة للطبيعة البشرية بالاستعانة بالوزن الساحق، وأعود إلى معضلتي التي هي، كما أبلغتني عنها نظرتي النبوئية بالضبط، الحقيبة ذات السحَاب. لقد بدا الأمر في متجر السيد غوتش، وكانت الحقيبة خاوية حينذاك،كان السحاب يسيراً وجذاباً ويختصر الجهد والوقت. كم بدت حركته جيئة وذهاباً سلسة! أما الآن، وقد امتلأت الحقيبة عن آخرها، فيبدو إغلاقها أشبه بمعجزة تفوق قدرات البشر. كان علي جمع الحافتين معاً بدقة رياضية، وفي اللحظة التي يبدأ السحاب فيها في التحرك ببطء، تبدأ التعقيدات بسبب زاوية كيس الإسفنج. وعندما أنجح في إغلاقها بعد لأي، أحلف أيماناً مغلطة بأنني لن أفتحها ثانية إلا بعد أن نصل إلى سورية!

بيد أنه يتبين لي، بعد شيء من التفكير، أن هذا الأمر مستحيل تقريباً. فماذا عن كيس الإسفنج الذي ذكرته؟ هل سأمضي خمسة

أيـام في السفـر دون استحمام؟ لكن عدم الاستحمـام يبدو، في هذه اللحظة، أفضل بكثير من فتح الحقيبة ذات السحاب!

نعـم، لقد حانت اللحظـة الآن ونحن نقلع بالفعـل. خلفنا وراءنا الكثـير من الأمور المعلقة، وخذلتنـا المصبغة كالعادة. إذ لم يف منظفو الملابـس، لبالغ حزن ماكس، بعهودهم – لكـن أية أهمية لذلك بعد؟ إننا ذاهبون!

نخـال، للحظة أو اثنتـين، أننا لن نذهب! فحقائـب ماكس ذات المظهر الخادع تفوق قدرة سائق سيارة الأجرة على حملها. فيتصارع معها بمعونة ماكس وينجحـان، في نهاية المطاف، في رفعها إلى سيارة الأجرة بمساعدة أحد عابري السبيل.

تحملنا السيارة إلى فيكتوريا.

عزيزتي فيكتوريا، بوابة العبور إلى العالم خارج إنكلترا، كم أحب رصيفك القـاري. كم أحب القطارات علـى كل حال – وكم أحب نشـوة تَنَشق تلك الرائحـة الكبريتية – البعيـدة كل البعد عن الروائح النفطيـة الثقيلة الباردة المنبعثة مـن السفينة التي تصيبني بالإحباط على الـدوام بما تنبئني به من أيام قادمة سيصيبنـي فيها الدوار، أما القطار– القطـار الكبير الـذي يشخر مستعجـلاً الانطلاق فهو حلـو المعشر، بمحركـه الكبير الذي ينفث مطلقـاً سحباً من البخار وكأنه يقول بنفاذ صـبر: «علي أن أنطلـق – علـي أن أنطلق – علـي أن أنطلق!»، فهو صديق! لأنه يشاركك المزاج– فأنت، بدورك، تقول: «علي أن أنطلق – علي أن أنطلق – علي أن أنطلق – علي أن...»

يتحلق الأصدقاء عند باب عربة النوم الخاصة بنا في انتظار رحيلنا.

نتبادل العبارات الحمقاء المعهودة. تنسكب الكلمات الشهيرة الأخيرة من بين شفتي، على شكل تعليمات خاصة بالكلاب، وأخرى بالأطفال، وعن ضرورة مراسلتنا، وعن إرسال كتبنا، وعن أشياء نسيناها «أظن أنك ستجدينها على البيانو، لكنها قد تكون على رف الموقد في غرفة الاستحمام». كل الأشياء التي قيلت من قبل، ولا حاجة بنا، في نهاية المطاف، إلى قولها من جديد!

ماكس محاط بأقربائه، وأنا بأقربائي.

تقول شقيقتي وعيناها مغرورقتان بالدموع إنها تشعر أنها لن تراني ثانية. لا أتأثر كثيراً بما قالته لأن هذا الشعور ينتابها في كل مرة أمضي فيها إلى الشرق. تسألني عما يجب أن تفعل إن أصيبت روزاليند بالتهاب زائدة. لا يوجد ما يستدعي إصابة ابنتي ذات الأربعة عشر ربيعاً بالتهاب الزائدة، والإجابة الوحيدة التي تخطر في بالي هي: «لا تجري العملية بنفسك!» لأن شقيقتي معروفة بسرعة لجوئها إلى المقص في مواجهة البثور ومن أجل قص الشعر وصنع الملابس- وعلي أن أقر أنها تفعل ذلك بنجاح كبير في العادة.

أتبادل الأقرباء مع ماكس، وتحثني حماتي العزيزة على العناية بنفسي مفترضة أنني أعرض نفسي بشرف لخطر شخصي كبير.

تنطلق الصافرات وأخاطب صديقتي وسكرتيرتي ببضع كلمات أخيرة مسعورة. هل ستقوم بكل ما لم يتم إنجازه وتوبخ المصبغة ومنظفي الملابس بما يستحقونه وتزود الطاهي برسالة توصية جيدة وترسل الكتب التي لم أستطع توضيبها وتستعيد مظلتي من سكوتلانديارد

وتكاتب، على نحو ملائم، الكاهن الذي اكتشف ثلاثة وأربعين خطأ نحوياً في كتابي الأخير وهل ستشتري بذور الجزر والقرع من أجل الحديقة؟ نعم، ستقوم بكل ذلك- وسترسل إلي برقية في حال وقوع أزمة في الوطن أو في عالم الأدب. أقول لها أن لا مشكلة. فهي مفوضة بالتصرف بموجب وكالة قانونية وتستطيع القيام بكل ما يحلو لها. فتنظر بشيء من التوجس وتقول إنها ستمارس أكثر درجات الحرص. صافرة أخرى! أودع شقيقتي وأقول لها بانفعال إنني، بدوري، أشعر أنني لن أراها من جديد وأن روزاليند قد تصاب بالتهاب في الزائدة. تقول شقيقتي هذا هراء، فما الذي يستدعي إصابتها بذلك؟ نقفز إلى عربتنا، ويشخر القطار ويتحرك. لقد أقلعنا.

ينتابني، على مدى خمس وأربعين ثانية، شعور رهيب قبل أن تعاودني البهجة من جديد مع مغادرتنا محطة فيكتوريا. ها نحن أولئك قد بدأنا رحلتنا الجميلة والمثيرة إلى سورية.

هنالك ما هو مميز في عربة النوم على الرغم من أنها ليست مريحة بقدر ركن في عربة عادية من الدرجة الأولى. لكننا نستقل عربة النوم، على الدوام، بسبب حقائب ماكس التي لا يمكن لأية عربة عادية أن تتسامح معها. كما أن ماكس لا يغامر بكتبه الثمينة بعد تسجيل الأمتعة.

نصل إلى دوفر كي نجد البحر هادئاً. بيد أنني أنسحب إلى «صالون السيدات» وأتمدد هناك وأستغرق في مشاعر التشاؤم التي تبعثها فيّ حركة الموج. لكننا سرعان ما نصل إلى كاليه حيث يقدم المضيف الفرنسي رجلاً ضخماً يرتدي زياً أزرق كي يتدبر أمر حقائبي قائلاً:

«ستجدينـه سيدتي في الجمارك». أسألـه: «وما هو رقمه؟». فيجيبني المضيف على الفور مؤنباً:

« Madame! Mais, c'est le charpentier du bateau!»[1]

أخجـل قليلاً- ثم أفكر، بعد بضـع دقائق، إنها ليست إجابة حقاً. لمـاذا؟ لأن كونـه *le charpentier du bateau* لا يسهـل مهمة تمييزه بـين بضع مئات مـن الرجال الذين يرتدون الـزي الأزرق ويصرخون جميعـاً: «*Soixante treize?*» الخ... كمـا أن مجرد صمته لن يكون، بـدوره، علامـة كافية. وفضلاً عـن ذلك، هل يؤهلـه كونه *le charpentier du bateau* أن يميـز، بثقة مؤكدة، امرأة إنكليزية في منتصف العمر وسط حشد من الناس؟

ينضـم إلي ماكس عند هذه المرحلة من تأملاتـي ويقول إنه حصل على حمـال من أجل أمتعتي. فأشرح له كيف أن *le charpentier du bateau* أخـذ أمتعتي، فيسأل ماكس لماذا سمحت له بذلك؟ ينبغي أن تبقـى كافة الحقائب معاً. أوافقه على ما قـال لكنني ألتمس العذر بأن ذكائي يخونني على الدوام عندما أكون في البحر. يقول ماكس: «آه، حسناً، سنقوم بجمعها عندما نصل إلى الجمارك» حيث سننتقل هناك إلى جحيـم صراخ الحمالين وإلى لقاء النمـوذج الوحيد لامرأة فرنسية غير محببة- هي موظفة مكتب الجمارك، وهي كائن حرمته الطبيعة من السحر والأناقة ومن كافة النعم الأنثوية. تنخس الحقائب وتحدق فيها وتسـأل بعدم تصديق: «*Pas de cigarettes?*»[2]، قبل أن تنخر على مضض وتخربش على حقائبنا بالطباشير بعض الأحرف الهيروغليفية

١- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "سيدتي! لكنه نجار السفينة!" (المترجم)

٢- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "لا سجائر" (المترجم)

الغامضة ونخرج من هناك إلى قطار الشرق وإلى الرحلة عبر أوروبا.

قبل سنوات وسنوات، عندما كنت أسافر إلى الريفيرا أو إلى باريس، كان مرأى قطار الشرق السريع في كاليه يسحرني على الدوام وكنت أتوق إلى السفر فيه. أما الآن، فقد أصبح هذا القطار صديقاً قديماً، لكن التشويق لم يخب تماماً. إنني أسافر فيه الآن! أنا في داخله! بل أنا، في الواقع، في العربة الزرقاء التي كتبت عليها من الخارج العبارة البسيطة التالية: «كاليه– اسطنبول». إنه قطاري المفضل دون ريب. أحب إيقاعه الذي يبدأ بنغمة أليغرو وهو يتمايل ويتحشرج ويقذف الركاب من جانب إلى جانب في استعجاله المجنون لمغادرة كاليه والغرب، ثم يتباطأ بالتدريج إلى مستوى نغمة رالينتاندو في تقدمه نحو الشرق قبل أن ينتهي الأمر به إلى نغمة ليغاتو واضحة.

أرفع الستارة في الصباح الباكر من اليوم التالي وأراقب الأشكال الباهتة للجبال في سويسرا، ثم ننزل إلى سهول إيطاليا مروراً ببلدة ستريزا الجميلة وبحيرتها الزرقاء. ثم نصل، في وقت لاحق، إلى المحطة الأنيقة التي هي كل ما تتاح لنا رؤيته من مدينة البندقية، وننطلق من جديد على طول ساحل البحر إلى تريستا ثم إلى يوغسلافيا. تتناقص سرعة القطار بالتدريج وتصبح الوقفات أطول وتبدأ الساعات المعلقة في المحطات في عرض مواقيت متضاربة. أسماء المحطات مكتوبة بأحرف ذات أشكال مثيرة ومظهر غير مألوف. المحركات ضخمة يشي مظهرها بأنها مرتاحة وتنفث دخاناً شريراً كالح السواد. فواتير عربة الطعام مكتوبة بعملات تبعث على الحيرة كما تظهر زجاجات مياه معدنية غير مألوفة. هنالك رجل فرنسي ضئيل جالس إلى طاولة قبالتنا، وهو منكب بصمت على دراسة فاتورته منذ بضعة دقائق.

ثـم يرفع رأسـه وتلتقي عيناه بعينـي ماكس. فيرتفـع صوته المشحون بالانفعالات بالشكوى:

.« *Le change des Wagons Lits, c'est INCROYABLE!* »[٣]

وفي الجهـة الأخرى من الردهة، يطلب رجـل أسمر ذو أنف معقوف قيمـة فاتورته بالعملات التالية: (أ) الفرنك، (ب) اللير، (ج) الدينار، (د) الليـرة التركية، (هـ) الـدولار. وعندما يعود إليه نادل عربة الطعام بالمطلـوب بعد لأي، ينكب المسافر علـى الحساب بصمت ثم يسدد، بمـا هو عليه من دماغ مالي بارع، قيمـة الفاتورة بالعملة المواتية لجيبه. ويشرح لنـا كيف أنه استطاع، بهذه الطريقـة، توفير ما يعادل خمسة بنسات بالعملة الإنكليزية!

يصعـد موظفـو الجمـارك الأتـراك إلى مـتن القطـار في الصباح ويتحركون بروية ويبدون اهتمامـاً كبيراً بأمتعتنا. يسألونني لماذا لدي كل هـذا العدد مـن الأحذية؟ إنها كثـيرة للغاية. لكننـي أجيبهم أنني لا أحمـل سجائر لأننـي لا أدخن، فلماذا لا أصطحـب بضعة أزواج إضافية؟ يقبـل موظف الجمارك هذا التفسير، إذ يبـدو له عقلانياً. ثم يسألني ما هذا المسحوق في هذه العلبة الصغيرة؟

أقـول إنـه مسحوق للحشرات، كي أجـد أن الأمر غير مفهوم. إذ يتجهـم وجه الرجل ويبدو متشككاً. لا بـد أنه يشتبه في كوني مهربة مخدرات. يقول بنبرة اتهام إن هذا المسحوق ليس للأسنان ولا للوجه، فـلأي شيء يستخـدم إذن؟ فأقدم فاصـلاً إيمائياً ممتعـاً! أحك جلدي بطريقة واقعية وأقبض على المتطفل. ثم أنثر المسحوق. آه، أصبح الأمر

٣- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أسعار الصرف لدى واغون لي لا تصدق!" (المترجم)

مفهومـاً! يلقي رأسه إلى الخلف ويزمجر ضاحكاً ويردد كلمة تركية ما. هذا ما يعنيه المسحوق بالنسبـة إليهم! ويردد النكتة أمام أحد زملائه. ثـم يغادران وقد بدا أنهما استمتعا بها كثـيراً. يصل الآن سائق القطار كي يلقننـا بعض التعليمات. سوف يعودون بجوازات سفرنا وسوف يسألوننـا عن مقدار المال الـذي نحمله، فنجيبهم لدينـا «*effectif، ?vous comprenez*»[٤]. أحب كلمـة *effectif*– إنها تعني بدقة كمية المال الفعلية المتوفرة نقداً. ويتابع السائق قائلاً «ستقولون إنكم تحملون هـذا القدر من المـال السائل تماماً!» ويخبرنا بالمبلـغ، فيعترض ماكس قائـلاً إننا نحمـل أكثر من ذلك. «لا يهـم. إن أخبرته بذلك ستتسبب لنفسك بالمتاعب. سوف تقول له إنك تحمل رسالة ائتمان أو شيكات سياحيـة والقدر المطلوب من المال السائل». ويضيف مفسراً ما يقول: «إنهـم لا يهتمون بما تحمله فعـلاً، هل تفهم؟ لكـن الإجابة يجب أن تكون *en règle*[٥]. سوف تقول أحمل هذا القدر من المال».

يأتـي، في هـذه اللحظـة، السيد المكلـف بالمسائـل المالية ويدون إجاباتنـا قبـل أن نجيـب. كل شـيء *en règle*. أمـا الآن، فنصـل إلى اسطنبـول ونتسل بين بيـوت غريبة ذات مغاليـق خشبية ويظهر على يميننا البحر وقلاع ثقيلة من الحجر.

هذه المدينـة، اسطنبول، تصيبك بالجنون– لأنك تعجز عن رؤيتها عندمـا تكـون فيها! إذ لا يستطيـع المرء أن يرى اسطنبـول، فعلياً، إلا عندمـا مغادرته الجانب الأوروبـي إلى الشاطئ الآسيـوي عبر مضيق البوسفـور. جميـلاً يبدو صباح هـذا اليوم، صباح صـاف، مشرق،

٤– بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "بالقدر المطلوب، هل تفهمون؟" (المترجم)

٥– بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "قانونية؟" (المترجم)

وشاحب لا أثر للضباب فيه ومآذن المساجد تطاول السماء.

يقول سيد فرنسي: «آيا صوفيا غاية في الجمال».

يوافقه الجميع على ما يقول باستثناء مؤسف وحيد من جانبي. فأنا، ويا للحسرة، لم أعجب بآيا صوفيا يوماً. قد يكون ذلك عيباً مشؤوماً في ذائقتي. لكن هذا هو الواقع. إذ بدا حجمه لي، على الدوام، غير مقبول. تشعرني أفكاري المنحرفة بالعار، فألتزم الصمت.

الآن إلى القطار الذي ينتظرنا في محطة حيدر باشا، حيث يُقدم لنا، مع انطلاقه إفطار كنا الآن في أمس الحاجة إليه! ثم نمضي يوماً جميلاً في رحلة على طول ساحل بحر مرمرة الذي تتناثر فيه جزر تبدو مبهمة وجميلة. أفكر للمرة الألف في أنني أرغب في اقتناء واحدة من هذه الجزر. كم هي غريبة تلك الرغبة في امتلاك جزيرة! وهي رغبة يعاني منها معظم الناس، إن عاجلاً أم آجلاً. إنها ترمز، في العقل البشري، إلى الحرية والوحدة والتحرر من كافة الهموم. بيد أنها تعني، برأيي الشخصي في الواقع، الأسر لا الحرية. إذ سيضطر المرء، على الأرجح، من أجل تدبير شؤون مدينته، إلى الاعتماد على البر كلياً، وسيضطر باستمرار إلى كتابة لوائح طويلة من مشتريات البقالة وسيعاني الأمرين في تدبر اللحم والخبز وسيقوم بكل أعمال تنظيف المنزل بنفسه لأنه لن يجد سوى قلة من خدم المنازل الذين يوافقون على العيش في جزيرة بعيداً عن أصدقائهم وعن دور السينما في غياب أية وسيلة للتواصل مع زملائهم. لكنني كنت أتخيل، على الدوام، أن الأمر، في حالة الجزر الواقعة في بحر الجنوب، سيكون بالغ الاختلاف! هناك، يجلس المرء طوال اليوم بكسل ويتناول أفضل أنواع الفاكهة معفياً من غسيل الأطباق والسكاكين وشوك الطعام ومن المشاكل التي تتسبب

بها الدهون للبالوعة! بيد أن الواقع هو أن أفراد المجموعة الوحيدة من سكان جزر بحر الجنوب التي قيض لي مقابلتها كانوا يتناولون أطباقاً من لحم العجل الحار المطهو بالغلي البطيء والمغلف بالدهن وكانوا جالسين إلى مائدة غطاؤها غاية في القذارة.

لكن لا، فالجزيرة، أية جزيرة، هي جزيرة أحلام، وينبغي أن تكون كذلك! جزيرة لا أعمال كنس فيها ولا مسح للغبار وترتيب للأسرة ولا كي للملابس أو غسيل للأواني أو دهون أو مشكلات طعام أو لوائح بقالة أو صيانة مصابيح أو تقشير للبطاطس أو تخلص من القمامة. ففي جزيرة الأحلام لا يوجد سوى الرمل الأبيض والبحر الأزرق- وربما منزل مقبول يتوسط موقعه مشرق الشمس ومغربها- وشجرة التفاح والطيور المغردة و...

يقاطعني ماكس، عند هذه النقطة من تأملاتي، سائلاً إياي عما أفكر فيه. أجيبه ببساطة: «الجنة!».

فيقول ماكس: «آه. انتظري حتى تري نهر جغجغ!».

أسأله إن كان جميلاً بالفعل، فيجيبني إنه لا يعلم لكنه، في الواقع، جزء مثير للغاية من العالم لا يعلم عنه أحد شيئاً بالفعل!

يشق القطار دربه في ممر ضيق مخلفاً البحر وراءه.

نصل، في صباح اليوم التالي، إلى البوابات الكيليكية ونطل على واحد من أجمل المناظر التي رأيتها في حياتي. الأمر أشبه بالجلوس على حافة العالم والنظر إلى الأسفل، إلى الأرض الموعودة فيحس المرء بما لا بد من أن يكون موسى قد أحس به بالتأكيد. لأنه هنا، كذلك، ليس هناك من سبيل إلى الدخول... فذلك الجمال الرقيق، الضبابي، الأزرق القاتم هو أرض لن يتمكن المرء من بلوغها. إذ أن البلدات

والقرى الحقيقية عند بلوغ ذلــك المكان هي العالم اليومي العادي، لا هذا الجمال الساحر الذي يدعوك إلى النزول...

يصفر القطار فنصعد من جديد إلى مقصورتنا.

ثم إلى حلــب. ومن حلب إلى بيروت التــي سيقابلنا فيها مهندسنا المعماري وحيــث سيتم هناك التمهيد للاستطــلاع الأولي في الخابور وجغجغ الذي سيقودنا إلى اختيار أكمة مناسبة للتنقيب.

فالعملية برمتها تبدأ من هنا، كما في حال السيدة بيتون[٦]. اصطد أرنبك أولاً.

وكذلــك الأمر في حالتنا. اعثر على أكمتك أولاً. وهذا، بالضبط، ما نحن في صدده.

٦-إيزابيلا ماري بيتون (١٨٣٦- ١٨٦٥) كاتبة إنكليزية معروفة بكتبها في الطهو والتدبير المنزلي (المترجم)

الفصل الثاني

رحلة استطلاع

بيروت. بحر أزرق، خليج مقوس، خط ساحلي طويل من جبال زرقاء ضبابية. ذلكم هو المشهد من مصطبة الفندق. ومن غرفتي، المطلة على اليابسة، أشاهد حديقة من أزهار بنت القنصل القرمزية. سقف الغرفة مرتفع وهي مطلية بطلاء مائي أبيض وتشبه، في هذا الجانب، السجن إلى حد ما. يضفي وجود مغسلة عصرية كاملة بصنبوريها وأنابيب التصريف لمسة من حداثة جريئة[٧]. فوق المغسلة خزان كبير ذو شكل مربع يتصل بالصنبورين ومزود بغطاء يمكن تحريكه. الخزان في الداخل مملوء بماء رائحته آسنة وهو متصل بصنبور الماء البارد فحسب.

إن وصول تمديدات الماء إلى الشرق محفوف بالشراك. فكم من مرة يتدفق الماء البارد من صنبور الماء الساخن والماء الساخن من صنبور الماء البارد! وكم أتذكر على نحو جيد حوض استحمام في حمام «غربي» مجهز حديثاً حين تدفقت من صنبور الماء الساخن كميات هائلة من ماء يغلي دون أن أحصل ولو على قطرة ماء بارد واحدة ودون أن أتمكن من إغلاق صنبور الماء الساخن، ثم يعلق مزلاج الباب!

وفيما أنا أتأمل في أزهار بنت القنصل بحماسة وفي تجهيزات

٧- ملاحظة: كتبت هذه السطور قبل افتتاح فندق سان جورج الحديث.

الاستحمـام باشمئـزاز، أسمع نقراً علـى الباب. يظهـر رجل أرمني مربـوع القامة يبتسـم بلطف. يفتح فـاه ويشير بإصبعـه إلى حلقومه وينبس بنبرة مشجعة: «*Manger!*».

بهذه الحيلة البسيطـة يستطيع أقل الناس ذكاء أن يفهموا أن الطعام يقدم الآن في غرفة الطعام.

هناك، أجد ماكس في انتظاري مع مهندسنا المعماري الجديد ماك، الـذي بالـكاد أعرفه. سوف ننطلـق في غضون بضعة أيـام في حملة تستمر ثلاثة شهور ندرس فيها المواقع المحتملة. وسوف يذهب معنا، بصفـة دليل وفيلسوف وصديق، حمـودة، الذي عمل سنوات طوالاً رئيساً للعمال في أور، وهو صديق قديم لزوجي وهو من سوف يرافقنا بين مواسم التنقيب في شهور الخريف تلك.

ينهض ماك من كرسيه ويرحب بي بتهذيب ونجلس إلى مائدة حافلة بأطعمـة لذيـذة وإن تكن دهنية بعضـ الشيء. أتوجـه إلى ماك ببضع عبـارات يفترضـ بها أن تكون وديـة فيصدها ببراعـة بالرد بكلمات مثل: "آه، حقاً؟" أو "بالفعل" أو "غريب".

أشعـر بشيء من الانقباض وتهيمن علي قناعة مزعجة أن معمارينا الشاب سيبرهن عن كونه واحداً من أولئك الأشخاص الذين ينجحون، بـين الفينة والأخرى، في جعلي بلهاء من شـدة الخجل. الشكر لله أن تلـك الأيـام التي كنت أخجـل فيها من كل الناس قـد ولت منذ زمن بعيد. فقد اكتسبت، مع بلوغي منتصف العمر، قدراً معقولاً من رباطة الجأش وحسن التصرف. ولذلـك أهنئ نفسي، بـين الحين والآخر، علـى أن تلك المسألة السخيفة وقد ولت إلى غير رجعة! وأقول لنفسي بسعـادة: "لقد تغلبت عليه". ثم يظهـر، في لحظة الثقة بالنفس تلك،

شخص غير متوقع يردني، من جديد، إلى حالة الغباء المذعور.

لا يجديني نفعاً القول لنفسي إن هذا الشاب ماك قد يكون، هو نفسه، خجولاً للغاية وإن خجله هو ما يجعله يشكل درعه الدفاعي– إذ تبقى ماثلة أمام عيني حقيقة إدراكي أنني، في مواجهة أسلوبه المترفع البارد وحاجبيه اللذين يرفعهما برقة وانتباهه اللبق بكلمات أعلم تمام العلم أنها لا تستحق عناء الاستماع إليها، أتضاءل أمامه بطريقة بادية للعيان وأجد نفسي أتفوه بكلمات أدرك تماماً أنها محض هراء. ومع انتهائنا من تناول الطعام، يعاجلني ماك بتوبيخ آخر.

إذ يقول بلطف رداً على تصريح مؤسف حول البوق الفرنسي صدر مني: "إنه ليس بالتأكيد كذلك؟"

وهو، محق تماماً بالطبع. فالبوق الفرنسي ليس فرنسياً.

يسألني ماكس، بعد الغداء، عن رأيي بماك. فأجيبه بحذر إنه لا يبدو عليه أنه يتكلم كثيراً. فيقول ماكس إنه شيء ممتاز. ويضيف لا أعلم ما يمكن أن يكون عليه الأمر حين أكون محتجزاً في الصحراء مع شخص لا يكف عن الكلام! "لقد اخترته لأنه يبدو من النوع الصموت!".

أقر أن في منطقه شيئاً من الوجاهة. ويمضي ماكس إلى القول إنه ربما يكون خجولاً حقاً، لكنه سرعان ما سينفتح. ثم يضيف بلطف: "ربما يكون مذعوراً منك".

أعتبر الفكرة مشجعة وإن لم أشعر أنني مقتنعة بها.

لكنني أحاول إعطاء نفسي علاجاً عقلياً سريعاً.

فأقول لنفسي أنت، أولاً، في سن تصلحين معها أن تكوني أماً لماك. وأنت، كذلك، كاتبة– كاتبة معروفة. وإلا لما كان اسم إحدى

شخصياتـك قد اختير حلاً لواحدة مـن أحجيات صحيفة التايمز (وهي علامة على ذروة الشهرة!). وأنت، فضلاً عن ذلك، زوجة قائد الحملة! بـالله عليك، إن كان لأحد أن يزجر أحـداً لكنت أنت من سوف يزجر الشاب، لا الشاب من سوف يزجرك.

نقـرر، في وقت لاحق، الخـروج لتناول الشـاي، فأذهب إلى غرفة مـاك كي أسأله القـدوم معنا وكلي تصميم على الظهـور بمظهر طبيعي وودود.

الغرفة مرتبة على نحو لا يصـدق، وماك جالس على بساط مطوي ذي نقوش مربعة يكتب في دفتر يومياته. يرمقني بنظرة استفهام مهذب.

"ألن تأتي معنا لتناول الشاي؟"

ينهض ماك.

"شكراً لك".

"أتوقـع أنك قد ترغب، فيما بعـد، في استكشاف المدينة. التسكع في مكان جديد أمر ممتع".

يرفع ماك حاجبيه بلطف ويقول ببرود: "حقاً؟"

أنكمش قليلاً، وأتقدمه إلى الرواق حيـث ينتظرنا ماكس- يشرب مـاك كوباً كبيراً مـن الشاي وهو غارق في صمت سعيـد. أما ماكس، فيتناول الشاي في الحاضر وأفكاره بعيدة عنا أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

ثم يخرج من شروده فجأة مع انتهائه من التهام آخر قطعة من الحلوى ويقترح علينا أن نمضي كي نرى تقدم العمل في تجهيز سيارتنا الشاحنة.

نذهـب على الفور كـي نلقي نظرة على السيـارة الشاحنة- وهي هيـكل سيارة نقل من طراز فورد يتم تزويده بجسد محلي الصنع. كان

علينا أن نرضخ للأمر الواقع لأنه لا يمكن الحصول على سيارة مستعملة بحالة جيدة على نحو مرض.

تسير أعمال تجهيز جسد السيارة بتفاؤل مؤكد على طريقة "إن شاء الله"، بل إن الأمر برمته يبدو أفضل من أن يكون حقيقياً على نحو يثير الشكوك. يبدي ماكس بعض القلق من عدم ظهور حمودة الذي كان يفترض به أن يلاقينا، في هذا اليوم، في بيروت.

يسخر ماك من فكرة مشاهـدة المدينة ويعود إلى غرفته كي يجلس على بساطـه ويكتب في دفتر يومياته. أما أنـا فينتابني الفضول لمعرفة ماذا يكتب في دفتر اليوميات.

استيقاظ مبكر. يفتح باب غرفتنا في الخامسة صباحاً ونسمع صوتاً يعلن بالعربية: "رؤساء عمالكم قد وصلوا!".

يندفع حمودة ونجـلاه إلى الغرفة بسحرهم المثـير ويمسكون أيدينا ويضعونهـا علـى جباههم. "شلـون كيفك؟"... "كلشـ زين؟"... "الحمد لله! الحمد لله!". ونشكر الله معاً!

نطلب الشاي كـي ننفض عنا غشاوة النوم ويجلس حمودة وابناه القرفصاء على الأرض دون أن يبدو عليهم أي ضيق من ذلك ويتبادلون الأخبـار مع ماكس. يحول الحاجز اللغوي بينـي وبينهم المشاركة في المحادثة. إذ كنت قد استنفذت ذخيرتي من اللغة العربية بالفعل. أتوق بشدة إلى النوم وأتمنى لو أن عائلة حمودة أرجأت ترحابها بنا إلى ساعة أكثر ملاءمة. لكنني أدرك أنهم يعتبرون قدومهم في هذا الوقت طبيعياً تماماً.

يـدد الشاي ضبـاب النـوم ويخاطبني حمـودة ببضـع عبارات يترجمها ماكس كما يترجـم ردودي. هؤلاء الرجال الثلاثة يطفحون بالسعادة وأدرك، من جديد، كم هم أشخاص ممتعون.

الاستعدادات الآن على قدم وساق. التسوق من المتاجر، توظيف سائق وطاه. زيارات إلى مديرية الآثار. غداء ممتع مع المدير، مسيو سيريغ، وزوجته الفاتنة للغاية. لا أحد، في الواقع، يستطيع أن يكون أكثر لطفاً منهما– ناهيك عن أن الغداء شهي بالفعل.

أبتاع المزيد من الأحذية، في مخالفة صريحة لرأي رجل الجمارك التركي حول كوني أمتلك أكثر مما ينبغي منها. شراء الأحذية في بيروت متعة. فإن لم يكن القياس الذي تطلبه متوفراً، فإنهم يصنعون من أجلك، في بضعة أيام، حذاء من جلد جيد يناسب قدميك تماماً. علي أن أقر أن شراء الأحذية من نقاط ضعفي. لن أجرؤ بالتأكيد على العودة إلى الوطن عن طريق تركيا!

نتسكع في الأحياء القديمة ونشتري كمية كبيرة من مادة، هي نوع من حرير أبيض سميك موشى بخيوط مذهبة أو زرقاء قاتمة. ونشتري عباءات حريرية كي نرسلها إلى الوطن كهدايا للأصدقاء. ماكس مولع بكل أنواع الخبز. كل من تجري في عروقهم دماء فرنسية يعشقون الخبز الجيد. فالخبز يعني للرجل الفرنسي أكثر بكثير مما يعني له أي طعام آخر. سمعت ذات مرة ضابطاً في جهاز الخدمة الخاصة يقول عن زميل له في مخفر أمامي معزول بلهجة تشي بالكثير من الإشفاق الصادق:

«*Ce Pauvre Garçon! Il n'a même pas du pain là-bas, seulement la galette Kurde!*.»[8]

تنتظرنا كذلك معاملات طويلة ومعقدة مع المصرف. إحجام

٨– بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "ذلك الفتى المسكين! ليس لديه هناك حتى الخبز، بل مجرد فطائر كردية" (المترجم)

المصارف عن القيام بأي عمل مهما يكن شأنه، كما هي الحال في الشرق على الدوام، يذهلني. إنهم يتمتعون بالكثير من التهذيب والسحر، لكنهم مهووسون بالتهرب من تنفيذ أية معاملة حقيقية. «*Oui, oui*» يتمتمون بلطف. «*Ecrivez une lettre!*»[٩] ثم يعودون إلى الجلوس ويتنفسون الصعداء وقد نجحوا، أخيراً، في إرجاء القيام بالعمل.

ثم، عندما يجدون أنفسهم مرغمين على إنجاز المعاملة، ينتقمون منك من خلال نظام معقد يقوم على «*les timbres*»[١٠]. فأية وثيقة، وأي شيك، وأية معاملة مهما يكن نوعها تزداد تعقيداً بطلب «*les timbres*». فيجد المرء نفسه يسدد باستمرار مقادير ضئيلة من المال. وعندما تظن أن كل شيء قد تم، تواجه بطلب جديد!

«*Et deux francs cinquante centimes pour les timbres, s'il vous plait*».[١١]

وأخيراً تصبح المعاملات ناجزة بعد كم كبير من الرسائل وأعداد لا تصدق من الطوابع. وتنفرج أسارير كاتب المصرف وقد تخلص منا أخيراً. ثم نسمع صوته، أثناء مغادرتنا المصرف، يقول بحزم لزبون آخر هام: «Ecrivez une lettre s'il vous plait».

ما تزال مهمة استئجار السائق والطاهي في انتظارنا.

٩- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "اكتب رسالة" (المترجم)

١٠- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "الطوابع" (المترجم)

١١- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "فرنكان وخمسون سنتيماً من أجل الطوابع من فضلك" (المترجم)

تحل مشكلة السائق أولاً. إذ يصل حمودة ويعلمنا بوجه مشرق أن حظنا كبير لأنه أمن لنا سائقاً ممتازاً.

يسأله ماكس كيف استطاع أن يقع على هذا الكنز؟

يبدو أن الأمر كان في غاية البساطة. كان الرجل واقفاً على الكورنيش البحري، وكان قد مر عليه بعض الوقت دون أن يعمل وكان في وضع مزر للغاية، ولذلك سوف يأتي مقابل أجر زهيد. هكذا، نقتصد في الحال بعض المال!

لكن هل هنالك من طريقة كي نعرف إن كان سائقاً بارعاً؟ يتعامل حمودة مع هذا السؤال باستخفاف. فكما أن الخباز رجل يضع الخبز في الفرن ويخبزه، فالسائق، بدوره، رجل يأخذ سيارة ويقودها!

يوافق ماكس، في غياب أي عرض أفضل، على توظيف عبد الله دون كبير حماسة ويخضعه لمقابلة. لعبد الله شبه كبير بالجمل فيتنهد ماكس قائلاً إنه يبدو غبياً بكافة المقاييس وهو أمر حسن على الدوام. أسأله لماذا، فيقول ماكس لأنه لا يملك من العقل ما يجعله غير نزيه.

نخرج بالسيارة، في بعد ظهيرة يومنا الأخير في بيروت، إلى نهر الكلب. هناك، في أخدود مائي مشجر، يوجد مقهى يمكنك أن تحتسي فيه القهوة ثم تقوم بجولة ممتعة على طول ممر ظليل.

لكن السحر الحقيقي في نهر الكلب يكمن في الكتابات المنقوشة على الصخر عند درب يفضي إلى الطريق الذي يقود إلى جبل لبنان. من هنا مرت، في عدد لا يحصى من الحروب، جيوش خلفت بصماتها في المكان. هنا كتابات هيروغليفية من عصر رمسيس الثاني ومفاخر دونها الجيشان الآشوري والبابلي. وهناك وجه تيغلاث فيلصر الأول. وبدوره، ترك سنحريب، في عام ٧٠١ قبل الميلاد، بعض النقوش.

وفي هــذا المكان خلد أسرحدون ونبوخذ نصر انتصاراتهما، ومن هنا، كذلك، مر الاسكندر مخلفاً علامته. وأخيراً، كتب جنود جيش اللنبي، عـام ١٩١٧، على هــذه الصخور أسماء وأحرفــاً أولى، في استكمال لتقليد عريق. لا أتعب أبداً من التأمل في هذا السطح الصخري الحافل بالنقوش. فهاهنا تاريخ يتحدث عن نفسه.

تستولي هذه الأجواء علي إلى درجة أقول فيها لماك إنها مثيرة للغاية وأسأله عن رأيه.

فيرفــع ماك حاجبيه المهذبين ويقول بنبرة عدم اهتمام كلي بالطبع، مثير للاهتمام.

يشــكل وصــول سيــارة النقــل وتحميلها محطــة التشويــق التالية. يبــدو جسد السيــارة متثاقلاً على نحو مؤكد. فهــي تترنح يمنة ويسرة ثــم تغطس، بيــد أن ملامحها، من جهة أخرى، توحــي برفعة– بل قل بجلالة– تدفعنا إلى إطلاق اسم كوين ماري عليها.

نستأجر، بالإضافة إلى كوين ماري، سيارة أجرة من طراز سيتروين يقودها رجــل أرمني لطيف اسمه أرستيد. كمــا نوظف طاهياً توحي ملامحــه بشيء من السوداوية (عيسى) ويحمــل شهادات توصية على درجة من القوة تدفع إلى الارتياب، وأخيراً يأتي اليوم المنتظر وننطلق، ماكــس وحمودة وأنا وماك وعبد الله وأرستيد وعيسى، في رحلة تمتد على ثلاثة شهور سنكون فيها رفاقاً في السراء والضراء.

الاكتشــاف الأول هــو أن عبــد الله أســوأ سائــق يمكــن تصوره، أمــا الاكتشاف الثــاني فهو أن عيســى طباخ أخرق تمامــاً في حين أن الاكتشــاف الثالث هو أن أرستيد سائق بارع لكنــه يقود سيارة أجرة رديئة بصورة لا تصدق.

نغادر بـيروت ونتخذ الطريق الساحلي. نمر من نهر الكلب ونتابع طريقنا والبحر علـى يسارنا. نتجاوز تجمعاً صغيراً من البيوت البيضاء ونمتـع ناظرينا بخلجان رملية صغيرة وكهـوف صغيرة بين الصخور. أتمنـى لو أننا نقف قليلاً كي أسبح، لكـن العمل الجدي قد بدأ. سوف نستدير قريباً، بـل أقرب مما ينبغي، مبتعدين عن البحر كي نمضي، بعد ذلك، شهوراً عديدة دون أن نرى البحر.

أرستيد يطلق بوقه باستمرار على الطريقة السورية. وخلفنا، تقتفي كويـن ماري خطانـا وهي تترنح وتغطـس وتتلـوى بجسدها الثقيل كسفينة تمخر عباب البحر.

نمر من بعلبك وتصبح تجمعات البيـوت الصغيرة أقل عدداً وتزداد تباعداً. وإلى يميننا المنحدرات الصخرية.

وأخيراً ننعطف ونتقدم في اليابسة في الطريق إلى حمص.

يقـول لنا حمودة أنـه يوجد في حمص فندق جيـد، بل هو فندق رائع.

يتبـين لنـا أن روعة الفنـدق تكمن أساسـاً في بناء الفنـدق نفسه. فالفنـدق رحب ويتمتع بردهـات حجرية كبيرة. لكـن تمديدات الماء فيـه، ويا للأسف، لا تعمل كما ينبغـي. أما غرفه الفسـيحة ففيها بعض وسائـل الراحة. نلقي نظرة على غرفنا ثم أخرج مع ماكس إلى المدينة. أمـا ماك، فنجـده جالساً إلى طرف فراشه وبساطـه المطوي إلى جانبه وهو يكتب بنشاط في دفتر يومياته.

(مـاذا يدون ماك في دفتر اليوميات هـذا؟) إنه لا يبدي أي اهتمام بإلقاء نظرة على حمص.

ربما هو محق، في نهاية المطاف. إذ ليس في المدينة الكثير مما يستحق رؤيته.

نتناول وجبة أوروبية كاذبة معدة بشكل سيء ثم نأوي إلى الفراش.

كنـا، في الأمس، نسافر في ربـوع الحضارة. أمـا اليوم، فنخلف الحضـارة وراءنا على نحـو مفاجئ. إذ ليس هناك، بعـد مضي ساعة أو اثنتـين، أيـة خضرة يمكـن رؤيتها. كل شيء بنـي ورملي. الدروب مربكـة. وبين الفينة والأخرى، تنبثق في وجوهنا سيارة نقل من حيث لا ندري.

الجو قائظ. تتحالف ضدي عوامل الحر والطريق غير الممهد والحالة السيئـة لنوابض عجلات سيـارة الأجرة والغبار الـذي نبتلعه ويجعل وجوهنا متيبسة وكالحة، فأصاب بصداع مؤلم.

هنـاك في هذا العالم الرحب المحروم من الحياة النباتية ما هو مخيف وساحر في الآن عينه. إنه ليس منبسطاً كما هي حال الصحراء الممتدة بـين دمشـق وبغداد. بل إنـك تجد نفسـك تتسلق صعـوداً وهبوطاً. ويشعـرك المـكان أنك لست سـوى حبة رمل وسط قـلاع من الرمل بنيتها على الشاطئ كالأطفال.

ثـم عندئـذ، وفي ختـام سبع ساعـات من الحـر والرتابـة والعالم الموحش- ها هي ذي تدمر!

في هذه النقطة يكمن سحر تدمر على ما أظن. في جمالها القشدي الأهيـف الذي ينتصب بسحر وسط الرمال المحرقـة. إنها مدينة فاتنة رائعـة لا تصدق بمشهديتها الساحرة تلك الجديرة بأن تكون جزءاً من حلم. بلاط ملكي ومعابد وأعمدة خربة...

لم أستطـع يومـاً في اتخاذ قـرار حاسم حول ما أظنـه في تدمر. إنها تتمتـع، على الدوام، بذلك الطابع الحلمي الذي تكتشفه فيها من النظرة الأولى. وقد جعلها الألم في رأسي وعيني تبدو، أكثر من أي وقت مضى، خيالاً محموماً! إنها ليست حقيقية- ولا يمكن أن تكون حقيقية.

ثم نجد أنفسنا، على حين غرة، وسط أناس آخرين- حشد من سياح فرنسيين مرحين يضحكون ويتكلمون ويحملون آلات تصوير. نتوقف أمام مبنى جميل- هو الفندق.

يحذرني ماكس على عجل:

«يجب أن لا تلقي بالاً للرائحة. لن يتطلب الأمر منك طويلاً قبل أن تعتادي عليها».

الأمـر كما يقـول بالضبط! الفنـدق فاتن من الداخل وقـد تم ترتيبه بذوق. لكن رائحة المياه الآسنة في الغرفة قوية للغاية.

يطمئنني ماكس: «الرائحة لا تضر بالصحة على الإطلاق».

وبـدوره، يقول العجوز اللطيف، الذي هو مالك الفندق كما أفهم، بكثير من التأكيد:

«*Mauvaise odeur, oui! Malsain non!*».[١٢]

قضـي الأمـر إذن! وأنـا لا آبه للأمر علـى كل حال. أتنـاول قرصاً مـن الأسبرين وكوباً مـن الشاي وأتمدد على السرير وأقـول إنني سألقي نظـرة على المكان في وقت لاحق. أما الآن فإن كل ما يعنيني هو الظلام والراحة.

١٢- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "الرائحة كريهة، نعم! غير صحية، لا!" (المترجم)

أشعر في داخلي بشيء من الخوف. هل سأكون رحالة رديئاً؟ أنا من أمتعتني الأسفار على الدوام؟

بيد أنني أستيقظ، بعد ساعة، بإحساس أنني استعدت قواي تماماً وبشوق إلى مشاهدة كل ما يمكن مشاهدته.

بل إن ماك نفسه يستسلم، وإن لمرة، لواقع انتزاعه بعيداً عن دفتر يومياته.

هكذا نخرج في جولة لمعاينة المكان ونمضي بعد ظهيرة ممتعة.

ننضم، مع وصولنا إلى أبعد نقطة من الفندق، إلى الفرنسيين. الحزن مخيم عليهم. فقد كسرت امرأة ترتدي حذاء ذا كعب مرتفع (كن كلهن يرتدين أحذية ذات كعوب مرتفعة) كعب حذائها وهي تواجه المهمة المستحيلة في قطع المسافة الطويلة التي تفصلها عن الفندق سيراً على الأقدام. كان الفرنسيون، على ما يبدو، قد وصلوا إلى هذه النقطة بسيارة أجرة. وسيارة الأجرة هذه متعطلة. نلقي نظرة عليها. يبدو أنه لا يوجد في هذه البلاد سوى نوع واحد من سيارات الأجرة. إذ يستحيل تمييز هذه العربة عن تلك التي برفقتنا بمقاعدها الخربة نفسها التي يخال من يراها أنها مثبتة بحبال. السائق السوري النحيل ذو القامة الفارعة منكب على محرك السيارة وقد بدا عليه الإحباط.

يهز رأسه. ثم يشرح لنا الفرنسيون كل شيء. لقد وصلوا إلى هنا في الأمس بالطائرة وسوف يغادرون غداً بالطريقة نفسها. أما سيارة الأجرة هذه، فقد استأجروها، في الفندق، لفترة بعد الظهر وقد تعطلت الآن. فماذا تفعل السيدة المسكينة؟

«*Impossible de marcher, n'est ce pas, avec un soulier seulement?*».[١٣]

١٣–بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "يستحيل عليها أن تسير بفردة حذاء واحدة. أليس كذلك؟" (المترجم)

نعزيهم بحرارة ويعرض ماكس عليهم، بشهامة، استخدام سيارة الأجرة التي في حوزتنا. سوف يعود إلى الفندق ويحضرها إلى هنا. وسيتطلب الأمر جولتين كي نعود كلنا.

يستقبل الفرنسيون العرض بالتهليل والشكر الجزيل وينطلق ماكس.

أصادق السيدات الفرنسيات في حين يختبئ ماك خلف جدار من التحفظ عصي على الاختراق ويقابل أية محاولة لافتتاح محادثة معه بـ «نعم» أو «لا» قاطعة، وسرعان ما يتركه الفرنسيون وشأنه. تبدي السيدات الفرنسيات اهتماماً برحلتنا ملئه السحر.

«*Ah, Madame, vous faites le camping*?».[١٤]

سحرتني هذه الجملة. *Le camping!* إنها تضع مغامرتنا في فئة الرياضة!

وتضيف سيدة أخرى أن كم هو ممتع ممارسة *le camping*.

فأجيب بنعم، إن الأمر سيكون ممتعاً للغاية.

يمضي الوقت ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونضحك. ثم يصل ماكس على قدميه والغضب باد على محياه.

سألته لم لم يحضر سيارة الأجرة؟

يقول ماكس بغيظ، لأنها هنا. ويشير بإصبعه بطريقة درامية إلى السيارة التي تأبى أن تعمل والتي ما يزال السائق السوري المهزول ينعم النظر فيها بتفاؤل.

١٤- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "آه. أنتم تمارسون التخييم إذن؟" (المترجم)

فتتصاعد موجة من آهات تعجب جماعية وأدرك، فجأة، لم بدت السيارة مألوفة لي! ثم يصرخ الفرنسيون: لكنها السيارة التي استأجرناها في الفندق". لكن ماكس يجيب إنها سيارتنا.

يدور بين ماكس وأرستيد حوار شاق لم ينجح فيه أحدهما في إقناع الآخر بوجهة نظره.

"ألم أستأجرك والسيارة لثلاثة شهور؟" يسأله ماكس. "كيف تسمح لنفسك أن تقل آخرين من وراء ظهري بهذه الطريقة الشائنة؟"

يجيبه أرستيد، كمن أصيب في نزاهته: "لكن، ألم تقل لي بنفسك إنك لن تستخدم السيارة طيلة فترة بعد الظهر؟ بالطبع. ثم عندئذ، أتيحت لي فرصة كسب بعض النقود الإضافية. فرتبت الأمر مع صديقي هذا الذي أقل المجموعة في جولة حول تدمر. كيف يمكن لهذا الأمر أن يؤذيك طالما أنك لا تريد أن تستخدم السيارة بنفسك؟".

يرد ماكس: "إنه يؤذيني. أولاً لأنه يخالف ما اتفقنا عليه، وثانياً لأن السيارة في حاجة إلى الصيانة وهي لن تكون جاهزة في الغد على الأرجح!".

"من هذه الناحية لا تقلق" يقول أرستيد. "سأسهر مع صديقي على السيارة كل الليل إن تطلب الأمر ذلك".

فيجيبه ماكس باختصار أنه يحسن بهما ذلك.

وكما هو منتظر، نجد السيارة، في صباح اليوم التالي، في انتظارنا أمام الباب وأرستيد مبتسماً خلف المقود ما يزال، حتى الآن، على غير قناعة بخطيئته.

نصل اليوم إلى مدينة دير الزور الواقعة على نهر الفرات. الجو

حــار للغاية. والرائحــة كريهة في هذه البلدة التــي لا تتمتع بالجاذبية. يتفضل علينا "جهــاز الخدمة الخاص" بوضع بعض الغرف في تصرفنا لأن المدينــة تفتقر إلى أي فندق أوروبي. يبدو المنظر عند المجرى البني العريضـ للنهر جميلاً. يسألني الضابط الفرنسي عن صحتي برقة آملاً أن لا تكــون الرحلــة الطويلة في هذا الجو الحار فوق ما أطيق. "كانت السيــدة جاكو، زوجــة الجــنرال، *Complètement knock out* لدى وصولها"[١٥].

تستــولي هذه الكلمة على خيالي. آمل أننــي، مع انتهاء مهمتنا، لن أكون، بدوري، *Complètement knock out* !

نشتري الخضار وكميــات كبيرة من البيض ثم ننطلق، مع الشاحنة كويــن ماري التــي تكاد نوابضها تنوء بحملهــا– وهذه المرة في مهمة الاستطلاع الفعلية.

البصيرة. يوجد هنا نقطة للشرطة. وهي موقع يحمل ماكس تجاهه آمالاً عريضة لأنه يقع عند نقطة التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وعلى الضفة المقابلة تقع مدينة قرقيسيا الرومانية.

بيــد أن البصيرة تخيب رجاءنــا. إذ لا توجد فيها أية علامات على استيطــان قديم فيها باستثناء الوجود الروماني– الذي يعامل بما يستحق من الازدراء. يقول حمــودة: "من زمن الرومان"، ويهز رأسه بنفور. وأوافقه بانصياع.

فالرومان، من وجهة نظرنا، قــوم عصريون بصورة لا رجاء فيها– إنهــم أطفال الأمس. أما نحن، فاهتماماتنا تبــدأ من الألفية الثانية قبل

١٥–عبارة فيها مزيج من الفرنسية والإنكليزية وتعني: "غائبة عن الوعي تماماً!" (المترجم)

الميلاد، مع الكنـوز المتنوعة التي خلفها الحثيون. ونحن معنيون، على وجه الخصوص، باكتشاف المزيد عن السلالـة العسكرية للمغامرين الأجانـب الذين حكموا مملكـة ميتاني والذين لا يعـرف عنهم سوى القليـل على الرغم من الازدهار الذي عرفوه في هذه المنطقة من العا لم والذيـن اتخذوا من مدينة واشوكاني، التـي لم يتم تحديد موقعها بعد، عاصمة لهـم. طغمة حاكمة من محاربين فرضـوا سلطتهم على البلاد وتزاوجـوا مع العائلة الحاكمة في مصر وكانوا، علـى ما يبدو، فرساناً بارعين، وهو أمـر يدل عليه وجود بحث يصف كيفية العناية بالخيول وتدريبها ينسب إلى شخص أجنبي ما.

مـن هذه النقطـة الزمنية ننطلـق في رحلتنا، إلى الماضـي بالطبع- وصـولاً إلى عصـور مـا قبل التاريـخ المبهمة. عصـور دون سجلات مكتوبـة لم تـترك لنـا سـوى أوان فخاريـة ومخططات بيـوت وتمائم وزخـارف وحبات خرز تقدم لنـا شهادات خرساء علـى الحياة التي عاشها الناس.

ننتقـل، وقد خلفت البصيرة في نفوسنا الخيبـة، إلى الميادين الواقعة إلى الجنوب على الرغم من أن ماكس لا يأمل منها الكثير. ثم سننتقل، بعد ذلك، شمالاً إلى الضفة اليسرى من نهر الخابور.

البصـيرة هي المكان الذي رأيـت فيه، للمـرة الأولى، نهر الخابور الـذي كان، بالنسبـة إلي، حتـى الآن مجرد اسم- مع كونـه اسماً كان يتردد على لسان ماكس باستمرار.

"الخابور- ذلك هو المكان. مئات من التلال!".

ثـم يكمل: "فـإن لم نجد ما ننشده على ضفـاف الخابور، فسوف نمضي إلى جغجغ!".

أسأل، وقد سمعت الاسم للمرة الأولى: "وما هذا الجغجغ؟".

يبدو الاسم خيالياً تماماً بالنسبة إلي!

يقول ماكس بلطف إنه يفترض أنني لم أسمع بنهر جغجغ من قبل. ويقر أن عدداً كبيراً من الناس لم يسمعوا به.

أقر بالتهمة وأضيف إليها أنني لم أسمع بنهر الخابور قبل أن يذكره أمامي، الأمر الذي يباغته تماماً.

فيسألني وقد أدهشه جهلي المطبق: "ألم تكوني تعلمين أن تل حلف يقع على نهر الخابور؟".

وينخفض صوته إجلالاً وهو يصف ذلك الموقع الشهير الذي يتميز بفخاريات تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

أهز رأسي وأقر بأنني لو لم أتزوجه لما سمعت، على الأرجح، بتل حلف!

أستطيع أن أقول إن شرح الأماكن التي ننقب فيها للآخرين أمر تكتنفه، على الدوام، صعوبات جمة.

تقتصر إجابتي الأولى، عادة، على كلمة وحيدة: "سورية".

فيقول الشخص العادي الذي يسألني، مقطباً جبينه، وقد أخذته الإجابة على حين غرة: "آه، نعم، بالطبع— سورية...". وتنبعث في رأسه الذكريات الإنجيلية. "دعيني أر، إنها فلسطين، أليس كذلك؟".

فأقول بنبرة تشجيع: "إنها محاذية لفلسطين. إنها تمتد، كما تعلم، على طول الساحل إلى الأعلى".

لكن الأمر لا يجدي نفعاً لأن فلسطين ترتبط، عادة، بالتاريخ

الكتابـي وبدروس يـوم الأحد أكثر منه بالواقـع الجغرافي، فتكون، بالتالي، تداعياتها أدبية ودينية خالصة.

ويـزداد الجبين تقطيباً. "لا أستطيع تحديد موقعها بدقة. أين تنقبون بالضبط – أعني بالقرب من أية مدينة؟"

"ليـس بالقـرب مـن أية مدينـة. بل بالقـرب من الحـدود التركية والعراقية".

ثـم ترتسم على وجه صديقـي علامات القنوط. "لكـن لا بد أن تكونوا قريبين من مدينة ما!".

فأقول: "حلب. وهي تبعد عنا مائتي ميل تقريباً".

فيتنهـد ويستسلم. ثـم يسأل، وقد أشرق وجهـه، عما نأكل. "تمر على ما أظن".

وعندمـا أقـول لـه إننا نـأكل الضـأن والدجـاج والبيضـ والرز والفاصولياء الفرنسية والباذنجان والخيار والبرتقال في موسمه والموز، يرمقنـي بنظـرة عتـاب ويقـول: "لا يمكننـي أن أصف ذلـك بحياة الشظف".

في الميادين، يبدأ *le camping*.

يعدون لي كرسيـاً أجلس فيه بخيلاء وسط فناء واسع، أو خان، في حين يكافح ماكس وماك وأرستيد وحمودة وعبد الله لنصب خيامنا.

لا ريـب أنني أحظى بالمهمة الأفضـل. فالمشهد حافل بالتسلية. إذ تهـب ريح صحراوية قويـة غير متعاونة، ناهيك عـن أن الحاضرين لا يتميزون بالبراعة في هذا النوع من الأعمال. فيستمطر عبد الله رحمة الله ويناشد الأرمني أرستيـد القديسين العون ويصيح حمودة مشجعاً

وهــو يضحك ويطلق ماكس شتائم غاضبة. وحده ماك يلتزم الصمت على الرغم من أنه يتمتم، بين الفينة والأخرى، ببضع كلمات.

وأخــيراً يصبح كل شيء جاهزاً. تبدو الخيــام مخمورة بعض الشيء ولا تشبه الخيام الحقيقية كثيراً، لكنها انتصبت. نتحد جميعنا في صب جام غضبنا علــى الطاهي الذي، بدلاً من أن يباشر بإعداد الطعام،كان يقــف مستمتعاً بما يراه. لكن لدينا، على كل حال، معلبات نقوم بفتح بعضهــا ويعــد الطاهي الشــاي. أمــا الآن، والشمس تبــدأ في المغيب والريح تسكن والجو يميل إلى البرودة على حين غرة، فنأوي إلى السرير. هــذه تجربتي الأولى في الصراع مع كيس نــوم. يستدعي اندساسي فيه تضافر جهــودي وجهود ماكس. بيد أن شعوراً بالراحة والغبطة يحل علي حالمـا أصبح في الداخل. أصطحب معــي على الدوام في جميع أسفــاري إلى الخــارج وسادة ناعمة بحــق– وهي تمثــل، بالنسبة إلي، الفارق بين الراحة والشقاء.

أقول لماكس بحبور: "أظن أنني أحب النوم في خيمة!".

ثم تراودني، على نحو مفاجئ، فكرة.

"هل تظن أنه يمكن لجرذان أو فئران أو أشياء أخرى أن تجري فوقي في الليل؟".

فيجيب بمرح وقد نال منه النعاس: "بالتأكيد".

يستــولي النوم علي، بينما أقلب الفكــرة في رأسي، ثم أستيقظ كي أجد أنهــا الخامسة صباحاً. الشمس تشرق ويحين وقت النهوض كي نبدأ يوماً جديداً.

تبرهــن الأكمــات الواقعة في الجــوار المباشر للميادـيــن أنها ليست مغرية.

فيتمتم ماكس باشمئزاز: "رومانية". إنها أحدث كلمات الازدراء لديه. أمـا أنا، فأخنق أية أفكار قد تراودني حـول كون الرومان كانوا شعباً مثيراً للاهتمام بحق، مرجّعة صدى نبرته: "رومانية" وأرمي من يدي كسـرة من الآنية الفخارية الحقيرة. "مـن زمان الرومان"، يقول حمودة.

نذهـب، في فترة بعد الظهر، في زيـارة إلى بعثة التنقيب الأمريكية العاملـة في دورا. الزيارة ممتعة والأمريكيـون يسحروننا. أكتشف أن اهتمامـي باللقى يتضاءل وأعاني من صعوبات متزايدة في الإصغاء إلى الحوار أو المشاركة فيه.

حيث سردوا الصعوبات الجمة التي واجهتهم في العثور على عمال تسلية.

فالعمـل مقابل أجـر في هذا المكان النائي من العـالم فكرة جديدة تمامـاً. هكـذا وجدت البعثـة نفسها في مواجهة رفض عقيم أو عدم فهـم، فلجأت، وقد انتابها اليأس، إلى السلطـات العسكرية الفرنسية التـي أبدت استجابة فورية وفعالة. فقد اعتقل الفرنسيون مئتي رجل، أو مهما يكن العـدد المطلوب، وأحضرتهـم إلى العمل. كان السجناء ودودين وفي قمة المرح وبدوا مستمتعين بالعمل. فطلب منهم العودة في اليـوم التالي، غير أنهم لم يعودوا. من جديـد، طلبت المساعدة من الفرنسيـين الذين اعتقلوا العمال من جديد. ومن جديد، عمل العمال برضا جلي. لكنهم غابوا من جديد وتم اللجوء إلى الاعتقال العسكري من جديد.

وأخيراً، اتضح كل شيء.

"ألا تحبون أن تعملوا لصالحنا؟"

"نعم في الواقع. و لم لا؟ ليس لدينا ما نفعله في البيت".

"لماذا، إذن، لا تأتون كل يوم؟"

"نحن نرغب في المجيء، لكننا ننتظر العسكر كي يحضرونا بالطبع. يمكنني أن أبلغك أننا شعرنا بالكثير من السخط عندما لم يأتوا لأخذنا! فهو واجبهم!".

"لكننا نريدكم أن تعملوا لصالحنا دون أن يحضركم العسكر!".

"يا لها من فكرة غريبة!".

وفي نهاية الأسبوع، تلقوا أجرهم، وكان هذا الأمر كافياً كي يضع حداً لكل ذلك الارتباك.

قالوا إنهم لم يفهموا، تماماً، عادات الأجانب!

"العسكر الفرنسيون هم من يسيطرون هنا. ومن حقهم، بصورة طبيعية، أن يجمعونا ويرموا بنا في السجن أو يرسلونا كي نحفر الأرض من أجلكم. لكن لماذا تعطوننا المال؟ ولأي شيء هو المال؟ الأمر بلا معنى!".

بيد أن عادات الغرب الغريبة أصبحت مقبولة، في نهاية المطاف، على الرغم من هز الرؤوس والغمغمة. فقد أخذوا يتقاضون أجورهم مرة واحدة في الأسبوع. لكن شعوراً مبهماً بالضغينة تجاه العسكر بقي يعتمل في صدورهم. لأن جمعهم كل يوم كان من صميم واجبات العسكر.

قصة جميلة بمعزل عن صحتها! فقط لو أنني أبديت قدراً أكبر الانتباه. ماذا يحصل لي؟ أصاب بالدوار مع عودتي إلى المخيم، فأفحص حرارتي كي أجدها مائة ودرجتين (فهرنهايت)! أعاني،

كذلـك، من ألم في وسطي وأشعر أنني مريضة للغاية. فكرة الاندساس في كيس النوم تغمرني بالغبطة فأنفض عني التفكير بالعشاء.

يبدو ماكس قلقاً هذا الصبـاح ويسألني عن صحتي. فأتأوه قائلة: "كالموت!" فيزداد قلقه ويسألني إن كنت أظن نفسي مريضة حقاً.

فأعيـد التأكيـد على هـذه النقطة. أعـاني مما يطلق عليـه في مصر الإسهـال المصري وفي بغداد إسهال بغداد. وهـو ليس بالمرض الممتع عندما تكون في قلب الصحراء. يعجز ماكس عن تركي وحيدة. لكن الحـرارة داخل الخيمة في النهار تبلـغ مائة وثلاثين درجة، فهرنهايت، تقريبـاً! والاستطلاع يجب أن يستمر. هكـذا، أتكوم على نفسي في السيـارة وأترنح في حلم محمـوم. أغادر السيارة لـدى بلوغنا إحدى الأكمـات وأتمـدد في الظل الـذي توفره كوين مـاري في حين يمضي ماكس برفقة ماك إلى الأكمة ويدرسانها.

الأيام الأربعـة التالية جحيم لا يطاق بصراحة! لكن إحدى قصص حمـودة تبدو على النقيض من ذلك تمامـاً – إنها قصة الزوجة الجميلة لأحـد السلاطين التي يأخذها السلطان بعيداً فتشكو إلى الله، في الليل والنهـار، وحدتها في الصحراء وافتقارها إلى الرفاق. "وأخيراً، أرسل الله إليها بعض الرفاق، وقد أضجره عويلها. لقد أرسل إليها ذباباً!".

أشعـر بضغينـة كبيرة تجـاه السيدة الجميلـة لأنها جلبـت لنفسها الغضـب الإلهي! فوجود ذبـاب يهبط طوال اليوم مـن الغيوم يجعل الحياة مستحيلة.

أشعر بالكثير من المرارة والأسف لأنني رافقت هذه الحملة، لكنني أنجح بطريقة ما في عدم قول ذلك.

وبعـد أربعة أيام لم أتناول خلالها شيئـاً باستثناء شاي خفيف دون

حليب، أسترد عافيتي على نحو مفاجئ وتصبح الحياة جميلة من جديد. ألتهم وجبة هائلة من الرز والخضار المطهوة الغارقة بالدسم. تبدو لي هذه الوجبة من أشهى ما تذوقت في حياتي!

نتسلق، بعد ذلك، الأكمة التي نصبنا مخيمنا عندها - تل سوار الواقع على الضفة اليسرى لنهر الخابور. لا شيء في هذا المكان- لا قرية - لا مساكن من أي نوع - ولا حتى أية خيام بدوية.

قمر في الأعلى ونهر الخابور في الأسفل يتلوى على شكل حرف S كبير. هواء الليل عليل بعد نهار قائظ.

أقول: "يا لها من أكمة جميلة. ألا نستطيع أن ننقب هنا؟"

يهز ماكس رأسه بحزن وينطق الكلمة المشؤومة.

"رومانية".

"يا للأسف. إنها بقعة جميلة للغاية".

فيقول ماكس: "ألم أقل لك إن الخابور مكان مميز! التلال منتشرة على طول ضفتيه".

كنت قد فقدت اهتمامي بالتلال لبضعة أيام - لكنني أشعر بالسرور أنه لم يفتني الكثير.

أسأله بحزن، وقد أسرني تل سوار: "هل أنت واثق من أنه لا يوجد هنا شيء مما تفتش عنه؟"

"بالطبع، لكنها مدفونة في الأسفل. وعلينا الحفر عبر الآثار الرومانية. في حين يمكننا القيام بما هو أفضل".

أتنهد وأتمتم: "المكان هادئ للغاية، مسالم للغاية - ليس هنالك من مخلوق على مد البصر".

وفي تلك اللحظة، يبزغ من لا مكان رجل طاعن في السن.

لكن من أين جاء؟ يسير على جانب الأكمة ببطء، ومن غير استعجال. لحيته بيضاء طويلة ومظهره يتميز بمهابة تفوق الوصف.

يحيي ماكس بتهذيب. "كيف حالك؟". "بخير. وأنت؟". "بخير". "الحمد لله". "الحمد لله".

يجلس الرجل بجوارنا ويسود صمت طويل - ذلك الصمت اللبق الذي يميز السلوك المهذب ويتسم بالكثير من السكينة مقارنة بالصخب الغربي.

وأخيراً، يسأل العجوز ماكس عن اسمه. فيجيبه ماكس ويستغرق العجوز في التفكير.

"ميلوان". يلفظ الاسم عدة مرات. "ميلوان... كم هو لطيف! كم هو مشرق! كم هو جميل!".

يجالسنا لبعض الوقت، ثم يغادرنا بهدوء كما جاء إلينا و لم نره بعد ذلك قط.

أبدأ الآن في الاستمتاع حقاً وقد استعدت عافيتي تماماً. يبدأ نهارنا صباح كل يوم عند حلول الفجر، فنقوم بدراسة كل أكمة عند وصولنا إليها وندور حولها مرات ومرات ونلتقط أية كسرة فخارية نراها. ثم نقارن النتائج ويحتفظ ماكس بالعينات التي يراها مفيدة من خلال وضعها في أكياس من الكتان مزودة بلصاقة اسمية.

تنشب بيننا منافسة حامية الوطيس تدور حول من يعثر على لقية اليوم.

وبالتدريج، ينجلي غموض ما استعصى علي من فهم لأسباب تلك

العادة السائدة في أوساط علماء الآثار في السير وعيونهم شاخصة إلى الأرض. إذ سرعان ما أشعر أنني، أنا نفسي، أسهو عن النظر حولي أو التحديق في الأفق أمامي وأنني أسير وأنا أنظر عند قدمي وكأنما أبحث عن شيء ما.

تفاجئني، كما في مرات كثيرة سابقة، الفروق الجذرية بين الأعراق. إذ لا يمكن لأمرين أن يكونا أكثر تباعداً من موقفي سائقينا من المال. فلا يكاد يوم يمضي دون أن يطالب عبد الله بدفعة على الحساب من أجره. بل إنه لم يكن ليمانع في الحصول على أجره كاملاً بشكل مسبق لو أنه وجد إلى ذلك سبيلاً، وأتصور أنه كان ليبدد المال قبل أن يمر أسبوع. وكان عبد الله، بما يعرف عن العرب من تبذير، لينثره في المقهى كي "يصنع لنفسه سمعة"!

في حين يبدي أرستيد الأرمني قدراً كبيراً من التحفظ في قبض أي فلس من أجره. "احتفظ بأجري لي، يا خواجة، إلى أن تنتهي الرحلة. فإن احتجت إلى بعض المال، فسأطلبه منك". الواقع أنه لم يطلب، حتى الآن، سوى أربعة بنسات من أجره كي يشتري بها زوجاً من الجوارب!

تزين ذقنه الآن لحية حديثة العهد يبدو معها أشبه بشخصية إنجيلية. يبرر وجود هذه اللحية بالقول إن الامتناع عن حلاقة الذقن أرخص. إذ يستطيع المرء، بهذه الطريقة، أن يوفر المال الذي كان لينفقه على شراء موسى حلاقة. ثم ما نفع حلاقة الذقن في الصحراء؟

وسوف يبلغ عبد الله نهاية الرحلة مفلساً كما كان في البداية، وسوف يعود، بلا ريب، إلى الوقوف على الواجهة البحرية في بيروت كي ينتظر، بتلك القدرية العربية، أن توفر له رحمة الله عملاً آخر. أما

أرستيد، فسيتقاضى أجره كاملاً دون نقصان.

"وماذا ستفعل بهذا المال؟"، يسأل ماكس.

يجيب أرستيد: "سأشتري سيارة أجرة أفضل".

"وعندما تحصل على سيارة أجرة أفضل؟"

"عندها سأكسب المزيد من المال وسيكون لدي سيارتا أجرة".

أستطيع أن أتنبأ بسهولة أنني، إن عدت إلى سورية، بعد عشرين عاماً، سأجد أرستيد وقد أصبح مالكاً ثرياً لمرآب كبير ويعيش، على الأرجح، في منزل كبير في بيروت. وأجرؤ، كذلك، على القول إنه سيمتنع، حتى في ذلك الحين، عن حلاقة ذقنه في الصحراء كي يوفر ثمن موسى الحلاقة.

بيد أن أرستيد لم ينشأ، في الواقع، في كنف قومه. إذ نمر، في أحد الأيام، بالقرب من جماعة من البدو، فيحيونه، فيرد لهم التحية ملوحاً بيده وهو يصرخ بتأثر.

ثم يشرح لنا الأمر: "هذه عشيرة عنزة التي أنتمي إليها".

فيسأله ماكس: "كيف ذلك؟"

فيبدأ أرستيد، بصوته الرقيق السعيد وابتسامته المشرقة الجميلة، في رواية قصته. إنها قصة صبي صغير في السابعة من العمر رماه الأتراك مع أسرته والعديد من الأسر الأرمنية الأخرى أحياء في حفرة عميقة وسكبوا القار فوقهم وأضرموا فيهم النار. احترق والده وأمه وشقيقتاه أحياء- في حين بقي أرستيد، الذي كان تحتهم، على قيد الحياة عندما غادر الأتراك عثر عليه، في وقت لاحق، بعض عرب عنزة. فأخذوا الصبي الصغير معهم وضموه إلى عشيرة عنزة وربوه كعربي يأخذونه

معهـم في حلهم وترحالهم. لكن أرستيد يغادر إلى الموصل، مع بلوغه سـن الثامنة عشـرة، وهناك طالب بالحصول علـى الأوراق التي تثبت جنسيته. فهو أرمني، لا عربي! بيد أن أخوة الدم ما تزال قوية وما يزال أفراد عشيرة عنزة يعتبرونه واحداً منهم.

يشعـر حمـودة وماكـس بسعـادة غامـرة عندمـا يكونـان معاً، فيضحـكان ويغنيان ويتبادلان الطرف وأسأله أن يترجم لي عندما يبلغ المـرح ذروته. تمر لحظات أحسدهما فيها علـى الفرح الذي يعيشانه. أما ماك، فما يزال يفصله عني حاجز يتعذر عبوره. فترانا جالسين معاً في المقعـد الخلفي للسيـارة وقد ساد بيننا صمـت مطبق. ويقلب ماك أيـة ملاحظة أطرحها بجدية ثـم يرفضها. لم أشعر يوماً بهذا القدر من العجـز الاجتماعي من قبل! أما ماك، فيبدو سعيداً تماماً. لديه نوع من اكتفاء ذاتي ممتع لا يمكن لي إلا أن أجله.

لكننـي، في اللحظة التي أندس فيها، ليلاً، في كيس النوم في عزلة خيمتنا، أبـوح لماكس بمجريات اليوم وأؤكد لـه بإصرار أن ماك ليس مخلوقاً بشرياً تماماً!

عـادة مـا تكون التعليقـات المبتكرة التـي يقدمها مـاك من النوع المحبـط، في حين تبدو انتقاداته المعاكسة وكأنها تمنحه إشباعاً موحشاً لا لبس فيه.

تشعـرني شكوكي المتزايـدة في قدرتي على المشـي بالحيرة اليوم. إذ تبـدو قدماي وكأنهمـا لا تعملان بالكفاءة نفسهـا على نحو مثير للفضول. وهنالك في مشيتي جنوح مؤكد إلى اليسار يثير فيّ الارتباك. فأتساءل بخوف إن كان الأمر يتعلق بالأعراض الأولى لوباء مداري ما.

أسأل ماكس إن كان قد لاحظ أنني لا أستطيع السير بطريقة صحيحة.

فيجيب: "لكنك لا تشربين"، ويضيف معاتباً: "يعلم الله كم حاولت معك".

يذكرني تعليقه هذا بموضوع آخر مثير للجدل. يقضي كل إنسان عمره في النضال ضد علة مؤسفة فيه. وعلتي هي عجزي عن الإعجاب بالمشروبات الروحية والتبغ.

لو أنني، استطعت، على الأقل، أن أحتقر هذا النوع من المنتجات، لكنت احتفظت باحترامي للذات. لكنني، على العكس من ذلك، أنظر بانبهار إلى النساء الواثقات وهن ينفض رماد سجائرهن هنا وهناك وهنالك وأتسلل، في حفلات الكوكتيل، خلسة وعلى نحو مثير للشفقة، إلى ركن منزو كي أخفي كأسي التي لم أتذوق منها ولو قطرة.

ولم يُجدني التدريب نفعاً. فقد أمضيت ستة أشهر وأنا أدخن بورع سيجارة بعد الغداء وأخرى بعد العشاء وأحبس دخانها في صدري وأمضغ نتفاً من التبغ وأرمش بجفني والدخان ينسل عبرهما إلى عيني. ثم قلت لنفسي إنني يجب أن أتعلم حب التدخين. لكنني لم أتعلم حبه وكان أدائي، على الدوام، عرضة لانتقادات لاذعة مفادها افتقاره إلى الحس الفني وأن متابعته أمر مؤلم. فأقررت بالهزيمة.

ثم تزوجت ماكس، وعشنا معاً، بانسجام رائع،ومع ملذات المائدة كنا نأكل بتعقل، وإنما بما يكفي. لكن اكتشافه انعدام ذائقتي للخمرة الجيدة أحزنه. فأصر على تثقيفي وحاول ما وسعه الأمر أن يعرفني إلى أصناف الكلاريت وأنواع البورغوندي والسوتيرن والغراف،

وبقــدر أكبر من الإحباط، إلى التوكاي والفــودكا والأفسنتين! قبل أن يقر بالهزيمة. أما أنا، فلم يزد ما تعلمته عن كون بعض المشروبات تتميز بطعم أكثر رداءة من طعم سواها! هكذا تنهد ماكس بحزن وهو يتأمل في حيــاة حكم عليه فيهــا إلى الأبد أن يخوض معركة طلب الماء لي في المطاعــم! وكان من شأن هذا الأمر أن يجعله يشيخ بضع سنوات على حد قوله.

من هنا تعليقه على محاولتي استدرار عطفه على مشيتي المخمورة.

أحاول تفسير الأمر أكثر: "يبدو أنني أجنح إلى اليسار باستمرار".

فيقول ماكس إنهــا قد تكون إحدى الأمراض المدارية النادرة التي تحمــل اسم شخص ما كمرض ستيفنسون أو مرض هارتلي. ثم يمضي إلى القول بمرح إن الأمر سينتهــي على الأرجح بخسارة أصابع قدمي الواحد تلو الآخر.

أتأمــل المشهد الجميل أمامي ثم يحدث أن تقع عيناي على حذائي وينجلــي الغموض في الحال. الجانب الخارجي من نعل الفردة اليسرى والجانــب الداخلي مــن نعل الفردة اليمنى متــآكلان. وفيما أنا أحدق فيهمــا، يهبط علي الحل. لقد مشيت، منــذ مغادرتنا دير الزور وحتى الآن، علــى سفوح حوالي خمســين أكمة ذات ارتفاعــات متفاوتة- وكانت الأكمة تقع، باستمرار، إلى الجانب الأيسر. يكفيني الآن إذن، أن أمشي في الاتجاه العكسي بحيث تكون التلال إلى جانبي الأيمن كي تتساوى فردتا الحذاء مع مرور الوقت.

نصل اليوم إلى تل عجاجة، عربان سابقاً، وهو تل كبير وهام.

نشعر الآن، وقد اقتربنا مــن طريق السفر القادم من دير الزور، أننا

نسـير على طريق رئيسي بالفعل. بل إننا نمر، في الواقع، بمحاذاة ثلاث سيارات متجهة إلى دير الزور بسرعة كبيرة!

بضعـة تجمعـات صغيرة مـن البيوت الطينيـة تزين التـل، ويمضي أشخاص متفرقـون النهـار معنا على الأكمـة الكبيرة. إنهـا، عملياً، الحضـارة. وسـوف نمضـي في الغد إلى مدينـة الحسكـة الواقعة على تقاطـع نهري الخابور وجغجغ. هناك سوف نصبح، بالفعل، في قلب الحضارة. فالحسكة موقع عسكري فرنسي ومدينة هامة في هذا الجزء مـن العالم. وهناك سوف تقع عينـاي، للمرة الأولى، على نهر جغجغ الأسطوري الموعود! أشعر بالترقب.

يترافق وصولنـا إلى الحسكة بالكثير من التشويق! إنها مكان يفتقر إلى الجاذبيـة يضم شـوارع وبضعة متاجر ومكتب بريـد. نقوم، فور وصولنـا، بزيارتين رسميتـين- الأولى إلى الجيشـ والثانية إلى مكتب البريد.

الملازم الفرنسي لطيف للغاية ومتعاون. يعرض علينا أن يستضيفنا، لكننـا نؤكد له أن خيامنا بدت مريحة تمامـاً عندما نصبناها على ضفة النهر. بيد أننا نلبي دعوته إلى العشاء في اليوم التالي. أما مكتب البريد، الـذي نزوره من أجل الرسائل، فقصته أطول. العمل في مكتب البريد متوقـف تمامـاً لأن مديره خارج مقر عمله. لكـن صبياً صغيراً يخرج للبحـث عنه، فيعود علـى الفور (بعد نصف ساعـة!) ناضحاً بالمدنية ويرحب بنا في الحسكة ويطلـب القهوة. وبعد تبادل مطول لعبارات المجاملة، نعود إلى ما يعنينا- أي الرسائل.

يجيبنـا ببشاشة: "ولكن لم العجلة. عـودوا في الغد وسيكون من دواعي سروري أن أستقبلكم".

يقول لــه ماكس إننا يجــب أن نعمل في الغد. وعلينــا أن نأخذ رسائلنا هذه الليلة.

آه، لكن هــا هي ذي القهوة! فنجلس ونرتشفها. وأخيراً، وبعد بضع عظات مهذبة، يفتح مدير المكتب غرفته ويبدأ في البحث عن الرسائــل، ويشجعنا، بسخاء أصيل، على أخذ بضعة رسائل إضافية موجهــة إلى أوروبيين آخرين. "يحسن بكم أخذ هذه. إنها هنا منذ ستــة أشهــر و لم يأت أحد لأخذهــا. نعم، نعم، بالتأكيــد، لا بد أن تكون لكم".

لكننا نرفضــ بتهذيب، وإن بحزم، أن نتسلــم مراسلات السيد جونســون أو السيــد مافروغوداتــو أو السيــد بــاي. فيعرب مدير مكتب البريد عن أسفه.

"قليلــة. أليســ كذلك؟ لكن انتظــروا قليــلاً. ألا تأخذون هذه المجموعة الكبيرة هنا؟"

لكننا نصر علــى الالتزام بالرسائل والأوراق التي تحمل أسماءنا. نكتشــف حوالــة مالية كنا في انتظارهــا وينتقل ماكســ إلى مسألة تسييلها وهو أمر يبدو، بدوره، شائكاً بصورة لا تصدق. إذ نستنتج أن مديــر مكتب البريد لم يــر حوالة مالية من قبل وأن شكوكاً كبيرة تســاوره بشأنها. فيستدعي اثنين مــن مساعديه ويخضعون القضية لنقاشــ معمــق وإن تخلله الكثير من المــرح. المسألــة بالنسبة إليهم جديدة تماماً ومسلية ويمكن لأي شخص أن يكون لديه رأيه الخاص بشأنها.

وأخــيراً يســوى الأمر ويتم توقيع عدد مــن الاستمارات قبل أن

نكتشف أنه لا يوجد في مكتب البريد أية أموال نقدية في الواقع! فيقول مدير المكتب إنه يستطيع معالجة هذه المسألة في الغد حيث سيرسل أحداً إلى البازار من أجل جمع المال المطلوب.

نغادر مكتب البريد وقد نال منا التعب قليلاً ونعود إلى الموقع الذي اخترناه على ضفة النهر والذي لا يبعد عن رمال الحسكة وغبارها إلا قليلاً. وهنا نجد مشهداً محزناً في استقبالنا. عيسى الطاهي يجلس بجوار خيمة المطبخ محتضناً رأسه بيديه وهو يندب بمرارة.

ماذا حدث؟

يجيب بأنه أصيب بالعار، يا للحسرة. لقد تحلق حوله بعض الصبية وأخذوا يسخرون منه، فخسر احترامه! ثم، في لحظة غفلة قصيرة، افترست الكلاب الطعام الذي كان قد أعده فلم يبق منه شيء باستثناء بعض الرز.

نتناول الرز المجرد بحزن، في حين يردد حمودة وأرستيد وعبد الله على مسامع عيسى المسكين أن مهمته الرئيسية كطاه هي أن لا يدع شيئاً يشتت انتباهه عن الطعام الذي يطهوه حتى لحظة تقديمه بأمان إلى الأشخاص الذين أعد من أجلهم.

يقول عيسى إنه يشعر أنه ليس أهلاً لمنصب الطاهي. فهو لم يكن طاهياً مِن قبل (يقول ماكس إن "هذا يفسر الكثير!") وإنه كان يفضل لو أنه يعمل في مرآب. فهل سيزوده ماكس برسالة توصية كسائق من طراز رفيع؟

يقول ماكس بالطبع لا، فهو لم يره يقود سيارة من قبل.

يجيــب عيسى لكننــي أدرت محرك كوين مــاري في صباح يوم بارد. ألم تر ذلك؟

يقر ماكس إنه رأى ذلك.

فيقول عيسى تستطيع، إذن، أن توصي بي!

الفصل الثالث

الخابور وجغجغ

هــذه الأيام الخريفية هي من أجمل ما عرفــت في حياتي. نستيقظ صباحاً بعيد شروق الشمس ونحتسي الشاي الساخن ونتناول البيض وننطلــق. الجو بارد في هذا الوقت من اليــوم فأرتدي سترتين ومعطفاً صوفياً كبــيراً. الضوء جميل، ضوء وردي رقيق شاحب للغاية يخفف من حدة الألوان البنية والرماديــة. يستطيع المرء، من أعلى الأكمة، أن يطــوف ببصره على عالم مقفر يمتــد في كل الاتجاهات. التلال منتشرة في كل مكان. يستطيع المرء أن يحصي ستين أكمة، أو بالأحرى، ستين مستوطنة قديمة. فقد كان المكان هنا، الذي لم يعد يوجد فيه سوى أبناء العشائــر الذيــن يتنقلون مع خيامهم البنية، ذات مــرة، جزءاً من العالم يعج بالناس. من هنا بدأت المدنية، وهذه القطعة الخزفية، التي أمسكها بيــدي الآن، التي تشكل جزءاً مــن قدر فخارية يدويــة الصنع مزدانة بنقــاط وصلبان مطلية بالأسود، هــي السلف القديم لكوب وولورث التي شربت الشاي منها هذا الصباح.

أتفحصــص مجموعــة القطــع الصغــيرة التــي تمــلأ جيــوب معطفي (اضطــررت إلى إصــلاح بطانته مرتين حتــى الآن!) وأرمي تلك التي يوجد لــدي ما يماثلها وأمعــن فيها كي أختار واحــدة يمكنني تقديمها لكبير المحكمين في المنافسة التي أخوضها ضد ماك وحمودة.

فماذا لدي الآن إذن؟

آنية ثخينة رمادية اللون، وجزء من حافة قدر فخاري (قيمة كقطعة للعرض)، وبعض الأشياء خشنة الملمس ذات لون أحمر، وكسرتان من قدور فخارية مطلية يدوية الصنع إحداهما تحمل النقش المرقط (الأقدم في تل حلف!)، وسكين من حجر الصوان، وجزء من قاعدة آنية فخارية رمادية رقيقة والعديد من قطع يصعب وصفها، وقطعة صغيرة من الشبة.

يبدأ ماكس عملية الاختيار ويرمي بقسوة معظم القطع وينخر باستحسان لمرأى أخرى. لدى حمودة عجلة صلصالية من عربة، أما ماك، ففي حوزته كسرة من آنية محززة وجزء من تمثال صغير.

يجمع ماكس القطع التي اختارها معاً ويضعها في كيس صغير من الكتان ويربطه بإحكام ويسميه كالعادة باسم التل الذي تم العثور عليها فيه. وهذا التل، تحديداً، غير موجود على الخريطة. وقد أطلق عليه اسم تل ماك تكريماً لمكارتني الذي اكتشفه للمرة الأولى.

تشي ملامح ماك، إن كان لها أن تعبر عن أي شيء، ببعض الرضا.

نعود أدراجنا من أعلى التل ونستقل السيارة وأنزع عني إحدى السترتين. فالشمس تزداد حدة.

نزور تلين صغيرين آخرين ونتناول غداءنا عند التل الثالث المشرف على الخابور. بيض مسلوق، وعلبة من لحم العجل وبرتقال وخبز معدوم المذاق. ويصنع أرستيد الشاي على الموقد المحمول. الجو حار للغاية وقد تلاشت الألوان والظلال تقريباً ولم يعد هناك سوى اللون البرتقالي الفاتح.

يقـول ماكس إنه من حسـن طالعنا أننا نجري أعمـال الاستطلاع الآن وليس في فصل الربيع. أسأل لماذا؟ فيقول لأن العثور على الكسر الفخاريـة يصبح بالغ الصعوبـة عندما تنتشر النباتـات في كل مكان. ويردف قائلاً إن اللـون الأخضر سيغطي، بحلول فصل الربيع، كل ما يحيط بنا. إنه، يقول ماكس، السهب الخصيب. أعرب له عن إعجابي بهذا الأسلوب المفخـم في وصف المكان، فيقول ماكس حسناً، لكنه السهب الخصيب بالفعل!

نصطحـب كوين ماري اليوم إلى الضفـة اليمنى من الخابور إلى تل حلـف ونزور، في طريقنـا إليه، تل رمان (اسم شريـر، لكن التل ليس رومانياً) وتل جمعة.

تعتـبر كافة التـلال في هـذه المنطقة مواقـع محتملـة للتنقيب على العكس من تلك الواقعـة إلى الجنوب. فالكسر الفخارية التي تعود إلى الألفية الثانيـة والألفية الثالثة قبل الميلاد شائعة هنا في حين تندر البقايا الرومانيـة. أمـا الصعوبة، فتكمـن في اختيار تل من التـلال الكثيرة. إذ تـرى ماكس يردد، المـرة تلو الأخرى، بكثير مـن البهجة وبانعدام للأصالة، أننا بلغنا المكان المنشود، بلا ريب!

هنالـك في زيارتنا إلى تل حلف شيء من وقار الحج إلى مقام ديني! وتل حلـف اسم تـردد وقعـه في أذني باستمرار في السنـوات القليلة الماضيـة إلى درجة أكاد لا أصدق معها أننـي على وشك زيارة المكان بالفعل. إنه موقع جميل للغاية يلتف نهر الخابور حول أعتابه.

أتذكـر أننا زرنا، ذات مرة، البارون فـون أوبنهايم في برلين حيث رافقنـا إلى المتحف الذي يضم مكتشفاتـه. وقد انخرط مع ماكس في حـوار شيق دام خمس ساعات كاملة (علـى ما أظن). و لم يكن هناك

من مكان نجلس فيه. وقد تضاءل اهتمامي بالمكان، منذ البداية، قبل أن يخبو تماماً. تفحصت، بعينين ينقصهما البريق، التماثيل المتنوعة بالغة القبح التي جاءت من تل حلف والتي عاصرت، برأي البارون، حقبة ذروة تطور صناعة الفخار. وكان ماكس يحاول الاختلاف معه حول هذه النقطة بتهذيب دون أن يصطدم به بشكل مباشر. بدت كافة التماثيل لعيني الذاهلتين متطابقة تماماً بشكل يدعو إلى الاستغراب، قبل أن أكتشف أنها متطابقة بالفعل إذ كانت جميعها نسخ جصية لتمثال واحد.

فجأة، قطع البارون فون أوبنهايم خطبته الحماسية كي يقول بحب: "آه، وهذه هي فينوسي الجميلة" مربتاً على التمثال بحنو. ثم غاص، من جديد، في النقاش وتمنيت بحزن لو أنني أستطيع أن أولي الإدبار!

تدور بيننا وبين السكان المحليين حوارات عديدة حول مختلف التلال التي تضاهي تل حلف. تسود في هذه الأرجاء خرافات كثيرة بشأن البارون- وهي تتناول، على وجه الخصوص، المبالغ الخيالية التي دفعها هناك على شكل ذهب. وكان من شأن مرور الزمن أن تضاعفت كميات الذهب التي أنفقها البارون إلى درجة تعجز معها الحكومة الألمانية نفسها عن سكب هذا السيل من المعدن الثمين بالطريقة التي تصفها الحكايات! تنتشر في كل أرجاء شمال الحسكة قرى صغيرة وعلامات فلاحة. وقد أصبحت هذه البلاد، منذ رحيل الحكم التركي ووصول الفرنسيين، واقعة تحت الاحتلال من جديد للمرة الأولى منذ عصر الرومان.

نعود إلى الخيام في وقت متأخر. الطقس يتغير وتهب ريح مزعجة تسفع وجوهنا بالغبار والرمل وتخز عيوننا. نمضي عشاء ممتعاً مع

الملازم الفرنسي على الرغم من الصعوبات الجمة التي نواجهها في التأنق، أو فلنقل بالأحرى، في تنظيف أنفسنا، لأن أقصى ما نأمل فيه هو الحصول على سترة نظيفة من أجلي وقمصان نظيفة من أجل الرجال! نتناول عشاء شهياً للغاية ونمضي أمسية ممتعة. ثم نعود إلى خيامنا وسط أمطار جارفة. ليلة صاخبة تحفل بنباح الكلاب وأصوات صفق الخيام بفعل الريح العاصفة.

نغادر اليوم نهر الخابور موقتاً في طريقنا إلى نهر جغجغ. تلوح، على مرمى حجر، أكمة كبيرة تلهب خيالي قبل أن أكتشف أنها ليست، في الواقع، سوى بركان خامد اسمه كوكب.

أما هدفنا، فهو تل الحمدي، الذي سمعنا عنه الكثير من الروايات، على الرغم من صعوبة بلوغه لانعدام أي طريق مباشر يقود إليه. وهذا يعني أننا يجب أن نشق طريقنا وسط أرض وعرة تتخللها أعداد لا تحصى من المسيلات والأودية. مزاج حمودة ممتاز هذا الصباح. أما ماك فغارق في صمت كئيب وهو يعتقد أننا لن ننجح في بلوغ الأكمة.

يتطلب الأمر منا سبع ساعات من القيادة– سبع ساعات شاقة تعلق السيارة خلالها في الأرض أكثر من مرة الأمر الذي يضطرنا إلى النزول من أجل إخراجها.

يتفوق حمودة على نفسه في هذا النوع من المناسبات. فهو يعتبر السيارة، على الدوام، صنفاً رديئاً من الخيول وإن يكن أكثر سرعة. فيعلو صوته بحماسة، في لحظات عدم اليقين عند وصولنا إلى واد ما، ويصدر أوامر مسعورة لأرستيد.

"بسرعة، بسرعة. لا تمنح هذه الآلة أية فرصة للرفض! احمل عليها! احمل عليها!".

ثــم يبلغ اشمئــزازه أقصــاه عندما يأمــر ماكس بإيقــاف السيارة ويخــرج منها كي يدرس العائــق الذي يواجهنا. فيهــز رأسه باستياء واضــح كمن يقول مــا هكذا تعامل سيارة متوثبــة! لا تعطها الوقت للتفكير وسيكون كل شيء على ما يرام.

وأخيراً، نبلغ المكان المنشود بعد رحلة حافلة بالمناورات والوقفات استعنا فيها بمرشدين محليين. يبدو تل الحمدي رائع الجمال في شمس بعد الظهيرة. تتسلق السيــارة سفحه اللطيف إلى قمته بفخر وبحس مرهف بالإنجاز.

يبدو ماك متأثراً بما يكفي كي يفوه بتعليق.

"آه"، يقول بشيء من الارتياح الكئيب، "مياه راكدة كما أرى".

وستصبح تلك الكلمة، منذ تلك اللحظة، لقباً له!

تصبــح الحيــاة الآن أكثر صخبــاً ونشاطاً. وتــزداد أعمال تحري التلال إثــارة بشكل يومي. يتطلــب الاختيار النهائــي للتل اجتماع ثلاثة عوامــل أساسية. أولاً، يجب أن يكــون التل على ما يكفي من القرب من قرية أو من تجمع قرى من أجل الحصول على اليد العاملة. وثانياً، يجــب أن يكون هناك مصدر للمياه- أي أنه يجب أن يكون التل قريباً من نهر جغجغ أو من نهر الخابور أو أنه يجب أن يوجد فيه بئر ماء مياهه قابلة للشرب. وثالثاً، يجب أن يقدم التل مؤشرات على أنه يضم الأشياء المنشودة. والتنقيب شكل من أشكال المقامرة- فمن يستطيــع أن يؤكــد بثقة أي تــل بالضبط، من مجموعة مــن سبعين تلاً شغلت، جميعها، في الحقبة التاريخية نفسها، يضم بناء أو مخزون رُقُم أو مجموعــة من الأشياء التي تحمل أهمية خاصــة؟ بل إن التل الصغير يحمل الآمــال نفسها التي يحملها التل الكبــير- لأن احتمالات أن

يكـون موقع ما قد تعرض للنهب أو التدمير في الماضي القريب تزداد كلما كان الموقـع أكبر. ويعتبر الحـظ عاملاً مهيمناً في هـذا المجال. فكـم من موقع تم التنقيب فيه بحرص وبأسلوب مضبوط، موسماً بعد موسـم، دون تحقيق نتائج ذات مغزى، ثم ينزاح التنقيب بضعة أقدام، وفجأة، يخرج إلى النور كشف فريد. أما عزاؤنا الحقيقي الوحيد، فهو ثقتنا التامة بالعثور على شيء ما، مهما يكن التل الذي اخترناه.

أمضينـا يوماً واحداً في زيارة خاطفة أخرى لتل حلف على الضفة المقابلـة للخابور وأمضينا يومين في جغجغ، وهـو أقل شأناً من حيث المظهـر مـن أن يكون نهراً- فهـو مسيل طيني بني اللـون بين ضفتين مرتفعتـين- وقيدنا تلاً واحـداً في سجلاتنا- هو تل بـراك- باعتباره مرشحـاً قوياً. فهو تل كبير يحمل علامات حقب تاريخية عديدة تمتد مـن عصر ما قبل التاريخ الأول وانتهاء بالفترة الآشورية. يبعد تل براك حـوالي ميلين عن نهر جغجغ حيث تنتصب مستوطنة أرمنية بالإضافة إلى قـرى أخرى متناثرة لا تبعد كثيراً عنـا. كما يبعد التل مسيرة ساعة بالسيارة عـن الحسكة التي ستشكل مصدراً مناسباً للتموين. أما نقطة ضعفه فهي أنه ليس في التل، ذاته، من ماء على الرغم من أنه يمكن حفر بئر فيه على سبيل الاحتمال. وبذلك، يصبح التل موقعاً مرشحاً.

نتخـذ اليـوم الطريق الرئيسي الـذي يتجه شمالاً مـن الحسكة إلى القامشلـي، وهي موقـع عسكري فرنسـي آخر وبلـدة حدودية تقع على الحدود المشتركـة بين سورية وتركيا. يتوسط هذا الطريق، لبعض الوقـت، المنطقـة الممتدة بين الخابـور وجغجغ قبـل أن ننضم إلى نهر جغجغ عند مدينة القامشلي.

نقـرر، نظراً لاستحالـة دراسة كافة التلال الواقعـة على طريقنا ثم

العـودة إلى الحسكة في الليلة نفسها، أن نبيت ليلتنا في القامشلي على أن نعود في اليوم التالي.

تتبايـن الآراء حول المكان الـذي سنبيت فيـه. فالإقامة في الشيء المدعـو فندقاً مستحيلـة برأي المـلازم الفرنسـي. «*C'est infecte,! Madame*»[16]. في حـين يراه حمودة وأريستيد فندقاً ممتازاً وأوروبياً تماماً فضلاً عن كونه مزوداً بالأسرة! إنه فندق من الطراز الأول!

نكظم إحساساً داخلياً ينبئنا أن الملازم سيكون محقاً ونبدأ رحلتنا.

السمـاء مشرقة من جديـد بعد يومين من الأمطـار الغزيرة. ونأمل أن الحالـة الجوية لن تسوء، مـن جديد، قبل حلول شهر كانون الأول. هنالـك، بـين الحسكـة والقامشلي، واديـان كبيران. فـإن غمرتهما الميـاه، فسيقطـع الطريـق لبضعة أيام. لكـن المياه فيهمـا ضحلة اليوم فنتجاوزهمـا- أي نحـن ركاب سيارة أرستيد- دون كبـير عناء. أما عبـد الله، فـلا يحيد قيد أنملة عمـا عهدناه فيه. إذ ينحـدر إلى الوادي مستخدماً أعلى تعشيق للتروس ويحاول الصعود منه بالتعشيق نفسه. ثم ينزل التعشيق إلى الثاني من وضعية الثبات، فيهدر المحرك باحتجاج ويتوقـف عن العمل وينزلـق عبد الله بهدوء إلى قعـر الوادي وتغوص العجلتـان الخلفيتان في الطين والماء. فنغـادر سيارتنا في مسعى لإنقاذ الموقف.

يشتـم ماكس عبد الله واصفاً إياه بالأبله اللعين ويسأله لماذا لا يقوم بما قيل له مئات المرات مـن قبل؟ ويوبخه حمودة على بطئه. «أسرع، أسرع. لقد أظهرت الكثير من التردد. لا تمنح السيارة الوقت للتفكير، فـلا تعاندك». في حين يصيح أرستيد بمرح: «سنخرج من هنا في عشر

١٦-بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "المكان موبوء يا سيدتي!" (المترجم)

دقائق إن شاء الله!». أما ماك، فيقطع صمته الطويل كي يبوح بملاحظاته المحبطة المعهـودة. «لم يحل له أن يعلق إلا في أسوأ مكان. انظروا كم هي كبيرة الزاوية. سنمضي وقتاً طويلاً هنا قبل أن ننجح في الخروج». أما عبد الله فيرفع يديه إلى السماء ويدافع عن نفسه على طريقته. «كان ينبغي لسيـارة ممتازة كهذه أن تصعد بسهولة على التعليق الثالث دونما حاجة إلى إنزال التروس على الإطلاق فأوفر بذلك بعض الوقود! إنني أقوم بكل شيء لإرضائك!».

ثم تتراجع نوبة العويل الجماعي مفسحة المجال أمام العمل الفعلي. فيتم إحضار الألـواح والمعاول وغيرها من الأدوات التي ترافقنا دائماً تحسبـاً لهـذا النوع من الحـوادث. ويقوم ماكس بدفع عبـد الله جانباً ويحتل مكانـه خلف مقود كوين ماري وتوضـع الألواح في أماكنها ويتخذ ماك وحمودة وعبد الله مواقعهم استعداداً لدفع السيارة. ولأن الخاتون البريطانية لا تعمل في الشرق (يا لها من فكرة عظيمة!)، أتخذ مكاني علـى ضفة النهـر وأنا على أهبـة الاستعداد لإطـلاق هتافات التشجيع وتقديم النصائح المفيدة. يشغل ماكس محرك السيارة ويضغط على دواسة الوقود، فتزداد دورات المحرك، وتنبعث من العادم سحابة مـن الدخان الأزرق تكاد تقضي على الرجال الذين يدفعون السيارة، ويعشق ماكس التروس فتزمجر السيارة بهدير مخيف وتدور العجلات في مكانها ويزداد الضباب الأزرق كثافة، ومن قلب الضباب، تخرج صرخات حـادة تستمطر رحمة الله وتتقدم كوين مـاري بضعة أقدام ويزداد الهدير. الله رحيم...؟

لكـن الله، لبالغ الأسـف، لا يبدي ما يكفي مـن الرحمة! إذ تفقد العجـلات تماسكها وتغـرق كوين ماري من جديد. تمـد الألواح من

جديد. الجهود نفسها والصراخ نفسه ونوافير الطين نفسها وسحب الدخان الأزرق نفسها. وهذه المرة نصبح أقرب من قبل.

يبدو أن الأمر يتطلب قوة إضافية صغيرة. هكذا تربط مقدمة كوين ماري بمؤخرة سيارة الأجرة بحبل جر ويجلس أرستيد خلف مقود سيارة الأجرة. ويتخذ الآخرون مواقعهم. يبالغ أرستيد في حماسته، فيعلق تروس سيارته قبل الأوان فينقطع الحبل. عود على بدء. وهذه المرة أكلف بمهمة التنسيق بحيث لا ينطلق أرستيد إلا عندما أعطيه إشارة بمنديلي.

تبدأ المناورة من جديد. ويستعد حمودة وعبد الله وماك للدفع ويطلق الأولان هتافات التشجيع على أمل أن تستجيب السيارة. مرة أخرى يشغل ماك السيارة. ومرة أخرى تنبعث نوافير الماء والطين ممزوجة بسحب الدخان الأزرق ويزمجر المحرك متسارعاً وتبدأ العجلات بالحركة وأشير بمنديلي فيطلق أرستيد صراخاً وحشياً ويرسم شارة الصليب على صدره ويصيح أن الله كريم ويعشق تروس سيارة الأجرة ويسحق دواسة الوقود. فتتهدج كوين ماري وتتحرك إلى الأمام ببطء وهي تزمجر ويتوتر حبل الجر ثم تتردد كوين ماري وتدور عجلتاها الخلفيتان في المكان فيهزها ماكس بقوة فتنطلق من جديد ويستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن تصل أخيراً إلى الأعلى!

يخرج من خلف الشاحنة شكلان يغطيهما الطين تماماً وهما يصيحان بمرح، ثم شكل ثالث غارق في الطين، هو كذلك، يسير برصانة- إنه، بالطبع، ماك الذي لا يمكن لشيء أن يهزه- دون أن تبدو عليه علامات ضيق أو علامات فرح على حد سواء.

أنظر في ساعتي وأقول: «ربع ساعة. هذا ليس بالأمر السيئ»

فيجيب ماك بهدوء: «ربما ستكون الأمور عند وصولنا إلى الوادي التالي أسوأ من ذلك».

ماك ليس مخلوقاً بشرياً بالتأكيد!

نتابع رحلتنا التي تبث أغنيات حمودة الحياة فيها. إنه يجلس في المقعد الأمامي مع ماكس ويمضيان وقتاً ممتعاً. أما أنا وماك، فجالسان في الخلف بصمت. يعاودني الإحساس بالغباء في كل مرة أبادر فيها بالحوار. إذ يتحمل ماك، كالمعتاد، عناء سماع ملاحظاتي الغبية بصبر وتهذيب مولياً إياها عناية كبيرة لا تستحقها ويرد عليها بإحدى صيغتيه المعروفتين: فإما أن يوافق على ما أقوله بكلمة «حقاً؟» أو أنه يؤنبني بأسلوبه اللطيف بكلمة «هل تظنين ذلك؟».

نصل، الآن، إلى الوادي الثاني. فنتوقف ويحتل ماكس مكان عبد الله خلف مقود كوين ماري. يعبر أرستيد الوادي أولاً دون أن يرتكب أي خطأ، يليه ماكس الذي ينحدر بعد تعشيق التروس على الثاني ثم يعشق على الأول في طريقه إلى الصعود وتصل كوين ماري مترنحة بظفر.

يقول ماكس لعبد الله: «أرأيت؟»

فترتسم على أسارير عبد الله ملامح الجمل بكامل أبعادها ويقول: «كانت لتصعد هذه المرة على الثالث. لم تكن بك من حاجة إلى تغيير التعشيق».

ومن جديد يصفه ماكس بأنه أبله لعين ويردف قائلاً إنه يجب عليه في المرات القادمة أن يلتزم بما يقال له حرفياً. فيجيبه عبد الله بفرح إنه سيفعل على الدوام ما هو أفضل.

فيستسلم ماكس ونتابع الرحلة.

التلال هنا كثيرة. أتساءل الآن إن لم يكن الوقت قد حان كي أستأنف دوراني حولها بعكس عقارب الساعة.

نصل إلى تل اسمه شاغر بازار. تهرع كلاب وأطفال من مجموعة صغيرة من المنازل. ويلوح من بعيد شخص ذو مظهر لافت يرفل بجلباب أبيض وعلى رأسه عمامة خضراء. إنه شيخ العشيرة المحلي. يرحب بنا برقة فائقة ثم يتوارى معه ماكس في أكبر البيوت الطينية. وبعد بضع لحظات، يخرج الشيخ ويصيح: «المهندس! أين هو المهندس؟». يشير حمودة إلى ماك أنه المقصود بالنداء، فيذهب ماك.

يصرخ الشيخ: «هاه، إليكم اللبن». ويقدم قدراً من الحليب الرائب المحلي. «كيف تحب اللبن أيها المهندس، سميكاً أم خفيفاً؟» فيومئ ماك، المولع باللبن، إلى جرة الماء التي يحملها الشيخ. أشاهد ماكس وهو يحاول جاهداً رد الاقتراح لكن بعد فوات الأوان. إذ يضاف الماء إلى اللبن ويشربه ماك بشيء من الاستمتاع.

يقول له ماكس لاحقاً: «لقد حاولت تحذيرك. فذلك الماء لم يكن، في الواقع، سوى طمي أسود خفيف!».

نتائج تحرياتنا في تل شاغر بازار جيدة في الواقع... إذ توجد قرية وآبار وبضع قرى مجاورة أخرى- بالإضافة إلى شيخ لطيف وإن يكن جشعاً بلا شك. فنسجل التل على أنه موقع محتمل ونتابع سيرنا.

نضطر، بضع مرات، إلى سلوك طرق التفافية كي نتجنب السبخات، ما يؤخر وصولنا إلى بعض التلال الواقعة بالقرب من نهر جغجغ حتى نهاية اليوم، ونعود إلى القامشلي في وقت متأخر للغاية.

يفرمل أرستيد السيارة بعنف أمام فندق الدرجة الأولى.

ويقول: «أترون؟ أليس جميلاً؟ بناؤه من الحجر!».

نمسك عن القول إن داخل الفندق أكثر أهمية من خارجه. لكنه، على كل حال، الفندق الموجود بغض النظر عن حالته. لقد قضي الأمر.

ندخل إلى الفندق ونصعد إلى الأعلى عبر سلم طويل قذر كي نصل إلى مطعم سطوح طاولاته مصنوعة من رخام تعلوه طبقة سميكة من الشمع والثوم والدخان.

يدخل ماكس في مفاوضات مع مالك الفندق.

إنه فندق بالتأكيد. وهو فندق بأسرة- بأسرة حقيقية! والدليل على ذلك أنه يدفع باب غرفة ينام فيها أربعة أشخاص على أسرة. وهنالك في الغرفة سريران غير مشغولين.

يقول: «ها هي ذي الأسرة» ثم يركل أقرب النائمين: «وهذا الحيوان هنا، يمكننا أن نرميه إلى الخارج! إنه سائسي».

لكن ماكس يتقدم بطلب غير منطقي بأن نحصل على غرفة لأنفسنا. ترتسم علامات التردد على وجه المالك ويقول إن الأمر سيكلفنا قدراً كبيراً من المال.

فيخبره ماكس باستهتار إنه لا يمانع في دفع المال ويسأله كم يكلفنا الأمر؟

يرتبك المالك قليلاً ويحك أرنبة أذنه ويقيس مظهرنا (الذي لا يبدو عليه الثراء الفاحش بسبب الطين)، وأخيراً يستقر رأيه عند مبلغ جنيه واحد لنا نحن الأربعة.

فيباغته ماكس بالموافقة على دفع المبلغ دون أن يبدي أي اعتراض.

تدب الحركة والنشاط في الفندق على الفور. فيتم إيقاظ النائمين ويستدعى الخدم. أما نحن، فنجلس إلى إحدى الطاولات الرخامية ونطلب أفضل طعام يمكن للفندق أن يقدمه.

يأخذ حمودة نفسه على عاتقه مهمة الإشراف على إعداد مكان النوم. ويعود بعد ربع ساعة وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على محياه. ستكون هناك غرفة توضع في تصرفي وتصرف ماكس في حين أنه سيشارك ماك الغرفة الأخرى. كما أنه وافق، «لخير سمعتنا» على حد قوله، على دفع كلفة إضافية مقدارها خمسة فرنكات من أجل الحصول على ملاءات نظيفة!

يصل الطعام. إنه دسم للغاية لكنه ساخن ومستساغ. نتناول طعامنا بحماسة ونأوي دون جلبة إلى غرفنا ونرتمي على أسرتنا ذات الملاءات النظيفة. وفيما أنا في طريقي إلى النوم، يعاودني السؤال المعقول المتعلق بـ «البراغيث». لكن ماكس يؤكد لي أننا آمنون من البراغيث لأن الفندق حديث البناء وأسرته معدنية جديدة.

تتسرب روائح الثوم والدخان والشمع من باب المطعم القريب، وهناك كذلك أصوات ثرثرة مرتفعة باللغة العربية. بيد أنه لا يمكن لشيء أن يمنعنا من النوم. فننام.

نستيقظ في الصباح وقد نجونا من اللسع. الوقت متأخر أكثر مما نتوقع. ينتظرنا، من جديد، يوم طويل. يفتح ماكس باب الغرفة بسرعة ثم يتراجع قليلاً. المطعم مليء بالنيام الذين أخرجوا من غرفنا. وهم ممددون بين الطاولات. هنالك عشرون منهم على الأقل. الجو ثقيل للغاية. يقدم لنا الشاي والبيض وننطلق من جديد. يخبر حمودة ماكس

بحـزن أنه حادث الخواجة ماك مطولاً وبجدية في الليلة الماضية، لكن الخواجـة ماكس مـا يزال، حتى الآن، بعد مـرور شهرين، لا يفهم أية كلمة بالعربية.

يسألـه ماكس عـن مقدار التقـدم الذي حققه في كتـاب «العربية للمبتدئين» لفان إيس. فيجيبه ماك إنه يبدو أنه نسيه في مكان ما.

نتسوق بعض الحاجيـات من القامشلي وننطلق إلى عامودا. يمكننا القول إن الطريق إلى تلك المدينة ذو شأن. إنه، في الواقع، طريق حقيقي وليـس مجرد مسلك. وهو يسير في محاذاة الخـط الحديدي الواقع على الجانب الآخر من الحدود، أي في الأراضي التركية.

سطح الطريق مرعـب تنتشر فيه الأخاديد والحفر. وعلى الرغم أنه يهزنـا حتى الأعماق، إلا أنه يبدي علامـات على الحياة لا شك فيها. إذ نجتـاز عدداً مـن السيارات، وكان علينا أن نشتـم عبد الله وأرستيد بقسـوة بسبب انغماسهما في الرياضة المفضلة لدى السائقين المحليين التي تتمثل في محاولة دهس، أو على أقل تقدير، بث الرعب في الحمير والجمال التي ترعاها نسوة مسنات وأطفال.

يسألـه ماكس: «أليـس الطريق عريضـاً بما يكفي كـي تسير على الجانب الآخر منه؟»

فيلتفت عبد الله إليه بدهشة.

«ألسـت أنا من أقود سيـارة النقل؟ هؤلاء البـدو المساكين هم من يجب أن يبتعدوا عن طريقي– هم وحيواناتهم التافهة!».

أمـا أرستيد، فينسـل بهدوء خلـف حمار ينوء تحت وطـأة حمله وإلى جانبـه رجل وامرأة يسيران بمشقـة ويطلق بوقاً قوياً. فيفر الحمار

مذعـوراً وتصرخ المـرأة وتهرع خلفه ويهز الرجـل قبضته مهدداً، في حين ينفجر أرستيد ضاحكاً.

بدوره، يتلقى أرستيـد نصيبه من الشتائم، لكنه، كالعادة، لا يظهر أية علامات على الندم.

عامـودا مدينة يغلب عليهـا الطابع الأرمني ولا يمكـن القول إنها جميلة. أعداد الذباب فيها تفوق الوصف، ويتسم الصبية الصغار فيها بسلوكيـات هي أسوأ ما رأيت على الإطلاق، والناس يبدون ضجرين وفي الوقت نفسه مشاكسين. المدينة، بالإجمال، لا تصمد أمام المقارنة بالقامشلي. نبتاع لحماً مشكوكاً في نوعيته يحوم الذباب حوله أسراباً وخضاراً ذاوية وخبزاً طازجاً.

يمضـي حمودة بعيداً ليتحرى أحوال المدينـة ويعود مع انتهائنا من الشراء ويقودنا في طريق جانبي تلوح في نهايته بوابة تفضي إلى فناء.

هنـاك، يرحب بنا كاهن أرمني يتمتـع بالكثير من الكياسة ويعرف القليل من الفرنسية. يلوح بيده حول الفناء ثم يشير إلى بناء يقع في أحد جوانبه قائلاً إنه بيته.

نعـم، إنه مستعد لتأجيره لنا في الربيع القادم إن كانت «الترتيبات» مرضيـة. نعـم، يمكنه، في القريب العاجل، أن يفـرغ غرفة كي نخزن الأغراض فيها.

علـى هـذه الشاكلـة، تمضـي المفاوضات، ثـم نقفـل عائدين إلى الحسكـة. هنالك طريق مباشر مـن عامودا يلتقي بالطريـق القادم من القامشلي عند تل شاغر بازار. نتفحص بضعة تلال على طريقنا ونعود إلى مخيمنا دون أن يصيبنا سوء على الرغم من أن التعب نال منا.

يسأل ماكس ماك مطمئناً إن كان الماء القذر الذي قدمه الشيخ له قد آذاه. فيجيبه ماك إنه لم يشعر في أي وقت مضى بأنه أفضل مما هو عليه اليوم.

يقول لي ماكس، في وقت لاحق، عندما نندس في أكياس النوم: «قلت لك إن ماك كنز. لديه معدة من طراز رفيع! لا شيء يغضبه. يستطيع أن يأكل أية كمية من الدهن والأقذار. وهو، عملياً، لا يفتح فاه».

فأجيبه: «قد تكون هذه الأمور حسنة بالنسبة إليك! فأنت وحمودة لا تكفان عن الضحك والثرثرة. لكن ماذا عني؟».

«لا أفهم لماذا تكون الأمور بينكما على ما يرام. هل تحاولين؟».

«أحاول على الدوام! لكنه يصدني باستمرار».

يبدو أن ماكس يجد الأمر مسلياً فيضحك بكل فمه.

نصل اليوم إلى عامودا، مركز نشاطنا الجديد. ونركن كوين ماري وسيارة الأجرة في فناء الكاهن الأرمني. إحدى غرف البيت قد أفرغت من محتوياتها بالفعل وهي الآن تحت تصرفنا، لكن حمودة ينصحنا بعد فحصها أن ننام في الخيام! ننصب خيامنا بمشقة بسبب الريح القوية ثم يبدأ المطر بالهطول. يبدو أننا لن نغادر مكاننا في الغد. إذ يكفي أن يهطل المطر أربعاً وعشرين ساعة كي تصاب الحركة المرورية بالشلل. من حسن حظنا أننا حصلنا على غرفة يمكننا أن نمضي اليوم فيها ويستطيع ماكس أن يكتب تقاريره وأوراقه أولاً بأول.

نفرغ، ماك وأنا، الأغراض ونرتب الغرفة ونضع فيها الطاولة

والكراسي القابلة للطي والمصابيح وما سواها، في حين يخرج الآخرون إلى البلدة كي يشتروا الحاجات الضرورية.

تهب الريح في الخارج وتهطل الأمطار بغزارة. هنالك ألواح زجاجية مكسورة في النوافذ والجو في الغرفة بارد للغاية. فأنظر بشوق إلى مصباح النفط.

أقول: «أود لو أن عبد الله يعود كي نشغل السخان».

فعبد الله سيد الأشياء المزاجية ومصابيح النفط، بلا ريب، على الرغم من أن الطبيعة حرمته من الذكاء، وعلى الرغم من أنه سائق أخرق ومعوق عقلياً في كل شيء تقريباً.

يتجه ماك إلى السخان ويتفحصه.

يقول إن مبدأه العلمي بسيط للغاية. فهل أسمح له بتشغيله؟

أقول له إنني موافقة وأعطيه علبة أعواد ثقاب.

يتنطح ماكس للمهمة بثقة كبيرة بالنفس. ويقوم بإشعال الفتيل وما إلى ذلك. يداه رشيقتان وماهرتان ويبدو بوضوح أنه يعرف ماذا يفعل.

يمر الوقت... والمصباح لا يضيء. يعيد ماك العملية منذ البداية من إشعال للفتيل...

يتمتم، بعد خمس دقائق، لنفسه، أكثر منه لي:

«المبدأ واضح بما يكفي...».

أختلس نظرة إليه بعد مرور خمس دقائق أخرى. حرارته ترتفع ولا يبدو عليه التفوق. فالمصباح يعانده بمبدأ علمي أو من غير مبدأ علمي. ثم يضطجع على الأرض ويصارع ذلك الشيء وقد أخذ العرق يتصبب منه...

يجتاحني إحساس غامر بالسعادة. فماك في نهاية المطاف بشر هزمه مصباح نفط!

يعود ماكس وعبد الله بعد نصف ساعة. وجه ماك قرمزي والمصباح لما ينر بعد.

يقول عبد الله: «آه، دعني أقم بهذا يا خواجة». ويلتقط الفتيل وعلبة الثقاب- وتمر دقيقتان وها هو ذا المصباح يتوهج على الرغم من ثقتي التامة أن عبد الله لا يعلم شيئاً عن أي مبدأ علمي...

«حسناً»، يقول ماك بلا مبالاته المعهودة على الرغم من أنه تعليقه، في هذه المرة، محمل بالكثير.

تصبح الريح في تلك الليلة هوجاء والأمطار تهطل كالسياط. يندفع أرستيد إلى الداخل ويقول إنه يظن أن الخيام توشك على الانهيار. نهرع، جميعنا، إلى الخارج تحت المطر. ويخيل إلي أنني قاب قوسين أو أدنى من معاينة الوجه القبيح للـ *le camping*.

يناضل ماكس وماك وأرستيد ضد الخيمة الكبيرة ببسالة. ويتشبث ماك بعمود الخيمة.

وفجأة نسمع صوت قرقعة ويتحطم العمود ويغرق ماك في الطين السميك اللزج.

يكافح ماك كي ينهض وقد غطى الطين سحنته بطريقة لم يعد معها التعرف عليه ممكناً. وفجأة يعلو صوته وقد اتخذ نبرة طبيعية: "اللعنة!". ماك يصرخ. لقد تحول أخيراً إلى مخلوق بشري.

ومنذ تلك الليلة، يصبح ماك واحداً منا!

ينقضي الطقس الرديء لكن الطرق اليوم أكثر بللاً من أن تكون

القيـادة عليها ممكنة. فنخرج بحذر إلى بعض التلال القريبة. يعتبر تل حمدون من التلال الواعدة وهو تل كبير لا يبعد كثيراً عن عامودا ويقع علـى الحدود تماماً، بل إن الخط الحديـدي يخرقه بحيث يقع قسم منه يقع في الأراضي التركية.

نصـل إلى التل ذات صباح برفقة رجلـين أحضرناهما كي يحفرا خندقـاً على جانب التـل. المكان حيث يحفران بـارد للغاية، فأمضي إلى الناحيـة المقابلة من التل بعيداً عن الريـح. أصبح الجو الآن خريفياً بالتأكيد، فأجلس إلى جانب التل وأتدثر بمعطفي.

وفجـأة ينبثـق من لا مـكان، كالعـادة، رجل على صهـوة جواد ويقـترب من التل ويصرخ نحوي مخاطبـاً إياي بعربية طليقة. لكنني لا أفهـم شيئاً مما يقوله باستثنـاء التحية التي أردها بتهذيـب وأقول له إن الخواجـة موجود في الناحية المقابلة من التل. ينظر إلي بارتباك ويطرح علـي سـؤالاً آخـر ثم يلقـي رأسه إلى الخلـف على حين غـرة ويزمجر ضاحكاً.

"آه. إنهـا خاتون!" يصرخ. "يا له من خطأ! إنها خاتون من أتكلم معهـا!" وينطلـق باتجاه الجانـب الآخر من الأكمة وهـو يضحك من عجزه عن تمييزي كامرأة من النظرة الأولى!

ولت أفضل الأيام، والسماء الآن غائمة باستمرار. انتهينا من عملية مسح التلال، وتحين لحظة اتخاذ القرار حول المكان الذي ستضرب فيه معاولنا في الربيع القادم.

تتنافـس ثلاثة تـلال على الفوز بشرف نيـل اهتمامنا: تل حمدون الـذي يقع، من الناحية الجغرافية، في قطاع مثير للاهتمام؛ يليه خيارنا الأول، تـل شاغر بازار؛ ثم أخيراً، تل مـوزان وهو أكبر التلال الثلاثة

ويعتمـد اختياره إلى حـد بعيد على مقدار المخزونـات الرومانية التي ينبغي الحفر عبرها.

يجب أن نجري جولة علـى التلال الثلاثة جميعها. والبداية من تل مـوزان. هنالك في موقع التل قرية نحاول مـن خلال سفيرنا حمودة الحصـول على يد عاملـة منها. لكن الرجال يبـدون الكثير من الشك والريبة.

يقولون: "لسنا في حاجة إلى المال. لقد كان الحصاد وفيراً".

أفكر في كم هو بسيط هذا الجزء من العالم وكم هو، بالتالي، سعيد. الغـذاء هو الهم الوحيد. فـإن كان الحصاد وفيراً، فأنـت ثري حتماً، وتستطيع أن تقضي بقيـة العام بكسل ووفرة حتى يحين موعد حراثة الأرض وبذارها من جديد.

يقـول حمـودة علـى طريقة حيـة جنة عـدن: "لكن بعض المال الإضافي لا يضير".

فيجيبون ببساطة: "لكن ماذا نشتري به؟ لدينا ما يكفي من الطعام حتى موعد الحصاد التالي".

وهنـا تتدخل حـواء، للأسف، كـي تلعب دورهـا الأزلي ويرمي حمودة الداهية شراكه. يمكنهم شراء بعض الحلي لزوجاتهم.

تهز الزوجات رؤوسهن ويقلن إن التنقيب أمر حسن!

يقلـب الرجال الفكرة في رؤوسهـم على مضض. هنالك أمر آخر يجـب أخذه بالحسبـان. الكرامة. فكرامـة العربي عزيـزة عليه. هل التنقيب كريم ومشرف؟

فيشرح حمودة الأمر لهم بأن العمل لن يستغرق سوى أيام معدودة،

وهم، في كل الأحوال، يستطيعون دراسة العرض قبل حلول الربيع.

وأخيراً، تخرج من صفوف هؤلاء الرجال الذين ترتسم على وجوههم تعبيرات الشك إزاء تلك المغامرة الجديدة غير المسبوقة، ثلة من ذوي العقول الأكثر تقدمية. أما المسنون الأكثر محافظة، فيهزون لحاهم البيضاء.

وبإشارة من حمودة، يتم إنزال المعاول والمجارف من كوين ماري وتوزع على الرجال ويمسك حمودة نفسه معولاً ويقدم لهم عرضاً إيضاحياً.

يتم تنفيذ ثلاث عمليات حفر تجريبية في مناسيب مختلفة من التل. ويتمتم أحدهم بكلمة "إن شاء الله!" ويبدأ الحفر.

نزيل تل موزان من لائحة المواقع الواعدة على مضض. فهنالك العديد من الطبقات الرومانية. وعلى الرغم من أن الحقبة التي نرغب في الحفر إليها موجودة تحتها، إلا أن بلوغها يتطلب عدة مواسم، أي مقادير من الوقت والمال أكثر مما نطيق.

نتجه اليوم إلى صديقنا القديم شاغر بازار. يتم الانتهاء من الترتيبات المتعلقة باليد العاملة بسرعة. فالشيخ هنا رجل فقير غارق في الديون وهو لا يرى في المسألة برمتها أكثر من كونها فرصة سانحة لتحقيق بعض الربح.

يقول الشيخ لماكس بسخاء، وبريق الحسابات يشع من عينيه: "كل ما لي هو لك أيها الأخ. لا حاجة بك لدفع أي مبلغ من المال مقابل الأرض. خذ كل ما أملك!".

ثم يميل برأسه إلى حمودة، وقد ابتعد ماكس في طريقه إلى قمة التل.

"هـذا الخواجة فاحش الثراء بلا ريب أليس كذلك؟؟! لكن هل هو بثراء البارون طيب الذكر الذي كان يغدق الذهب بالأكياس؟".

فيجيبه حمودة: "لم تعد المدفوعات في أيامنا هذه تسدد ذهباً. ومع ذلـك الخواجة ثري للغاية. وفضلاً عن ذلك، سيقوم الخواجة ببناء بيت هنا في جميع الأحوال- بيت كبير وبهي سيكون حديث الناس في كل مـكان. أية أبهة سيجلبها بيت الحفريات إلى الشيخ؟ سيقول الجميع إن الخواجات الأجانب اختاروا هـذه البقعة كي ينوا وينقبوا فيها بسبب قربها من هذا الشيخ التقي الذي حج إلى مكة والذي يجله الجميع".

ترضي فكرة البيت غرور الشيخ، فيتأمل في التل.

"يجـب أن أضحي بالمحصول الذي كنـت على وشك بذاره على الأكمة هذه. يا لها من خسارة كبيرة- يا لها من خسارة كبيرة!".

يقـول حمـودة: "لكـن ألم يكـن يفترض بـك أن تحـرث الأرض وتبذرها قبل الآن؟".

يقول الشيخ: "لقـد حدث بعض التأخير. لكنني على وشك القيام بذلك".

"لكن هل سبق لك أن زرعت هذه الأرض؟ بالطبع لا! من يحرث هضبة عندما تكون لديه كل هذه السهول حوله؟".

يقول الشيخ مؤكداً: "الخسارة التي ستحيق بي ستكون كبيرة. لكن ماذا في ذلك؟ إنها تضحية سأقدمها عن طيب خاطر إرضاء للحكومة. فليس مهماً أن أفلس؟".

ويعود إلى بيته وقد ارتسمت على وجهه علامات ابتهاج مؤكد.

تتقـدم امرأة مسنة نحو حمـودة وهي تقود بيدها صبيـاً في الثانية عشرة من عمره تقريباً.

"هل لدى الخواجة دواء؟"

"لديه بعض الأدوية. نعم".

"هل سيعطيني بعض الدواء من أجل ابني".

"وما به ابنك؟"

سؤال لا ضرورة لطرحه. فعلامات البلاهة على وجهه واضحة للغاية.

"حواسه لا تعمل كما يجب".

يهز حمودة رأسه بأسى قائلاً إنه سيسأل الخواجة.

كان الرجال قد بدؤوا الحفر عندما يصل حمودة مع المرأة والطفل إلى ماكس.

ينظر ماكس إلى الصبي ثم يلتفت إلى المرأة برقة ويقول: "هذه مشيئة الله. ليس لدي أي دواء أستطيع تقديمه للصبي".

تتنهد المرأة – وأظن أن دمعة سالت على خدها. ثم تقول بصوت واقعي.

"إذن هلا أعطيتني سماً يا خواجة. لأنه خير له أن لا يعيش".

فيجيبها ماكس برقة إنه لا يستطيع القيام بهذا الأمر كذلك.

تحدق المرأة فيه بنظرة عدم فهم ثم تهز رأسها بغضب وتمضي بعيداً مع الصبي.

أتسلق على مهل إلى قمة الأكمة إلى حيث ماك منهمك في أعمال المسح. هنالك صبي عربي يمسك باهتمام وارتباك عصا المساحة. ما يزال ماك يعرض عن المخاطرة ولو بكلمة واحدة باللغة العربية فيضطر

للتعبير عن رغباته بلغة الإشارة التي لا تؤتي أكلها على الدوام. فيسارع أرستيد إلى نجدته، كما يفعل على الدوام!

أتلفت حولي فأشاهد إلى الشمال خط التلال التركية كما أشاهد بقعة متألقة واحدة هي مدينة ماردين. وإلى الغرب والجنوب والشرق، يمتد السهب الخصيب الذي سيكتسي في فصل الربيع بالخضرة ويتلألأ بالأزهار. التلال متناثرة في كل مكان. وخيام البدو تنتشر هنا وهناك في تجمعات ذات لون بني. وعلى الرغم من وجود بعض القرى في العديد من التلال، إلا أنني لا أستطيع رؤيتها– وهي، في جميع الأحوال، ليست سوى بعض الأكواخ الطينية. كل شيء في هذا المكان وادع وفي منأى عن البشر وعن طرق الحضارة. أحب شاغر بازار وآمل أننا سنختاره. أود لو أنني أعيش في بيت نبنيه هنا. أما إن اخترنا التنقيب في تل حمدون، فسوف نضطر إلى الإقامة في عامودا... آه، لا، أريد ذلك التل.

يحل المساء. ماكس راض عن النتائج. وسوف نعود في الغد ونتابع الاستطلاع. إنه يعتقد أن أحداً لم يشغل هذا التل منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد باستثناء بعض القبور الرومانية والإسلامية المتطفلة. هنالك فخاريات مطلية على نمط الفخاريات الأربجية الأولى في تل حلف.

يرافقنا الشيخ إلى السيارة بلطف. ويؤكد من جديد: "كل ما لي هو لك أيها الأخ، مهما سيصيبني من العوز!".

فيجيبه ماكس بتهذيب: "كم ستكون سعادتي بالغة إن سمحت لي الأقدار أن أجعلك ثرياً بالتنقيب هنا. سوف ندفع التعويضات المستحقة عن الخسائر التي ستلحق بالمحصول بالمقدار الذي تم الاتفاق

عليـه مع السلطات الفرنسيـة وسوف يتقاضى رجالـك أجوراً مجزية وسنستأجـر منك أرضاً كي نبنـي بيتاً عليها، وفضلاً عن ذلك، سوف نقدم لك شخصياً هدية جميلة في نهاية الموسم".

فيهتـف الشيخ بسعادة بالغة: "آه! لست في حاجة إلى شيء! ثم ما هذا الكلام عن المال بين الإخوة؟".

وعلى هذه الملاحظة الغيرية، نغادر المكان.

نمضـي يومين بارديـن وشتويـين في تل حمـدون. النتائـج هناك معقولـة، لكن حقيقة أن جزءاً من التـل يقع في الأراضي التركية تقف عائقـاً في وجه اختياره. يبدو أن القرار يتجه إلى تل شاغر بازار بجلاء مـع تقديم تنازل إضـافي لتل براك الذي يمكن إضافتـه إلى التنقيب في شاغر بازار في موسم آخر.

لم يعد أمامنا الآن إلا إجراء الترتيبات استعداداً للربيع. هنالك موقع مناسـب في شاغر يمكن اختياره لبناء البيـت، وهنالك مسألة استئجار البيـت في عامودا كـي نقيم فيه أثناء بناء البيـت والترتيبات التي ينبغي الاتفـاق عليها مع الشيخ وأخيراً، وهو الأهـم، أنه توجد حوالة مالية جديـدة في انتظارنـا في الحسكة وينبغـي الحصول عليهـا دون إبطاء تحسباً لامتلاء الأودية بالماء وانقطاع الطريق.

كان حمـودة، في الآونة الأخيرة، ينثر المال في عامودا ذات اليمين وذات الشمـال وفي بالـه "سمعتنـا". يبـدو أن إنفاق المـال، بالنسبة إلى العـرب، هـو مصدر للفخر – أي بكلمة أخرى عـادة إكرام وفادة الوجهـاء في المقهى! فالظهور بمظهر البخـل مدعاة لعار رهيب. لكن حمـودة، من جهة أخرى، يمسك يـده، بقسوة، على النسوة المسنات

اللواتي يحضـرن لنا الحليب ويغسلن ملابسنا مقابل مبالغ مالية زهيدة بصورة لا تصدق.

نستقـل، ماكس وأنا، كوين مـاري في طريقنا إلى الحسكة والأمل يحدونـا أن تسـير الأمور على ما يـرام على الرغم مـن السماء الملبدة بالغيـوم والمطر الذي يهطل رذاذاً. نصـل إلى الحسكة دون صعوبات علـى الرغم مـن أن الأمطار تزداد غزارة ونتسـاءل إن كنا سننجح في العودة اليوم.

وكي تزداد الأمور سوءاً، نكتشف، لدى وصولنا إلى مكتب البريد أن مدير المكتب في الخارج ولم يكن أحد يعرف مكانه. فينتشر الصبية في كل أرجاء البلدة لاصطياده.

المطر يهطل بغزارة. والقلق باد على وجه ماكس الذي يقول إنه ما كان يجـب أن نأتي إلا إذا كنا واثقين من أننا سنعود باكراً. ننتظر بقلق والمطر مستمر في الهطول.

وفجـأة يظهر مدير مكتب البريد وهو يمشي من غير استعجال وفي يده سلة بيض.

يحيينا بحـرارة ودهشة فيقطع ماكس المجاملات المألوفة طالباً منه الإسراع لأن السبل قد تتقطع بنا.

فيقـول مديـر المكتـب مشـدداً علـى حسـن ضيافتـه: "ولم لا؟ ستكونـون، عندها، ملزمين بالبقاء بضعـة أيام وهو مصدر سرور كبير لي شخصيـاً. الحسكـة مدينة غايـة في الجمال. لم لا تبقـون معنا وقتاً أطول؟"

يجـدد ماكس، بنفاذ صبر، طلبه أن يلبينا على وجه السرعة. فيفتح

المديـر أدراج مكتبه ببطء ويفتش فيها على غير هدي مؤكداً من جديد رغبته في أن نبقى لفترة طويلة.

ثـم يبدي استغرابه من أنه لا يستطيع العثور على هذا المغلف الهام. إنـه يتذكـر أنه تلقـاه بالفعل وأنه قـال لنفسه: "سـوف يأتي الخواجة ذات يـوم لطلبه". ولذلك قام بوضعـه في مكان آمن. لكن أين أخفاه بالضبـط؟ يصل أحد الموظفين لنجدته ويستمر البحث. وأخيراً، تظهر الرسالـة، فننتقل إلى مهمة الحصول على المـال الذي يجب جمعه من البازار كما في المرة السابقة.

والمطـر ما يزال يهطل! ننال أخيراً ما جئنا من أجله. ويشتري ماك، على سبيـل الاحتياط، بعض الخبز والشوكـولا في حال اضطررنا إلى قضاء ليلة أو اثنتين على الطريق ونعود إلى كوين ماري وننطلق بالسرعة القصـوى. نجتاز الوادي الأول بنجاح كبـير لكن منظراً مشؤوماً كان في انتظارنا عند بلوغنا الوادي الثاني.

لقد علقـت حافلة البريد في الـوادي وخلفها رتل مـن السيارات المنتظرة.

الجميع في الوادي يحفرون ويثبتون الألواح ويشجعون.

يقول ماكس بقنوط: "سوف نمضي الليلة هنا".

ويـا لها من فكرة كئيبة. لقد سبـق لي أن أمضيت العديد من الليالي في سيـارات متوقفـة في الصحراء، لكنني لم أستمتـع بذلك قط. لأن المرء يستيقظ في الصباح وقد نال منه البرد والتشنج وعم الألم في أنحاء جسده.

لكننا محظوظون هذه المرة. إذ تخرج الحافلة من الوادي وهي تزمجر

وتتبعهـا السيارات الأخرى ثم نحن أخـيراً، في اللحظة المناسبة، لأن منسوب الماء يرتفع بسرعة.

رحلتنا على الطريـق المتجه إلى عامودا كابوسية بكل ما في الكلمة مـن معنى وهي سلسلـة مستمرة من الانزلاقات. بـل إن كوين ماري تـدور حول نفسها مرة أو اثنتين على الرغم من السلاسل المركبة على العجـلات. للانزلاق طعم خاص. إذ يشعر المـرء أن الأرض الصلبة تحت أقدامه لم تعد صلبة. إنه كابوس رهيب في الواقع.

نصل إلى عامودا بعد حلول الظلام ويسارع المالك إلى الخارج وفي يده فانوس ويرحب بنا بحرارة.

أتدحـرج من كوين مـاري إلى الأسفـل وأنزلق إلى بـاب غرفتنا. أعـاني مشقة كبيرة في السـير بسبب الطين الذي يتمتـع بقدرة فريدة علـى الالتصاق بأسفل قدميك مشكلاً فطيرة مسطحة وثخينة تصعب إزالتها.

يبدو أن أحـداً لم يكن ينتظر عودتنا الليلـة فيهنئنا الجميع بصخب ويحمدون الله على سلامتنا.

تدفعني الفطيرتـان الملتصقتان بأسفل حذائـي إلى الضحك. فهما تشعرانني وكأنني في حلم.

وبدوره يضحك حمودة قائلاً لماكس: "من حسن حظنا أن خاتون برفقتنا. فكل شيء قادر على إضحاكها!".

كل الأمـور جاهـزة الآن. وهنالـك اجتمـاع قانوني بـين ماكس والشيخ والضابط الفرنسي من جهاز الخدمة الخاصة المسؤول عن هذه المقاطعـة. يتم في الاجتمـاع الفصل في كل ما يتعلـق بإيجار الأرض

والتعويضـات والالتزامـات المترتبة علـى الفريقين. أمـا الشيخ فتراه، تـارة، يقول إن كل ما له هو لماكس، وطوراً يعتبر ألف جنيه ذهباً مبلغاً معقولاً بالنسبة إليه!

وأخـيراً يغادر محبطـاً بعد أن راودتـه أحلام كبيرة بالـثراء. بيد أنه يجـد ما يعزيه في واحد من بنود العقد ينص على أن تنقل البعثة ملكية البيت إليه حـال انتهاء أعمالها. إذ تشرق عيناه وتتأرجح لحيته الكبيرة المصطبغة بالحناء في علامة على الموافقة.

يقول النقيب الفرنسي بعد مغادرة الشيخ:

« *C'est tout de même un brave home*»

. ويضيف وهو يهز كتفيه:

«*Il n'a pas le sou comme tous ces gens là!*».[١٧]

تـزداد المفاوضات الرامية إلى استئجار المنزل في عامودا تعقيداً بعد ظهـور حقيقة كانت خافية حتى الآن وهي أن ما نفترضه منزلاً واحداً هو، في الواقع ستة منازل على ما يبدو! ثم تزداد التعقيدات من جديد لأن المنـازل الستة تـؤوي إحدى عشرة أسرة! يلعـب الكاهن الأرمني دور الناطق بلسان مالكي المنازل المختلفين!

وأخـيراً نصل إلى اتفاق يقضـي بإخلاء «المنـازل» في تاريخ محدد وطلاء جدرانها بطبقتين من الكلس الأبيض!

لقـد ذللت كل الصعوبـات، إذن، و لم يبق أمامنا إلا ترتيبات رحلة العودة إلى الساحل. سوف تحاول السيارات بلوغ مدينة حلب مروراً

١٧-بالفرنسية في الأصل وترجمتها: إنه رجل مقدام في جميع الأحوال. وهو لا يملك فلساً واحداً كما جميع هؤلاء الناس هنا" (المترجم)

برأس العين وجرابلس على طريق تقطعه، في أجزائه الأولى، أودية عديدة. بيد أنه يمكن، بقليل من الحظ، إنجاز الرحلة بيومين. لكن شهر كانون الأول على الأبواب والأحوال الجوية ستسوء عما قريب. فماذا ستفعل خاتون؟

تقرر خاتون، بخسة، اللجوء إلى الواغون لي. هكذا تقلني سيارة الأجرة إلى محطة قطار صغيرة غريبة حيث تصل عربة نوم زرقاء كبيرة يجرها محرك ضخم ينفث دخاناً. يطل سائق يرتدي زياً بنياً بلون الشوكولا. ترفع أمتعة المدام إلى القطار كما ترفع المدام نفسها بصعوبة من الرصيف إلى الدرج المرتفع.

يقول ماكس: «أظن أنك حكيمة. فقد بدأ المطر في الهطول».

نصيح كلانا: «أراك في حلب!» ويشرع القطار في الإقلاع! وأتبع السائق على طول الممر إلى مقصورتي التي يفتح بابها. وكان السرير جاهزاً.

ها هي ذي الحضارة من جديد. لقد انتهى التخييم. يأخذ السائق جواز سفري ويحضر لي زجاجة مياه معدنية ويقول: «سنبلغ حلب في السادسة من صباح الغد ، تصبحين على خير سيدتي.

أشعر أنني أسافر من باريس إلى الريفيرا!

إن وجود قطار واغون لي في قلب اللامكان أمر يدعو إلى الاستغراب.

حلب!

أسواق! حمام! أغسل شعري بالشامبو! أقابل بعض الأصدقاء!

يصل ماكس وماك بعد ثلاثة أيام وقد غطاهما الطين وبرفقتهما

كميات من طير الحبـاري اصطادوها في طريقهم إلى حلب، فأحييهم بكبرياء من اعتاد على رغد العيش.

كانت رحلتهم حافلة بالمغامرات. فقد رافقتهم أحوال جوية رديئة جعلتني أشعر بالرضا عن القرار الذي اتخذته.

يبـدو أن الطاهي طلب، عنـد تصفية حسابـه، أن يذكر في رسالة التوصيـة أنه سائق، فأمره ماكس، كي لا يحلـف يميناً كاذبة، أن يقود كوين ماري دورة واحدة في الفناء.

فقفز عيسى إلى مقعد السائـق وشغل السيارة وعشق التروس على وضعيـة العودة إلى الـوراء واصطدم بجدار الفناء بعنـف محطماً جزءاً منـه. وقد أشعـره رفض ماكس تسميتـه سائقاً بالجور! قبـل أن تذكر رسالـة التوصيـة، في نهاية المطاف، أن عيسى عمـل لدينا طاهياً على مدى ثلاثة أشهر كما أنه ساعدنا في الأمور المتعلقة بالسيارة!

ها نحن أولئك، من جديد في بيروت. هناك ننفصل عن ماك الذي سيقضي الشتاء في فلسطين في حين أننا سنقضيه في مصر.

الفصل الرابع

الموسم الأول في شاغر بازار

نعـود إلى بيروت مع حلـول الربيع. الشـيء الأول الذي تقع عليه أبصارنا على رصيف المرفأ هو ماك، لكنه ماك الذي تغير.

ترتسـم على وجهـه ابتسامة عريضـة! إنه سعيد برؤيتنـا بلا أدنى شـك! لم نكن، حتى تلك اللحظة، نعلم تماماً إن كان يستسيغنا بالفعل أم لا. فقـد كان يخفي مشاعره خلف قناع من الجمود المهذب. لكننا نرى بوضوح الآن أن لقاءنا، بالنسبة إليه، هو لقاء بأصدقاء. لا يمكنني أن أخبركـم كم هو دافئ! ومنذ تلـك اللحظة يزول التوتر الذي ساد، على الدوام، بيني وبين ماك. بل إنني أجرؤ على سؤاله عما إذا كان قد أمضى كل ليلة مذ رأيناه للمرة الأخيرة جالساً على بساطه ذي النقوش المربعة وهو يكتب في دفتر يومياته.

ينظر ماك بشيء من الدهشة ويقول: «بالطبع».

ننطلـق من بـيروت إلى حلب، وهناك نزور المتاجـر، كالمعتاد، من أجـل شراء احتياجاتنا. تم استئجار سائق من أجل كوين ماري– لكنه، هـذه المرة»، ليس سائقاً «اقتصادياً» ما، التقطناه من الواجهة البحرية، بل رجلاً أرمنياً طويل القامة تشي ملامحه بالقلق ومزوداً بعدد كبير من كتب التوصية التي تشهد على نزاهته وكفاءته. كان قد عمل ذات مرة مـع مجموعة مـن المهندسين الألمان. لكن نقطة ضعفـه التي تتجلى من

النظـرة الأولى هي صوته المرتفع المشـوب بنبرة عويل مزعجة. بيد أنه سيكـون، بلا ريب، إضافة كبيرة علـى المخلوق شبه البشري عبد الله. تقودنـا تحرياتنا عن أرستيـد، الذي نرغب في استمـراره معنا، إلى أنه أصبح الآن، بكل فخر، «موظفاً حكومياً». فهو يعمل سائقاً لصهريج غسيل شوارع في دير الزور!

يأتي اليـوم المشؤوم وننطلق إلى عامودا علـى دفعتين. حيث يصل حمـودة وماك علـى متن كوين ماري (التي فقـدت الآن لقبها الملكي وأصبحـت تعرف باسم مـاري الزرقاء منذ أن تلقـت طبقة من طلاء أزرق شنيـع بعضـ الشيء) إلى هناك أولاً كي يتحققـوا من أن الأمور جاهزة لاستقبالنا. أما أنا وماكس، فنسافر بأبهة كبيرة على متن القطار إلى القامشلـي حيـث نمضي اليـوم في إجراء المعامـلات الضرورية مع السلطـات العسكريـة الفرنسية. ثم نغادر القامشلـي إلى عامودا وقد بلغت الساعة الرابعة من بعد الظهر.

يتضح لـدى وصولنا أن الأمور لم تجر كمـا هو مخطط لها. هنالك جـو من الارتباك وتقاذف الاتهامات والاحتجاجات الصاخبة وتبدو الحيرة على حمودة ويكتسي وجه ماك بالرزانة.

وسرعان ما تتضح الحقائق.

فقد وجد حمودة وماك لدى وصولهما في اليوم السابق أن المنزل، الـذي كان يفترض أن يكون قد أخلي وتم تنظيفه وتبييضه بالكلس في تاريخ محدد يعود إلى أسبوع من الآن، بريء من الطلاء وقذر للغاية وما يزال يؤوي سبع عائلات أرمنية!

أنجز كل ما يمكن إنجازه في أربع وعشرين ساعة، لكن النتائج ليست مشجعة!

بيد أن حمودة، الذي أصبح الآن على دراية واسعة بالعقيدة الراسخة التي تقوم على اعتبار راحة خاتون أولوية أولى، يكرس كل طاقاته لإفراغ غرفة واحدة من الأرمن والماشية ويقوم بتبييض الجدران على عجل ويجهز الغرفة بسريرين عسكريين لي ولماكس. أما بقية المنزل فما تزال الفوضى تعمها، وأكتشف أن حمودة وماك أمضيا ليلة مرهقة.

يطمئننا حمودة بابتسامته المعهودة التي لا تقاوم أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ولحسن حظنا لم تعد الاتهامات المتبادلة، التي أصبحت تجري الآن بين العائلات الأرمنية والكاهن الذي كان المتحدث بلسانهم، تعنينا في شيء ويحثهم ماكس على الذهاب كي يتشاجروا في مكان آخر!

تغادر النسوة والأطفال والدجاجات والقطط والكلاب الفناء ببطء وهم ينوحون ويعولون ويصرخون ويصيحون ويشتمون ويصلون ويضحكون ويمووؤن ويقرقرون وينبحون كختام رائع لمسرحية أوبرا!

ثم يتبين لنا أن الجميع قد خدع الجميع! وأن الفوضى المالية الشاملة والانفعالات الغاضبة بين الأشقاء والشقيقات وزوجات الأشقاء وأبناء العم والأجداد وأجداد الأجداد أكثر تعقيداً من أن نفهمها.

لكن طاهينا (وهو طاه جديد اسمه ديمتري) يستمر، بهدوء، في قلب الفوضى، في إعداد وجبة المساء. فنتحلق حول المائدة ونتناول طعامنا بتلذذ ونمضي إلى الفراش وقد نال منا الإرهاق.

إلى الفراش- لا إلى الراحة! لم أكن يوماً ممن يكنون كرهاً شديداً للفئران- ولم يكن لفأرة أو اثنتين في غرفة النوم أن تزعجاني، بل

إنني ارتبطت، ذات مرة، بعلاقة حميمية مع متطفل عنيد كنت أناديه بحب (على الرغم من أنني لم أعرف جنسه) باسم إلسي.

لكن ليلتنا الأولى في عامودا هي تجربة لن أنساها ما حييت.

فمـا إن تطفأ المصابيح حتى تخرج الفئران أسراباً- أعتقد بحق أنها بالمئـات- من ثقوب الجدران والأرض. تجري بمرح فوق أسرتنا وتطلق أصوات صرير أثنـاء جريها. فئران فوق وجهي، فئران تعبث بشعري، فئران- فئران- ثم فئران...

أشعل شمعة ويا للهول- الجدران مغطاة بمخلوقات غريبة، شاحبة، زاحفة تشبه الصراصير! وفأر جالس عند رجل سريري يداعب شاربيه.

أشياء زاحفة رهيبة في كل مكان!

يهدئ ماكس روعي ببضع كلمات.

يقول نامي. يقول ما إن تنامي حتى تكف هذه الأشياء عن إزعاجك.

نصيحـة ممتازة في الواقع- لكن تطبيقها ليـس بالأمر السهل! علي أن أنـام أولاً- وهـو أمر يبدو مستحيـلاً مع تلك الفئـران التي تمارس التدريبـات البدنية ورياضات الميدان علـى جسدي. أو أنه ليس بالأمر الممكـن بالنسبة إلي، على الأقل. إذ يبـدو ماكس قادراً على النوم دون منغصات!

أحـاول تهدئة مخاوفي. وأنجح في النوم لبرهة قصيرة قبل أن تتسبب أقـدام تجري على وجهي في إيقاظـي. فأنير الضوء. لقد ازدادت أعداد الصراصير وهنالك عنكبوت أسود كبير يتدلى من السقف فوقي!

على هـذا المنوال تمضـي الليلة ويخجلنـي القول إننـي أصبحت، بحلول الساعـة الثانية صباحاً، في حالة هستيريـة. أقول للجميع إنني

سأغادر إلى القامشلي مع حلول الصباح كي أنتظر القطار التالي المغادر إلى حلب! ومن حلب إلى لندن مباشرة! فأنا لا أستطيع أن أتحمل هذا النوع من الحياة، ولست مرغمة على تحملها! سأعود إلى الوطن!

يتعامل ماكس مع الموقف ببراعة. إذ ينهض من السرير ويخرج كي يستدعي حمودة.

لم تمض سوى خمس دقائق حتى كانت أسرتنا قد أصبحت في الفناء. أتمدد في السرير وأتأمل لبعض الوقت في السماء الساكنة التي تنيرها النجوم. الجو لطيف وندي. أنام. ويتنفس ماكس الصعداء قبل أن ينام بدوره.

يسألني ماكس بقلق في صباح اليوم التالي: «لست عائدة إلى حلب. أليس كذلك؟»

يحمر وجهي خجلاً وأنا أتذكر نوبة الهستريا التي أصابتني. وأقول أن لا، لن أعود إلى العا لم. لكنني سأستمر، في جميع الأحوال، في النوم في الفناء!

يهدئ حمودة من روعي قائلاً إن كل شيء سيكون على ما يرام في القريب العاجل. فالثقوب في الغرفة سوف تغلق بالجص وستضاف طبقة أخرى من الكلس. وهنالك، فضلاً عن ذلك، هر في طريقه إلى المنزل، هر تم اقتراضه. وهو هر جبار– هر مهني إلى أقصى الدرجات.

أسأل ماك عن ماهية الليلة التي أمضاها عند وصوله مع حمودة، وهل كانت هنالك أشياء تمشي عليه طوال الوقت؟

فيجيبني ماك بهدوئه المعتاد: «أظن ذلك. لكنني كنت نائماً».

كم هو رائع ماك!

يصل هرنا في وقت العشاء. لن أنسى ذلك الهر ما حييت! إنه، كما قال حمودة تماماً، هر على درجة عالية من الاحتراف. إنه يعلم تماماً طبيعة المهمة التي تم تكليفه بها وهو يقوم بها بأسلوب تخصصي بحق.

إذ يتربص خلف صندوق فيما نتناول العشاء ويرمقنا بنفاذ صبر كلما تكلمنا أو تحركنا أو أحدثنا ضوضاء وكأنه يقول:

«أرجوكم أن تهدؤوا. كيف لي أن أقوم بعملي دون تعاونكم؟»

تعابير وجهه على درجة من الصرامة تجعلنا نمتثل في الحال، فيتحول كلامنا إلى همس ونتناول طعامنا بأقل قدر ممكن من صلصلة الأطباق والأكواب.

يخرج فأر من أحد الثقوب، في خمس مناسبات مختلفة، ويقطع الغرفة جرياً فيندفع الهر كالنابض في المرات الخمس وتكون النتيجة فورية. فلا مبارزة على طريقة الوسترن ولا تلاعب بالضحية، بل يكتفي الهر، ببساطة، بقضم رأس الفأر وطحنه ثم يزدرد ما بقي من جسد الفأر! أية طريقة مروعة وكاملة في إنجاز العمل!

يلازمنا الهر خمسة أيام لم نعد نرى بعدها أي فأر. ثم يغادرنا– ولا تعود الفئران إلى الظهور من جديد. الواقع أنني لم أعرف قبل تلك المرة، و لم أعرف، بعدها، هراً على هذا القدر من المهنية. لم يكن يبدي أي اهتمام بنا، و لم يطلب حليباً أو شيئاً من طعامنا. كان بارداً وعلمياً وموضوعياً. هر كامل بالفعل!

تمت الآن تسوية كافة المسائل. فقد تم تبييض الجدران وطليت إطارات النوافذ كما الباب وتمركز في الفناء نجار وأبناؤه الأربعة كي يصنعوا المفروشات التي نطلبها.

يقـول ماكس إن الطاولات تأتي أولاً... طاولات! لكن لا يمكن أن يكون لدى المرء عدد كبير من الطاولات.

أتقدم بطلب للحصول على خزانة أدراج كما يسمح لي ماكس بكل لطف باقتناء خزانة ملابس مزودة بمشاجب.

ثـم يعـود النجـارون إلى صناعة المزيد مـن الطـاولات. طاولات نستطيـع أن نضع عليهـا خزفياتنا، وطاولة رسم مـن أجل ماك وطاولة لتناول الطعام وأخرى لآلتي الكاتبة...

يرسـم ماك علاقة مناشف ينكب النجـارون على صنعها ويحضرها كبيرهـم إلى غرفتي باعتزاز لدى إنجازها. تبـدو العلاّقة مختلفة عن تلك التـي رسمها ماك. ثم أكتشف السبب حالما يضعهـا النجار أرضاً. إنها مـزودة بأرجل كبيرة، أرجل منحنية كبـيرة بحق تمتد إلى الخارج ويتعثر بها كل من يمر بالقرب منها.

أطلب من ماكس أن يسأله لماذا صنع هذه الأرجل و لم يلتزم بالتصميم الذي زود به؟

يرمقنـا الرجل المسن بوقار ويقول: «لقـد صنعتها على هذا الشكل كـي تكون جميلة. لقد أردت أن تكون هـذه القطعة التي صنعتها شيئاً جميلاً!».

أي شـيء يمكـن للمرء قولـه أمام صرخـة الفنان هذه؟ فأهـز رأسي وأكتفي بالتعثر بهذه الأرجل المخيفة حتى نهاية الموسم!

وفي الخارج، في ركن قصـي من الفناء، بناؤون يصنعون مغسلة من الآجر الطيني من أجلي.

أسأل ماك في ذلك المساء على العشاء عن العمل الهندسي الأول له.

فيجيب: «هذه هي وظيفتي العملية الأولى. مغسلتك!».

ثم يتنهد بحزن وأحس بالكثير من العطف تجاهه. إذ أخشى أن الأمر لن يبدو، في عيني ماك، حسناً، وهو يكتبه في دفتر يومياته.

إذ لا ينبغي للتعبير الأول عن الأحلام الناشئة لمعماري شاب أن يتجسد في مغسلة من الآجر الطيني يصنعها من أجل زوجة رئيسه!

يزورنا اليوم النقيب لو بواتو مع راهبتين فرنسيتين لاحتساء الشاي. فنستقبلهم في القرية ونعود بهم إلى البيت حيث ينتصب باعتزاز أمام الباب الإنجاز الأخير للنجارين: مقعد لمغسلتي!

أصبح البيت منظماً الآن. فالغرفة التي نمنا فيها في الليلة الأولى والتي ما تزال الصراصير تمرح فيها ليلاً أصبحت مكتباً للرسم حيث يستطيع ماك أن يعمل بهدوء بعيداً عن التواصل مع الناس. وهو، في جميع الأحوال، يتمتع برباطة جأش كبيرة أمام الصراصير.

وبجوار غرفة الرسم تلك، تقع غرفة الطعام وبجوارها غرفة الأنتيكات التي سيتم فيها تخزين مكتشفاتنا وترميم الفخاريات وتصنيف الأغراض وتسميتها. (وهذه الغرفة مليئة بالطاولات!). وهنالك غرفة صغيرة تستخدم كمكتب وكغرفة للجلوس أضع فيها آلتي الكاتبة كما تضم الكراسي القابلة للطي. أما ما كان بيتاً للكاهن، فيضم ثلاث غرف نوم، تخلو من الفئران (بفضل هرنا) ومن الصراصير (بفضل الكلس الكثيف)، لكنها لا تخلو من البراغيث للأسف!

والواقع أننا سوف نعاني الأمرين من البراغيث. إذ يتميز البرغوث بحيوية كبيرة يبدو معها وكأنه يتمتع بحماية عجائبية. فهو يزدهر على المبيدات الحشرية بمختلف أنواعها. بل إن من شأن مسح السرير

بحمض الكربوليك أن يحض البراغيث على إظهار قدر أكبر من اللياقة البدنية. أقول لماك إن الأمر لا يتعلق بلدغات البراغيث بقدر ما يتعلق بطاقتها التي لا تنفذ ومباريات الوثب التي لا تنتهي والتي من شأنها إخراج المرء عن طوره. فكيف يمكن للمرء أن يخلد للنوم والبراغيث حوله تمارس رياضاتها الليلية حول خصره؟

لكن معاناة ماكس من البراغيث أكبر من معاناتي. فقد عثرت ذات يوم على مائة وسبعة براغيث في منامته وقتلتها! وهو يقول إن البراغيث من شأنها استنفاذه. يبدو أن نصيبي من البراغيث يقتصر على الفائضة منها- أي تلك التي تعجز عن اتخاذ ماكس مسكناً لها. أما براغيثي، فهي براغيث من مرتبة دنيا، براغيث من الدرجة الثانية غير المؤهلة للقيام بوثبات عالية!

أما ماك، فيبدو أن البراغيث لم تغزه وهو أمر فيه الكثير من الجور. يبدو أنها لا تجد فيه مضمار رياضة مغرياً!

تستقر الحياة الآن على روتين ثابت. ينطلق ماكس إلى الأكمة مع فجر كل يوم وأرافقه في معظم الأيام على الرغم من أنني ألازم البيت أحياناً للقيام بأمور أخرى كترميم الخزفيات وسواها من اللقى وتسميتها بالإضافة إلى الاهتمام بشؤوني الخاصة، بين الحين والآخر، من خلال العمل على الآلة الكاتبة. أما ماك، فيبقى في البيت يومين في الأسبوع للعمل في مكتب الرسم.

يطول النهار في الأيام التي أذهب فيها إلى الأكمة على الرغم من أنه لا يبدو بهذا الطول عندما يكون الجو جميلاً. وعلى الرغم من أن الطقس يكون بارداً قبل شروق الشمس إلا أنه يصبح جميلاً بعد ذلك. الأزهار تنمو في كل مكان- ولاسيما شقائق النعمان الصغيرة

ذات اللـون الأحمـر، كما كنـت أدعوها خطأ، والصـواب على ما أعتقد أنها أزهار الحوذان.

أحضـر ماكسـ إلى التـل مجموعة صغيرة مـن العمال مـن مدينة جرابلسـ، مسقـط رأس حمـودة. إذ ينضـم نجلا حمـودة إلينا بعد انتهائهمـا مـن العمل في أور. يتمتـع ابنه الأكبر يحيـى بقامة فارعة وتكشـيرة عريضة مرحة وهو أشبه بكلـب ودود. أما الابن الأصغر عـلاوي، فيتميز بمظهـر حسن وربما يكون الأكـثر ذكاء بين الاثنين. لكنه يتمتع بمزاج حاد ويتشاجر مع الآخرين أحياناً. وهنالك كذلك ابـن عم أكـبر اسمه عبد السـلام وهو رئيس العمـال كذلك. هكذا يطلق حمودة صافرة البداية ويقفل عائداً إلى البيت.

وفي اللحظـة التي يطلـق غرباء آتون من جرابلسـ شرارة العمل، يتوافد العمال من مختلف أرجـاء المنطقة كي يسجلوا أسماءهم. كان أبنـاء قرية الشيخ قد شرعـوا في العمل بالفعل عندمـا يبدأ رجال من قرى مجاورة في الوصول فـرادى وجماعات. هكذا يجتمع الأكراد ورجال قادمون من الأراضي التركية وبعض الأرمن وبضعة أيزيديين (يطلـق عليهـم كذلـك اسم عبـدة الشيطـان) وهـم رجـال دمثون يتمتعون بمظهر سوداوي ومنذورون على الدوام كي يكونوا ضحايا لاضطهاد الغير.

نظـام العمل بسيـط للغاية. إذ ينتظم الرجـال في مجموعات تضم رجالاً مـن ذوي الخبرة السابقة في التنقيب مهما يكن مقدارها ويتم اختيـار رجـال يبدو عليهـم الـذكاء والقدرة على التعلـم السريع كي يكونوا حفارين. ويتقاضى الرجال والفتيان والأطفال الأجر نفسه. وفضـلاً عن ذلك، وقبل كل شيء، هنالك ما يدعى البقشيش (العزيز

علـى قلوب الشرقيين). وهو مبلغ إضافي صغير من المال يتقاضاه كل من يعثر على غرض.

وتعتـبر فرصـة الحفـار في كل مجموعة في العثور علـى غرض هي الأكبر. يبدأ عمل الحفـار في اللحظة التي يكتمل فيها رسم مربع على الأرض يحدد نطاق عمله. وبعد الحفار يأتي الدور على عامل المجرفة الـذي يقوم بنقل التراب الناتج عن عملية الحفـر إلى سلال ينقلها ثلاثة أو أربعـة من «فتية السلال» بعيداً إلى مكان محدد من قبل كي يفرغوها فيـه. وبعد إفراغ السلة، يقوم الفتـى بالتنقيب في التراب بحثاً عن أي غرضـ قد يكون فات القزمجي وعامـل المجرفة ملاحظته. ولكونهم، في الغالـب الأعـم، صبيـة صغـار يتمتعون بنظـر ثاقب، فـإن فرص عثورهـم على تعويذة أو خـرزة صغيرة يتقاضون عنهـا مكافأة مجزية ليسـت بالنادرة. حيـث يربطون ما يعثرون عليه بزوايـا أرديتهم الرثة كي يقدموها في نهاية اليوم. ويحدث بين الفينة والأخرى أن يحضروا إلى ماكـس غرضاً يقرر مصيره المحتوم رد مختصـر مفاده: «احتفظ به لنفسـك» أو «شيله»- أي خذه بعيداً وهـو أمر ينطبق على الأغراض الصغيرة كالتعويذات والشظايا الفخارية والخرز، الخ... وعند العثور على مجموعة من القدور الفخارية أو على عظام مدفونة أو آثار جدران مـن الطوب الطينـي، يقوم رئيس العمـال المكلـف باستدعاء ماكس وتتخـذ أعمال الحفـر اللاحقة طابع الحرص. إذ يقـوم ماكس أو ماك بكشـط التراب المحيط بمجموعة القدور الفخارية أو الخناجر أو مهما يكن الغرض الذي تم العثور عليه بحذر ويزيل التراب من حوله وينفخ الغبار العالق عليه. ثم يتـم تصوير اللقية في مكانها قبل إزالتها ويدون وصف مختصر لها في مفكرة.

ويعتبر رسم حدود المباني لدى ظهورها مهمة دقيقة تتطلب وجود متخصصين. إذ يحمل رئيس العمال المجرفة بنفسه ويتبع آثار الطوب بعناية على الرغم من أنه يمكن لأي عامل ذكي، وإن يكن مستجداً، أن يتعلم فن تحديد الجدران بسرعة ويمكن للمرء سماعه بعد وقت قصير يصيح بثقة وهو يحفر: «هادا لِبن» (أي إنه طوب).

وعمالنا الأرمن هم الأكثر ذكاء بكافة المعايير. لكن نقطة ضعفهم تكمن في سلوكهم الاستفزازي، فهم ينجحون باستمرار في إثارة حفيظة الأكراد والعرب. لكن الشجارات، بمطلق الأحوال، لا تتوقف. فأمزجة كافة العمال لدينا حامية وهم يصطحبون معهم أدوات التعبير عن أنفسهم من مُدى كبيرة وهراوات ونوع من الدبابيس أو النبوت! وسرعان ما تشق الرؤوس ويشتبك أشخاص غاضبون في صراعات عنيفة قبل أن يتم فك الاشتباك بينهم، في حين يصرخ ماكس بصوت مرتفع مطالباً بالالتزام بقوانين التنقيب. «سيتم تغريم كل من تشاجروا! حلوا مشاكلكم خارج ساعات العمل. أما أثناء العمل، فلا شجار. أنا في العمل والدكم، وما يقوله والدكم يجب أن ينفذ! لا أريد أن أسمع بأية أسباب للنزاع وإلا سيكون لدي تصرف آخر! كل ما يتطلبه الأمر هو إذا تشاجر اثنان أقوم بتغريمهما على قدم المساواة».

يصغي الرجال ويهزون رؤوسهم. «هذا صحيح. إنه والدنا! يجب أن لا يكون هناك أي شجار كي لا يكسر أي غرض قيم».

بيد أن الشجارات سرعان ما تندلع من جديد. أما من يصر على القتال فيوقف عن العمل.

لكن ذلك لا يعني، والحق يقال، طرداً نهائياً. إذ يتم إيقاف الرجل عن العمل يوماً أو اثنين، بل إنه يعود إلى الظهور من جديد، بعد يوم

تقاضي الأجور، حتـى في الحالات التي يطرد فيها نهائياً، طالباً إعادة توظيفه لجولة جديدة.

حددنا بالخبرة الفاصـل الزمني بين يومي قبض أجور، بعشرة أيام. فهنالـك رجال يأتون من قرى بعيدة مصطحبين طعامهم معهم. وهذا الطعـام (المكون عادة من كيس من الدقيـق وبضع حبات من البصل) ينفذ عادة بعد عشرة أيام فيستأذن العامل في العودة إلى بيته لأن طعامه يكـون قد نفـذ. لكن نقطة الضعـف الكبيرة التـي اكتشفناها في هذا الأسلـوب في دفـع الأجور تكمن في أن الرجـال لا يعملون بانتظام. إذ مـا إن يتقاضى العامـل أجره حتى يغادر العمل قائـلاً: «لدي المال الآن. فلمـاذا أستمر في العمل؟ فلأعـد إلى بيتي». لكن المال ينفذ بين ليلة وضحاها ويعود الرجـل طالباً توظيفه من جديد. وهو أمر مزعج من وجهة نظرنا لأن المجموعة التـي يألف أعضاؤها العمل معاً تتمتع من الكفاءة بما يفوق أية مجموعة حديثة التشكيل.

أمـا الفرنسيون، فيتعاملون مع هذه العـادة بأسلوبهم الخاص وهو أسلـوب تسبب لهم بالكثير من المشاكل أثناء مد السكة الحديدية. فقد كانوا يمسكون على عمالهم نصف أجورهم على شكل ديون متأخرة. وهو أمر ضمن لهم استمرارية العمل. والواقع أن الملازم أوصى ماكس باتباع هـذا الأسلوب، لكننا نقرر، بعد المشاورات، أن لا نقوم بذلك لأن ماكس رأى في الأمـر ظلمـاً شديـداً. فقد كد الرجـال من أجل أجورهم وهـم يستحقون أن يحصلوا عليهـا كاملة. هكذا كان علينا أن نتدبـر أمورنا مع مسألة ترك العمل والعـودة إليه، مع ما يعنيه ذلك مـن عمل إضافي على جـدول الأجور الذي ينبغـي مراجعته وتعديله باستمرار.

نصل إلى الأكمة في السادسة والنصف صباحاً ويتم الإعلان عن استراحة الفطور في الثامنة والنصف. نتناول بيضاً مسلوقاً وأرغفة خبز عربي ويقدم لنا ميشيل (السائق) الشاي الساخن في أكواب مطلية بالمينا فنشربه ونحن جالسون على قمة التل، ودفء الشمس يبعث على السرور وظلال الصباح تضفي على المنظر جمالاً لا يصدق بزرقة الهضاب التركية إلى الشمال وأزهار الربيع القرمزية والصفراء التي تحيط بنا من مختلف الاتجاهات. الجو عذب للغاية. إنها واحدة من اللحظات التي يحلو للمرء أن يعيشها. رؤساء العمال يكشرون بسعادة ويقترب منا صبية صغار يقودون أبقاراً ويتأملوننا بحياء. يرتدون أسمالاً رثة بما لا يصدق وأسنانهم تومض بلون أبيض ناصع عندما يتسمون. أقول لنفسي كم يبدون سعداء وأية حياة جميلة يعيشون وهم يطوفون حول التلال، كما في الحكايات القديمة، ويرعون مواشيهم ويجلسون في بعض الأحيان ويغنون.

في هذا الوقت من اليوم، يحتشد من يدعون بالأطفال المحظوظين في أوروبا في قاعات الدراسة المزدحمة وقد حرموا من الهواء النقي وجلسوا إلى مقاعدهم يصارعون الحروف الهجائية وينصتون إلى المعلم ويكتبون في دفاترهم بأصابع نال منها الألم. أتساءل ما إذا كنا سنقول، بعد مائة عام من الآن، بأصوات مكلومة: «كانوا، في تلك الأيام، يرغمون الأطفال المساكين على ارتياد المدرسة والجلوس لساعات إلى مقاعد في أبنية مغلقة! كم هو مؤلم التفكير في الأمر! يا لأولئك الأطفال المساكين!».

أقفل عائدة من تلك الرؤيا المستقبلية وأبتسم لفتاة صغيرة على جبهتها وشم وأعطيها بيضة مسلوقة.

فتهـز رأسها على الفور رفضاً وتهرع بعيـداً عني وأحس بنفسي أنني ارتكبت انتهاكاً كبيراً للأعراف.

يطلـق رؤساء العمال صافراتهم ويستأنـف العمل من جديد. أما أنـا، فأتجـول في التل على غير هـدي وأتوقف بـين الفينة والأخرى عنـد مواضع متنوعة مـن الورشة. فالمرء يأمل علـى الدوام أن يكون حاضـراً في اللحظة التي يتم العثـور فيها على غرض مثير. لكن ذلك لا يحـدث أبداً بالطبع! أتكئ لعشرين دقيقة على عكازي وأنا أراقب محمد حسن وزمرته والأمل يحدوني، ثم أنتقل إلى حيث يعمل عيسى داوود كـي أعلم، في وقـت لاحق من اليوم، أنـه تم العثور على قدر فخـاري جميل ذي حافة مثلمة في اللحظـة التي تحركت فيها وكان ذلك اكتشاف اليوم.

لـدي كذلك عمل آخر وهو أن أبقـي عيني مفتوحتين على صبية السـلال لأن البعض من أكثرهـم كسلاً ينقلون سلالهـم إلى المكب ولا يعـودون في الحـال، بل يجلسون في الشمس ويعبثون بالتراب الموجود في سلالهم ويمضون، على هذا النحو، ربع ساعة من الراحة! وهنالك كذلك من يتمددون في المكب وينالون إغفاءة لذيذة وهؤلاء هم الأكثر استحقاقاً للتوبيخ!

ومـع حلـول نهايـة الأسبـوع، أقـدم تقريـري بوصفـي كبيرة الجواسيس.

«ذلـك الصبي الصغير، ذاك الذي يضـع غطاء رأس أصفر، عامل مـن الطراز الممتاز. فهـو لا يتوقف ولو لدقيقة. علي أن أفصل صالح حسن لأنه ينـام باستمرار في المكب، وعبـد العزيز يتهرب قليلاً من العمل وكذلك ذاك الذي يرتدي سترة زرقاء رثة».

يوافقني ماكس على أن صالح حسن يستحق أن يفصل، لكنه يقول إن عبد العزيز يتمتع بنظر حاد يستحيل معه أن يفوته شيء.

يدب في صفوف العمال نشاط زائف في كل مرة يظهر ماكس في الأرجاء ويبدأ الجميع في الصياح بكلمة «يا الله!» ويصرخون وينشدون ويرقصون وتتسارع خطى صبية السلال إلى المكب ومنه وهم يلوحون بسلالهم الفارغة ويصرخون ويضحكون. لكن النشاط المحموم يخمد من جديد وتصبح وتيرة العمل أبطأ من ذي قبل.

يستمر رؤساء العمال في إطلاق صيحات التشجيع: «يا الله!» ويستخدمون صيغة من التهكم تفقد معناها بسرعة مع التكرار.

«هل أنتم نسوة مسنات كما توحي بذلك حركتكم؟ أنتم لستم رجالاً بالتأكيد. يا للبطء! أنتم تتحركون كأبقار موهنة!»، الخ، الخ...

أمضي بعيداً عن مكان العمل إلى الناحية الأخرى من الأكمة وأجلس هناك، قبالة خط الهضاب الأزرق وسط الزهور وأذهب في إغماءة لذيذة. تقترب مني مجموعة من النسوة آتيات من بعيد. ينبئني مرحهن وألوان ملابسهن بأنهن كرديات. إنهن مشغولات باقتلاع الجذور وقطف الأوراق.

يدنون مني على نحو مباشر ويجلسن حولي في حلقة.

تتمتع النسوة الكرديات بالجمال وروح المرح. تتميز أثوابهن بالألوان الفاقعة ويضعن على رؤوسهن عمائم برتقالية وتزدان أثوابهن بالأخضر والأرجواني والأصفر. رؤوسهن منتصبة فوق أكتافهن باستمرار وهن يتمتعن بطول القامة وبوقفة تميل إلى الخلف بما يجعلهن يبدون شامخات. يتمتعن بوجوه برونزية ملامحها منتظمة ووجنات حمراء وعيون زرقاء عادة.

أما الرجـال الأكراد، فيشبهون بصورة لافتـة، بوجوههم الحمراء القرميدية وشواربهم البنية الكثة وعيونهم الزرقاء ومظهرهم العسكري الصارم، صـورة اللورد كيتشنر التي كانـت معلقة في حجرتي عندما كنت طفلة!

القرى الكردية والعربية في هذا الجزء من العالم متماثلة عدداً. وهم يعيشـون الحياة نفسهـا وينتمون إلى الدين نفسـه، لكن المرء لا يمكن، ولـو لمرة، أن يخطئ في تمييز المرأة الكرديـة عن المرأة العربية. فالنسوة العربيـات متواضعات على الدوام ومنكمشات على ذواتهن ويشحن بوجوههـن بعيـداً عندما تتحدث إليهن. وإن نظـرن إليك، فعن بعد، وإن ابتسمـن، فبخفر ثم يلتفتن بعيداً. ملابسهـن المتواضعة سوداء أو ذات ألـوان قاتمة. ولا يمكن لامرأة عربية أن تتقدم من رجل وتخاطبه! أما المرأة الكردية، فلا ريب أنها كالرجل تماماً، إن لم تكن أفضل! فهن يغـادرن بيوتهن ويمازحن أي رجل ويتمتعن بود كبير. ولا تتردد المرأة الكردية في مخاشنة زوجها الأمر الذي يصدم بعض عمالنا القادمين من جرابلس الذين لا يعرفون الأكراد جيداً.

يقول أحدهم باستغـراب: « لم يخطر لي، أبداً، أنني سأسمع امرأة محترمـة تخاطـب زوجها بهـذه الطريقـة! لم أعرف حقاً أيـن أذهب بوجهي».

نسوتـي الكرديـات يدرسنني هذا الصباح باهتمـام كبير ويتبادلن التعليقـات السوقيـة. إنهـن ودودات للغايـة ويومئـن لي ويضحكن ويطرحن الأسئلة ويتنهدن ويهززن رؤوسهن وهن ينقرن شفاههن.

لا بـد أنهـن يقلن: « كم هـو مؤسف أننـا نعجز عـن التفاهم!». يمسكـن ثنية مـن تنورتي ويفحصنهـا باهتمام ثم يقرصـن كم سترتي

ويشرن إلى التل. هل أنا امرأة الخواجة؟ أومئ بالإيجاب. فيطرحن المزيد من الأسئلة ثم يضحكن وقد أدركن عجزهن عن فهم إجاباتي. لا ريب في كونهن يردن أن يعلمن كل شيء عن أطفالي وعن المرات التي أجهضت فيها!

يحاولن أن يشرحن لي ما الذي يفعلنه بهذه الأعشاب والنباتات التي يجمعنها. آه، لكنهن عبثاً يشرحن!

تنطلق دفعة أخرى من الضحك وينهضن مبتسمات ويومئن لي ثم يرحلن وهن يتكلمن ويضحكن. إنهن كباقة من الأزهار الملونة الجميلة...

يعشن في أكواخ من الطين فيها بضعة قدور طهي قد تكون كل ما يملكن، بيد أن مرحهن وضحكاتهن تتميز بالعفوية. ويجدن الحياة جميلة بنكهتها الرابلية. هن جميلات ومفعمات بالحيوية والفرح.

تمر فتاتي العربية الصغيرة وهي تسوق بقرة. تبتسم لي بخفر ثم تشيح بنظرها بسرعة.

أسمع رئيس العمال يصفر من بعيد. إنها الثانية عشرة والنصف وقد حانت ساعة الغداء.

أقفل عائدة إلى حيث يكون ماكس وماك في انتظاري. يخرج ميشيل الغداء الذي أعده ديمتري والمكون من شرائح من لحم الضأن البارد والمزيد من البيض المسلوق وأرغفة من الخبز العربي والجبن. يتناول ماكس وماك الجبن المحلي المصنوع من حليب الماعز وهو نوع من الجبن يتمتع بنكهة قوية ولونه رمادي فاتح وملمسه خشن بعض الشيء. أما أنا، فأفضل تشكيلة أنيقة من جبن الغروبير مغلفة بورق مفضض ومحفوظة في صندوق دائري من الورق المقوى يرمقها ماكس

بنظـرة ازدراء. وبعد الغداء نتناول البرتقال والشاي الحار في الأكواب المطلية بالمينا.

نذهـب، بعد الغـداء، من أجل إلقاء نظرة علـى الموقع المقترح لبناء البيت.

يقع المـكان خلف القرية وبيـت الشيخ ويبعد عنهمـا حوالي مائة يـاردة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من الأكمة. مخطط البيت مرسوم على الأرض بالمقياس الكامل، فأسأل ماك بارتياب عما إذا لم تكن الغرف صغيرة للغاية. فينظر إلي باسماً ويفسر الأمر بأنه الانطباع الذي تتسبب به المساحات المفتوحة المحيطة بالمـكان. سيضم البيت، بعد بنائه، قبة مركزية وغرفة معيشة كبـيرة وغرفة للعمل تقعان في الوسط بالإضافة إلى غرفتـين أخريين من كل جانب. في حين سيكون المكان المخصص للمطبخ مفصـولاً. كما يمكن، في المستقبـل، إضافة غرف أخرى إلى البناء الأساسي إن طالت عملية التنقيب وظهرت الحاجة إليها.

نبتعـد قليلاً عـن موقع البيت كـي نتحرى الأماكن التـي يمكن أن نحفـر بئراً فيها بحيث لا نعتمد على بئـر الشيخ. فيختار ماكس بقعة محددة ويقفل عائداً إلى العمل.

أما أنا فأبقى وأراقب ماك وهو يصدر الأوامر بالإشارات وإيماءات الرأس والصفير وبكل ما يمكن للمرء تخيله باستثناء الكلمات المحكية!

وفي الساعـة الرابعـة تقريباً، يبدأ ماكس جولتـه على المجموعات مـن أجل توزيـع البقشيش. يقـف الرجال في رتل، عنـد وصوله إلى أيـة مجموعة، ويعرضون حصيلة اليوم من اللقـى. يقوم أحد أمهر فتية السلال بتنظيف مقتنياته بالبصاق عليها!

يفتح ماكس دفتره الكبير ويبدأ العمل.

«قزمجي؟» (عامل حفر؟)

«حسن محمد».

فماذا في حوزة حسن محمد؟ نصف قدر فخاري مكسور والعديد من الكسر الفخارية ومدية مصنوعة من العظام وقطعة أو اثنتان من الخردة النحاسية.

يقلب ماكس المجموعة ويرمي باستهتار ما يعتبره نفايات، وهي عادة الأشياء التي يعول الحفارون عليها كثيراً، ويضع الأداة المصنوعة من العظام في واحد من الصناديق الصغيرة التي يحملها ميشيل وقطعة من الخرز في صندوق آخر. وتذهب الكسر الفخارية إلى سلة كبيرة يحملها صبي صغير.

ثم يعلن ماكس قيمة البقشيش: بنسان ونصف أو ربما أربعة بنسات ويدون الرقم في الدفتر. يردد حسن محمد الرقم ويخزنه في ذاكرته الفسيحة.

تكتنف نهاية الأسبوع عمليات حسابية رهيبة. إذ تضاف مقادير المكافآت اليومية التي نالها كل عامل إلى أجره اليومي كي يتم حساب المبلغ المستحق. والرجل، بدوره، يعرف المبلغ الذي يجب أن يتقاضاه بدقة! فيقول أحياناً: «هذا لا يكفي- هنالك بنسان آخران» أو يقول، وهذا يحدث كثيراً: «لقد أعطيتني أكثر مما ينبغي- فاستحقاقي أقل من ذلك بأربعة بنسات». ونادراً ما يكونون على خطأ. كما تقع بعض الأخطاء العرضية الناتجة عن تشابه الأسماء. إذ غالباً ما تجد ثلاثة رجال أو أربعة يحملون اسم داوود محمد. وفي هذه الحالة يتطلب التمييز بينهم اسماً إضافياً كأن تقول داوود محمد ابراهيم أو داوود محمد سليمان.

ينتقل ماكس إلى الرجلِ التالي.

«اسمك؟»

«أحمد محمد».

ليس في جعبة أحمد محمد الكثير- بل إنه ليس في حوزته أي شيء من الأشياء التي نسعى إليها، لكننا يجب أن نقدم له حافزاً مهما يكن صغيراً. هكذا يختار ماكس بعض الشظايا الفخارية ويرميها في السلة ويسجل في حسابه نصف بنس.

ثم يأتي الدور على فتية السلال. يحمل ابراهيم داوود غرضاً مظهره مثير للاهتمام قبل أن نكتشف أنه ليس، للأسف، سوى أنبوب يحمل نقوشاً عربية. ثم يصل عبد القهار الصغير ويقدم بشيء من التردد بعض حبات الخرز الصغيرة وغرضاً آخر يختطفه ماكس من يده باستحسان. إنه ختم أسطواني سليم تماماً ويعود إلى حقبة قديمة. إنه اكتشاف طيب بحق. يسجل في حساب الصغير عبد القهار خمسة فرنكات. وتنطلق تمتمات الدهشة.

لا شك في أن عدم اليقين الذي يكتنف هذا العمل هو مصدر جاذبيته الأول، بالنسبة إلى العمال، الذين هم مقامرون بطبيعتهم. بل إن مقدار حسن الطالع الذي يرافق مجموعات بعينها يبعث على الذهول. إذ يقول ماكس أحياناً عند افتتاح جبهة عمل جديدة: «سوف أنقل ابراهيم وزمرته كي يعملوا عند ذلك الجدار الخارجي. لقد عثروا على الكثير مؤخراً. في حين لم يحالف الحظ ريني جورج المسكين في الآونة الأخيرة. سوف أضعه في مكان جيد».

بيد أنه يتم العثور، بصورة عصية على التصديق، في الرقعة التي يعمل فيها ابراهيم الواقعة في المنطقة الأكثر فقراً في المدينة، على كومة

من الأقـراط الذهبية في قدر فخاري مدفون- قـد تكون بائنة إحدى بنـات تلك الأيام البائـدة- ويكون البقشيش مـن نصيب ابراهيم في حـين لا يعـثر ريني جورج، الـذي يعمل في مقبرة واعـدة يفترض أن تكون حافلة باللقى، سوى على بعض الأشياء المتفرقة التي لا قيمة لها.

يعـود الرجال الذين فـازوا بالبقشيشـ إلى العمل فـرادى وينتقل ماكس إلى الزمرة التالية.

الوقـت الآن قبل المغيب بنصف ساعـة. تنطلق الصافرات ويصرخ الجميع ويرمون السلال الفارغة في الهواء ويلتقطونها وينزلون الأكمة عدواً وهم يصيحون ويضحكون.

ينتهي يوم عمل آخر. يذهب العمال القادمون من قرى لا تبعد أكثر من ميلين أو ثلاثـة إلى بيوتهم سيراً على الأقدام. ويتم إحضار حصيلة اليـوم من المكتشفات في سلالها وصناديقهـا من أعلى التل حيث يتم توضيبها بعناية وتنقل إلى كوين ماري. يتسلق بضعة رجال تقع قراهم علـى طريقنا إلى سطح عربـة النقل ونقفل عائدين إلى البيت. ها هو ذا يوم آخر قد انتهى.

يتبـين لنا، بمصادفة عجيبـة، أن البئر الذي بدأنا بحفره يقع تماماً في المكان الذي يضم بئراً تم حفره في عصور قديمة. ويكون لهذه المصادفة مفعـول السحر. إذ لا تكاد تمضي بضعة أيام، حتى يصل خمسة سادة ملتحين مظهرهم مهيب وينتظرون نزول ماكس من الأكمة.

لقـد جـاؤوا، كما يقولون، من قـرى تبعد أميـالاً عديدة وهم في حاجـة إلى المزيد من المـاء. والخواجة يعرف الأماكن التـي تضم آباراً مخفيـة، تلك التي حفرهـا الرومان. فلـو أنه يدلهم علـى تلك المواقع سيكونون مدينين له إلى الأبد.

يخبرهــم ماكس أن اختياره الموقع الذي ضم بئراً قديماً كان بمحض حسن الطالع.

يبتسم السادة المهيبون بتهذيب لكن من غير تصديق.

«أنت تتمتع بحكمة عظيمة يا خواجة، وهذا أمر معروف. وأسرار العصور السالفة بالنسبة إليك كتاب مفتوح. مواقع المدن، مواقع الآبار وكل تلك الأشيــاء تعرفها تماماً. لذلك، أشر علينا بالأماكن التي يجب أن نحفر فيها وسنقدم الهدايا».

لا تفيد احتجاجات ماكس في شيء، بل إنهم ينظرون إليه كما لو أنه ساحر يحتفظ بأسراره لنفسه ويتمتمون إنه يعرف لكنه لن يقول.

يقول ماكس بشيء مــن الكآبة: «أتمنى لو أننا لم نحفر ذلك البئر الروماني اللعين. إنه سيتسبب لي بمتاعب لا نهاية لها».

تظهــر التعقيدات عندما يحــين موعد تسديد الأجــور. فالعملة الرسمية في البلاد هي الفرنك الفرنسي. لكن الليرة المجيدية التركية كانت قيد التداول لفترات طويلة ولذلك لا يقبل السكان المحافظون بغيرها بديلاً. والواقع أن البازارات تتعامل بالليرة المجيدية على الرغم مــن أن المصارف لا تقبلها. لكن رجالنــا يرفضون بعناد أن يتقاضوا أجورهم بأية عملة باستثناء المجيدية.

ولذلــك، نرسل ميشيل إلى البــازارات بالمال الــذي سحبناه من المصرف بالعملة الرسمية، كــي يستبدل بها العملة غير الشرعية التي هي العملة النافذة محلياً.

والمجيدية هي نقد معدني كبير وثقيل الوزن. يسير ميشيل مترنحاً وهو يحمل صينيــات وأكياساً مليئة بالليــرات المجيدية! ويسفحها

علـى الطاولة. هذه القطـع المعدنية قذرة للغاية وتفـوح منها رائحة الثوم.

نمضـي الأمسيـات الكابوسية التي تسبق يـوم تسديد الأجور في إحصاء المجيديات ورائحتها تكاد تخنقنا!

ميشيـل رجل لا يقدر بثمـن في العديد من المجـالات. فهو نزيه وحريصـ ومهووسـ بالدقة. وعلى الرغـم من أنه لا يجيـد القراءة والكتابة، إلا أنه يستطيع إجراء أكثر الحسابات تعقيداً بطريقة ذهنية. وهــو يعود من السوق عادة محملاً بلائحة طويلة من المشتريات تصل أحياناً إلى ثلاثين بنداً يقوم بسرد أثمانها بدقة ويعيد المبلغ المتبقي دون زيادة أو نقصان. بل إنه لم يرتكب خطأ محاسبياً يوماً.

لكنه، مــن ناحية أخـرى، مستبـد إلى أقصى الحـدود ويتشاجر باستمــرار مع المحمديين وهو عنيد، كذلك، ويده ثقيلة على الآلات لسوء الحظ.

فـتراه يقــول «فرقع!» وقد لمعــت عيناه، ثم نسمــع، على الفور، صوت قرقعة مشؤومة.

لكن نزعته إلى التوفير هي الجانب الأكثر كارثية فيه. إذ يصيبه الغم حين يكتشف أن الموز المتعفــن والبرتقال الجاف لا يلقى منا القبول. «ألا يوجــد في السوق ما هو أفضــل؟». «بلى، لكن ثمنها أعلى. أما هذه، فهي أكثر إيكونوميا».

كم هي عظيمة كلمة إيكونومكا هذه! ولاسيما أنها تكلفنا الكثير من القمامة.

أما الشعار الثالث لدى ميشيل فهو «ساوي بروفا» (اعمل تجربة).

يقـول هـذه الكلمة بمختلف نـبرات الصوت- نـبرة الأمل ونبرة التملق ونبرة التوق ونبرة الثقة وفي بعض الأحيان نبرة القنوط.

وعادة ما تكون النتيجة مؤسفة.

أمـا غاسلة الملابس لدينا، فيرغمني بطؤها العصي على التفسير في تنظيـف أثوابي القطنية على اللجوء إلى تنورة زوجة باني الإمبراطورية ومعطفها المصنوعين من قماش الشانتون واللذين لم أتمتع بما يكفي من الشجاعة لارتدائهما من قبل.

يقـول ماكس، بعـد أن ينظـر إلي: «ما هـذا الـذي ترتدينه بحق السماء؟»

فأقول، متخذة وضعية الدفاع، إنه جميل ولطيف.

يقـول ماكـس: «لا يمكن لـك أن ترتـدي هذه الملابـس. اذهبي وانزعيها عنك».

«لكنني اشتريتها ويجب أن ألبسها».

«إنهـا مخيفة للغاية. أنت تبدين كزوجة صاحـب عدوانية آتية من بوناه مباشرة!».

أقر بحزن أن الشكوك قد راودتني من قبل.

فيقـول ماكس مشجعاً: «البسي تلـك السترة الضاربة إلى الخضرة التي تحمل نقشاً معيناً على شاكلة تل حلف».

أقاطعه قائلة: «أتمنى عليك أن لا تستخدم لغة الخزفيات في وصف ثيابـي. إنه أخضرْ ليموني! ثـم إن كلمة معين جار مقـززة- إنها أشبه بشـيء مضغـه طفل ثم تركه علـى منضدة متجر قريـة. كيف لك أن

تفكر باستخدام هذه الصفـات المقرفة المتعلقة بنقوش الأواني الخزفية التي لا يمكن أن تخطر لي على بال!».

يجيبنـي ماكس: »يـا له من خيـال هذا الذي لديك. ثـم إن المعين الجاري من نقوش تل حلف ذات الجمال الرائع».

ويرسمـه من أجلي على قطعة ورق، فأقـول إنني أعلمه تمام العلم وأعلم كم هو جميل. لكن الوصف بحد ذاته هو ما يدعو إلى التقزز.

فيرمقني ماكس بحزن ويهز رأسه.

نسمع، أثناء مرورنا في قرية تل خنزير، الحوار التالي:

«من هؤلاء؟»

«إنهم أجانب ينقبون».

يفحصنا رجل عجوز باهتمام.

ويتنهد قائلاً: «كم هم جميلون. إنهم ممتلئون بالمال!».

تسارع امرأة عجوز نحو ماكس.

«الرحمـة يا خواجة! تشفـع لابني. لقد أخـذوه إلى دمشق- إلى السجن. إنه رجل طيب و لم يفعل شيئاً- على الإطلاق، أقسم لك!».

«لماذا، إذن، أخذوه إلى السجن؟».

«لا لشيء. هذا ظلم. أنقذه من أجلي».

«لكن ماذا اقترف يا أماه؟».

«لا شيء. أقسم بالله إن ما أقوله حق! إنه لم يفعل شيئاً باستثناء قتل رجل!».

يظهـر الآن مصدر جديد للجزع. إذ يقع عدة رجال من جرابلس صرعـى المرض. إنهم في خيمة في شاغر بـازار. ثلاثة رجال راقدون ويـزداد الموقـف صعوبة لأن أحداً مـن الرجال الآخريـن لن يقترب منهم. وهم لن يقوموا بحمل الطعام أو الماء إليهم.

هـذا التجنب للمرضى غريـب للغاية- لكن كل شـيء، في نهاية المطاف، يبدو غريباً في مجتمع لا تعتبر حياة البشر فيه ذات أهمية.

يقـول ماكـس: «لكنهـم سيتضورون جوعـاً ما لم يؤخـذ إليهم الطعام».

فيهز رفاقهم العمال أكتافهم بلا مبالاة: «هذا بيد الله».

يؤكـد رؤساء العمـال، وإن على مضض، انتماءهـم إلى الحضارة ويخدمون زملاءهم بشيء من التحفظ. ثم يتطرق ماكس بكياسة إلى مسألة المستشفى. فهو يستطيع إجراء الترتيبات اللازمة مع السلطات الفرنسية لإدخال الرجلين المريضين بشدة إلى المستشفى.

لكن يحيى وعلاوي يهزان رأسيهما بارتياب. فدخول المستشفى سيلحـق بهما العار بسبب الأشياء المخجلة التي تحدث هناك. والموت مفضل على العار في كل الحالات.

فأفكر، وقد غلبني الغضب، في أخطاء التشخيص وفي الإهمال- ثم أسأل عن الأشياء المخجلة التي حصلت هناك.

يتعمـق مـاك في الموضوع أكثر. ثـم يلتفت نحوي، بعـد سلسلة طويلة من الأسئلة والأجوبة لم أستطع متابعتها ويفسر الأمر.

لقـد دخل رجـل ذات مـرة إلى المستشفى وأعطـوه حقنة شرجية هناك.

أقول نعم وأنتظر بقية القصة.

يقول ماكس هذا كل شيء.

«لكن هل مات الرجل؟»

«لا، لكنه كان يفضل لو أنه مات».

فأصرخ بنبرة عدم تصديق: «لماذا؟»

يقول ماكس إن هذا ما حدث. وقد عاد إلى قريته وقد امتلأ قلبه بحزن عميق ومرير. فقد كان العار الذي لحق به كبيراً! كان ليفضل الموت.

يصعب على أمثالنا ممن ألفوا الأفكار الغربية عن أهمية الحياة أن يكيفوا أفكارهم مع نظام مختلف للقيم. ومع ذلك، فالعقل الشرقي بسيط للغاية. فالموت قادم لا محالة- إنه مصير محتوم كالولادة. أما أن يأتي الموت باكراً أو متأخراً فهي مشيئة الله. وهذا التفكير، هذا التسليم، يبعد عنهم ما أصبح لعنة العالم الذي نعيش فيه اليوم- الحصر. قد لا يكون الإنسان هنا متحرراً من العوز، لكنه متحرر بالتأكيد من الخوف- والكسل مبارك وهو حالة طبيعية- في حين أن العمل ضرورة غير طبيعية.

أتذكر متسولاً قابلناه في بلاد فارس. كان يتمتع بلحية بيضاء ومظهر نبيل ووقور. كان يتكلم بعزة نفس ويده ممدودة إلى أقصاها.

«جودي علي بالقليل يا أميرة. أشعر بقلق كبير من أن الموت قد يفوتني».

تتفاقم مشكلة الرجلين المريضين. فينطلق ماكس إلى القامشلي

ويعرض متاعبه على المقدم الفرنسي. يبدي الضباط هناك الكثير من اللطف والتعاون. فيتم تقديم ماكس للطبيب العسكري الفرنسي ويعودان معاً إلى الأكمة لفحص المريضين.

يؤكد الطبيب مخاوفنا حول جدية مرض الرجلين. ويقول إن أحدهما لا بد أنه كان في حالة صحية حرجة للغاية عند قدومه إلينا والأمل بشفائه ليس كبيراً. وينصحنا بضرورة نقل الرجلين إلى المستشفى. يتم إقناع الرجلين بالموافقة وينقلان إلى المستشفى على الفور.

كما يتكرم الطبيب علينا بإعطائنا بعض الأدوية الملينة القوية مؤكداً لنا أن من شأنها أن تحرك حصاناً!

هذا الدواء ضروري بالتأكيد لأن الرجال يأتون إلى ماكس باستمرار ويشكون له باستمرار من الإمساك ويبدو أن الأدوية الملينة العادية لا تجدي نفعاً على الإطلاق.

توفي أحد رجلينا المريضين في المستشفى في حين يتماثل الرجل الآخر للشفاء. أما نحن، فتصلنا الأخبار بعد يومين ونعلم حينذاك أن الرجل قد دفن هناك بالفعل.

يعود علاوي إلينا والحزن باد على محياه.

الأمر يتعلق، كما يقول، بسمعتنا...

ينقبض قلبي بعض الشيء. فكلمة السمعة يليها على الدوام إنفاق المال.

ويتابع قائلاً إن الرجل توفي بعيداً عن بيته ودفن هناك. وأن ردود الفعل ضدنا ستكون قوية في جرابلس.

لكننا لا نستطيع مساعـدة رجل محتضر، يقول ماكس. لقد كان مريضـاً للغايـة بالفعل عنـد قدومه وقد قمنا بكل مـا في وسعنا من أجله.

ينحي علاوي مسألة الموت. فالموت لا شيء. ليس موت الرجل ما يهم، بل دفنه.

فمـاذا سيكـون موقـف أقرباء هـذا الرجل؟ ومـاذا عن موقف أسرته؟ لقد دفن في مكان غريب. ثم سيكون عليهم مغادرة قريتهم والحضـور إلى حيث هـو مدفون. من العار أن لا يعود رجل إلى بيته ويدفن في قريته.

يقول ماكس إنه لا يستطيع أن يرى ما الذي يمكن القيام به الآن. لقد دفن الرجل. فماذا يقترح علاوي؟ هدية مالية للأسرة المحزونة؟

سيكون ذلك مقبولاً، نعم. لكن ما يقترحه علاوي هو استخراج الجثمان.

«ماذا؟ أن نستخرجه من الأرض؟»

«أجـل يـا خواجة. أعد الجثمـان إلى جرابلس بحيـث يتم دفن الرجل باحترام ولا يلحق الضرر بسمعتك».

يقـول ماكس إنه لا يعلم إن كان أمر استخراج الجثمان ممكناً. إذ لا يبدو الأمر بالنسبة إليه عملياً.

وأخـيراً، نذهب إلى القامشلي كي نجـري بعض المشاورات مع السلطات الفرنسية. من الواضح أنهم يعتبروننا معتوهين!

لكن كلامهم يزيد ماكس تصميماً بصورة غير متوقعة. إذ يوافق معهم على أن الأمر جنوني دون شك، لكن هل هو ممكن؟

يهز الطبيب كتفيه. لكن بالطبع، إنه ممكن! سيكون عليكم تعبئة استمارات- الكثير من الاستمارات في الواقع -

«*et des timbres, beaucoup des timbres!.*»

توضع العملية على سكة التنفيذ. إذ يوافق سائق سيارة أجرة أن يغادر، في وقت قصير، عائداً إلى جرابلس، بحماسة على مهمة نقل الجثمان (المحفوظ بطريقة جيدة). وسوف يتولى المهمة أحد العمال، وهو ابن عم للرجل المتوفى. هكذا أنجزت كافة الترتيبات.

يتم استخراج الجثمان أولاً يليه توقيع العديد من الاستمارات ولصق الطوابع ثم انتظار الطبيب العسكري الذي يصل مسلحاً بكمية كبيرة من رذاذ الفورمالين. يوضع الجثمان في النعش ويضاف المزيد من الفورمالين- ويقفل النعش- ويرفعه سائق سيارة الأجرة إلى المكان المخصص له بمرح.

"هولا!"، يصيح السائق قبل أن يضيف: "ستكون رحلة ممتعة! علينا أن نحرص على عدم سقوط أخينا على الطريق!".

تتحول العملية برمتها إلى نوع من الهزل المجنون الذي لا يوجد ما يوازيه سوى تقاليد الدفن الأيرلندية. تنطلق سيارة الأجرة وعلى متنها السائق وابن العم اللذان يأخذان في الغناء بأعلى صوتيهما. ينتاب المرء إحساس أن الأمر بالنسبة إليهما مناسبة سعيدة! فهما، في الواقع، يستمتعان تماماً.

يتنفس ماكس الصعداء بعد انتهائه من لصق الطابع الأخير وتسديد آخر دفعة من الرسوم. ويعهد بالاستمارات الضرورية (وهي حزمة كبيرة بحق من الأوراق) إلى سائق سيارة الأجرة ويقول: "آه، حسناً، لقد انتهينا!".

لكنـه على خطأ. إذ تحولت رحلـة الرجل المتوفى، عبد الله حميد، إلى ملحمـة شعريـة وكانت هنالك لحظـات بدا معهـا أن جثمانه لن يعرف الراحة.

يصـل الجثمان إلى جرابلس في الوقـت المناسب ويستقبله ذووه بما يستحق من الدموع والفخر، كما تناهى إلى أسماعنا، بالرحلة الباهرة التي اجتازها. ويقـام احتفال كبير، بل، في الحقيقة، وليمة. ثم يسمي سائـق سيـارة الأجرة بـالله وينطلق متجهـاً إلى حلب كـي يتبين، بعد ذهابه، أنه اصطحب كافة "الاستمارات" الهامة معه.

ويعم الهـرج والمرج! فمـن دون الاستمـارات الضرورية، يصبح دفـن الجثمان متعـذراً. هل ينبغـي، إذن، إعادتـه إلى القامشلي؟ تثور مساجـلات حامية حـول هاتين النقطتـين. ويتم إرسـال برقيات إلى السلطـات الفرنسيـة في القامشلـي وإلينـا وإلى العنـوان الإشـكالي لسائق سيارة الأجـرة في حلب. يجري كل شيء على الطريقة العربية الكسولة، في حين يبقى جثمان عبد الله حميد دون دفن.

أسـأل ماكس بقلق إلى متى يستمر مفعـول الفورمالين؟ تستخرج نسخة جديدة من الاستمارات (مع كل ما يلزم من *les timbres*) ويتم إرسالها إلى جرابلس. في ذلك الوقت، تتوارد أنباء مفادها أن الجثمان علـى وشك أن يشحن إلى القامشلي بالقطار فتتطاير البرقيات العاجلة جيئة وذهاباً.

وفجـأة ينتهي كل شيء علـى أحسن وجه. إذ يظهـر سائق سيارة الأجـرة في جرابلسـ مـن جديـد ملوحـاً بالاستمـارات ويهتـف باستغـراب: "يا لهـا من هفوة!". تجـري مراسم الدفـن بنظام ووفق الأصول ويؤكـد لنا عـلاوي أن سمعتنا في أمان! علـى الرغم من أن

السلطـات الفرنسية مـا تزال تعتبرنا مجانين. ويوافقـه عمالنا بوقار في حـين تثـور ثائرة ميشيل بسبب مـا رآه من غياب كلـي للاقتصاد. ثم يقـوم، كي يهدئ روعـه، بالضرب علـى "التوتية" تحـت النوافذ في الساعات الأولى من الصباح إلى أن نرغمه على التوقف.

أمـا "التوتيـا"، فهـو الاسم الذي يطلـق، بشكل عـام، على كافة الإنشـاءات وسوى ذلك من استخدامـات صفائح الوقود. يكاد المرء لا يستطيـع أن يتخيل كيـف كان لسورية أن تتدبـر أمورها في غياب صفيحـة الوقـود! فالنسـاء يرفعن الماء مـن الآبار باستخـدام صفيحة الوقـود. كمـا يتم تقطيع صفائـح الوقود وطرقها بحيـث تتحول إلى شرائح تغطي السقوف وتستخدم في إصلاح المنازل.

بـل إن ميشيل يخبرني بثقة عالية بالنفسـ أن طموحه هو الحصول على منزل مبني كلياً من "التوتيا".

ويضيف بتوق: "سيكون منزلاً جميلاً، جميلاً للغاية".

الفصل الخامس

نهاية الموسم

يتكشـــف شاغر بازار عن كونه موقعاً ممتازاً، ويصل السيد ب. من لندن لتقديم المزيد من المساعدة في الشهر الأخير.

مراقبة ب. وماك وهما معاً أمر مثير للغاية- فهذان الشخصان يقفان علـى طرفي نقيض. ففي حين يبدو ب. حيواناً اجتماعياً بالتأكيد، فإن مـاك حيوان لا اجتماعي. لكـن علاقة طيبة تنشأ بـين الرجلين، على الرغم من أنهما يتبادلان نظرات ملؤها الحيرة والتساؤل.

إذ يعـرب ب. على نحو مفاجئ، في أحد الأيام، وكنا على وشك المغادرة إلى القامشلي، عن قلقه.

«مـن سوء طالع ماك المسكين لأننا سنتركه وحيداً طوال اليوم. ربما يحسن بي أن أبقى معه».

أؤكد له أن «ماك يهوى الوحدة».

فيرمقني ب. بشك ويتركنا ويذهب إلى غرفة الرسم.

«انظـر إلي يا ماك. هل تريدني أن أتخلف عـن الرحلة؟ هذا أفضل من بقائك وحيداً طيلة اليوم».

ترتسم على محيا ماك نظرة ذعر.

ويقول: «آه. كنت أتوق إلى ذلك».

«يـا له من رجل غريب الأطوار»، يقول ب. والسيارة تقفز بنا من حفـرة إلى حفرة في طريقنا إلى القامشلي. «هل تتذكرون الغروب في الليلـة الماضية؟ غروب جميـل! لقد صعدت إلى السطـح كي أراقب المشهد فوجدت ماك هناك. كنت أحس بشيء من الحماسة، يجب أن أقـر بذلك- لكن ماك المسكين، لم ينبس ببنت شفة. بل إنه لم يجبني عندما كلمته. ومع ذلك، أفترض أنه كان هناك كي يراقب الغروب».

«نعم، إنه يصعد إلى السطح في المساء».

«يبدو غريباً للغاية أنه لم يقل شيئاً حينها».

أتخيـل ماك علـى السطح وحيـداً وصامتـاً وب. بجـواره يثرثر بحماسة.

لا ريـب أن ماك سيجلس، فيما بعـد، في غرفته المرتبة على بساطه ذي النقوش المربعة كي يكتب شيئاً في دفتر يومياته...

«أعني، أنك لا يمكن أن تتوقع ذلك، أليس كذلك؟». هكذا يمضي ب. في الثرثرة بـدأب قبل أن يقاطعه ميشيل الـذي ينحرف بالسيارة لغايات شيطانية ويضغط بقوة على دواسة السرعة ويندفع نحو مجموعة من العرب مكونة من امرأتين مسنتين ورجل وبرفقتهم حمار.

فيجفلون ويصرخون ويفقد ماكس صوابه ويشتم ميشيل بغضب. ماذا يظن نفسه فاعلاً؟ كان يمكن أن يقتلهم!

تلك كانت، على ما يبدو، نية ميشيل بصورة أو بأخرى.

إذ يتسـاءل وقد رفع يديه الاثنتـين في الهواء تاركاً للسيارة أن تقرر وجهة سيرها: «وأية أهمية في ذلك؟ إنهم مسلمون أليس كذلك؟»

ثم يلـوذ، بعد الإعلان عن مشاعره المسيحيـة المتوقدة (من وجهة

نظـره)، بصمـت الشهيد الـذي لم يجد حوله من يفهمـه. يبدو عليه وكأنه يتسـاءل أي صنف من المسيحيين هـؤلاء ذوو الايمان الضعيف والمتردد!

يفهمـه ماكس، بطريقة لا لبس فيها، أنه لـن يتساهل مع أية محاولة لقتل مسلمين.

فيدمدم ميشيل بحزن من بين أسنانه:

«كم يكون أفضل لو أن كلهم موتى!».

هنالك لـدى ب.، فضلاً عن نشاطاتنا المعهـودة في القامشلي من زيـارات للمصرف وتسوق من متجر السيـد ياناكوس ومكالمة مجاملة مـع الملازم الفرنسي، شأن يخصه يتمثل في استلام طرد مرسل إليه من إنكلترا يضم منامتين.

كنا قد تلقينا إشعاراً رسمياً مفاده أن الطرد المطلوب في انتظارنا في مكتب البريد. فإلى مكتب البريد.

مدير مكتب البريد ليس موجوداً، لكنه يصل إلى مكان عمله بعينين مطبقتـين وهو يتثـاءب مرتدياً منامة مقلمة ثقيلـة. يتعامل معنا بلطف ومودة، على الرغم من أننا أيقظناه من إغفاءة ثقيلة، فيصافحنا ويسألنا عن سير العمل في التنقيب- وهل عثرنا على أي ذهب؟- وهلا نتناول كوبـاً من القهوة معه؟- ثم ننتقل إلى مسألة الطرد البريدي، وقد أولينا المجامـلات كل ما تستحقه من اهتمام. صارت رسائلنا الآن تصل إلى مكتـب البريد في عامودا- وهـو أمر ليس بالمفـرح لأن مدير مكتب بريد عامودا العجوز يعتبرها أغراضاً ثمينة وقيمة للغاية فيودعها خزنة المقتنيات الثمينة وينسى تسليمها.

أمـا طرد ب.، فمحتجز في القامشلي، وعلينا أن نطلق مفاوضات تسليمه.

يقول مدير المكتب: «نعم، بالتأكيد، هنالك طرد كهذا. إنه مرسل مـن لندن، إنكلترا. آه، كم هي مدينة عظيمة لندن! وكم أود أن أراها! الطـرد مرسـل إلى السيـد ب.». «آه، هذا هو السيـد ب.، زميلنا». فيصافـح ب. من جديد ويتفوه ببعض عبـارات المجاملة. فيجيبه ب. بتهذيب وود باللغة العربية.

نعود، بعد هذا الفاصل، إلى مسألة الطرد. نعم، يقول مدير مكتب البريـد. لقد كان هنـا، في المكتب، بالفعل! لكنه لم يعـد موجوداً هنا الآن. فقـد تم احتجازه في مكتب الجمـارك. لا بد أن السيد ب. يعلم أن الطرود تخضع لإجراءات الجمارك.

يقول ب. إنها ملابس للاستخدام الشخصي.

فيجيبه مدير مكتـب البريد: «لا شك في ذلك، لا شك في ذلك- لكن الأمر من اختصاص الجمارك».

«علينا الذهاب إلى مكتب الجمارك إذن؟»

يوافقنـا مدير مكتب البريد: «هذا هـو الإجراء السليم. لكن الأمر لـن يكون ممكناً اليوم. فاليوم هو الأربعـاء والجمارك تقفل أبوابها أيام الأربعاء».

إلى الغد إذن؟ نعم، ستفتح الجمارك أبوابها في الغد.

يعتـذر ب. من ماكس: «أنا آسف. هذا يعني أنني يجب أن آتي إلى هنا في الغد كي أستلم الطرد».

يقول مدير مكتب البريد إن السيد ب. يجب أن يعود غداً بالتأكيد، لكنه لن يكون قادراً على استلام الطرد حتى في الغد.

يتساءل ب.: «و لم لا؟»

«لأن الطرد يجب أن يذهب إلى مكتب البريد بعد الانتهاء من الشكليات في الجمارك».

«تعني أنني يجب أن أعود إلى هنا؟»

فيقول مدير مكتب البريد بلهجة مظفرة: «تماماً. وهو أمر غير ممكن في الغد لأن مكتب البريد يقفل أبوابه».

نخوض شيئاً فشيئاً في تفاصيل الموضوع، كي نجد الشكليات في انتظارنا عند كل منعطف. يبدو أنه لا يوجد أي يوم في الأسبوع يعمل فيه مكتب البريد ومكتب الجمارك معاً!

فنلتفت إلى ب. المسكين ونؤنبه ونسأله لماذا بحق الجحيم لم يجلب هاتين المنامتين اللعينتين معه بدلاً من تلقيهما بالبريد!

فيقول ب.، مدافعاً عن نفسه، لأنهما منامتان خاصتان للغاية.

يقول ماكس إنهما يجب أن تكونا خاصتين بالنظر إلى المتاعب التي تتسببان لنا بها! «وظيفة هذه الشاحنة تقتصر على نقلنا إلى الحفر ومنه، لا أن تذهب إلى القامشلي كما لو كانت عربة بريد!».

نحاول إقناع مدير مكتب البريد أن يدع ب. يوقع على استمارات مكتب البريد الآن، لكنه يرفض بعناد. فإجراءات مكتب البريد تلي إجراءات الجمارك على الدوام. نغادر مكتب البريد ومدير مكتب البريد بحزن، مثخنين بالهزيمة كي نعود، كما هو مفترض، إلى أسرتنا.

ثـم يصل ميشيل وملامـح وجهه تشي بالإثارة ويقـول إنه أجرى مساومـة مجزيـة للغاية على البرتقـال. لقد اشترى مئتـي برتقالة بثمن اقتصـادي تماماً. فيتلقى سيلاً من الشتائم كالعادة. كيف له أن يظن أننا سنلتهم مئتي برتقالة قبل أن تفسد؟ هذا إن لم تكن فاسدة أصلاً.

يقـر ميشيل أن بعض حبات البرتقـال بالية بعض الشـيء، لكنها رخيصة للغاية ناهيك عن وجـود حسم كبير عند شراء الحبات المائتين دفعـة واحدة. هكذا يوافق ماكس على تحري هذه الكمية من البرتقال ويرفضها في الحال، فمعظم الحبات مغطاة بعفن أخضر!

يتمتـم ميشيل بحزن قائـلاً لكنها «إيكونوميـا!»، وهي، في نهاية المطـاف، برتقال. ثم يمضـي ويعود ببعض الدجاجـات الاقتصادية التـي يحملهـا رأساً على عقب وقد قيدها معاً مـن أقدامها. كما نقوم ببعض المشتريات، الاقتصادية منها وغـير الاقتصادية، ونقفل عائدين إلى البيت.

أسـال ماك إن كان قد أمضى يومـاً طيباً، فيجيب بحماسة لا يمكن للمرء أن يخطئها: «رائع!».

أما ب.، فيرمق ماك بنظرة تنم عن عدم فهم، ثم يلقي بجسده على كرسي غـير موجود في الواقع، كي يبلغ اليوم الجميل الذي عاشه ماك خاتمته السعيدة. لم أشاهد في حياتي أحداً يضحك بهذا المقدار! بل إنه بـين الفينة والأخرى ينفجر ضاحكاً من جديد أثناء العشاء. ليتنا عرفنا من قبل ما الذي يحرر روح المرح لدى ماك، لكنا تدبرنا أمر إضحاكه في وقت أبكر بكثير!

يواظـب ب. على مهمته الشاقة في أن يكون اجتماعياً. ففي الأيام التـي يذهب فيها ماكس إلى التنقيب وحده ونبقى، ثلاثتنا، في البيت،

يحـوم ب. في المـكان كروح ضالـة. فيذهب إلى مكتـب الرسم كي يتكلـم مع ماك، لكن دون أن يلقى منه أيـة استجابة، فيعود حزيناً إلى المكتـب حيث أجلسـ إلى آلتي الكاتبة منكبة علـى التفاصيل المروعة لجريمة قتل.

«آه»، يقول ب.، «هل أنت مشغولة؟»

«نعم»، أجيب باختصار!

«في الكتابة»، يقول ب.

«نعم» (باختصار أكبر).

فيقـول ب. بشـيء مـن الأمـل: «فكرت، ربمـا، أنني قـد أحضر الأغراض واللصاقات إلى هنا. لن يزعجك الأمر. أليس كذلك؟»

علـي أن أكون صارمة. أشرح له بوضوح بالغ أنه يستحيل علي أن أعمـل على جسـد ميت إن كان هناك جسد حـي يتحرك في الأرجاء حولي ويتنفس ناهيك عن كونه يتكلم!

فيمضـي ب. المسكـين بعيداً وقد حكـم عليه أن يعمـل في عزلة وبصمـت. أحس أنه لو قيض لـ ب. أن يؤلـف كتاباً، فإنه لن يجد أية مشقة في كتابته وبالقرب منه مذياع وغراموفون صادحان وفي الغرفة معه أشخاص يثرثرون!

لكـن اللحظات التي يتجلـى فيها ب.، بالفعل، هـي عندما يصل زوار إلى التل أو إلى البيت على حد سواء.

فهو يتمتع بالإرادة والكفـاءة اللازمين للتعامل مع الزوار بمختلف مشاربهم، سواء كانوا راهبات أم ضباطاً فرنسيين أم علماء آثار زائرين أم سائحين.

«هنالك سيارة تتوقف وفيها بعض الأشخاص. هلا أذهب وأرى من يكونون؟»

«آه، أرجوك أن تفعل».

تصل المجموعة الآن برعاية ب. الذي يدردش بكل ما يلزم من لغات. في تلك المناسبات يصبح ب. شخصاً لا يقدر بثمن كما نقول له على الدوام.

فيقول ب. وهو يومئ إلى ماك بتكشيرة: «ماك ليس بارعاً بما يكفي. أليس كذلك؟»

فأجيبه بقسوة: «ماك ليس بارعاً على الإطلاق. بل إنه لن يحاول».

فترتسم على محيا ماك تلك الابتسامة اللطيفة المتحفظة...

نكتشف أن لدى ماك نقطة ضعف. ونقطة ضعفه هي الخيول.

إذ يقل ب. ماك إلى التل ويتابع طريقه بالسيارة إلى القامشلي كي يعالج مشكلة منامتيه. وفي منتصف ذلك اليوم، يعرب ماك عن رغبته في العودة إلى البيت، فيقترح علاوي عليه أن يأخذ حصاناً من الأحصنة العديدة التي يملكها الشيخ. وفي الحال، يشرق وجه ماك ويتلاشى ذلك التحفظ الرقيق مخلياً مكانه للحماسة.

ومنذ تلك اللحظة، يحرص ماك على أن يعود إلى البيت على ظهر حصان متذرعاً بأوهى الأسباب.

يقول علاوي إن «الخواجة ماك لا يتكلم على الإطلاق، بل يصفر. فهو يصفر عندما يريد أن يقف الصبي الذي يحمل عصا المساحة إلى اليسار قليلاً، ويصفر، كذلك عندما يريد أن يأتي البناء، وأصبح يصفر الآن للحصان!».

ما تزال مشكلة منامتي ب. معلقة. إذ يطالبه مكتب الجمارك بتسديد مبلغ خيالي مقداره ثمانية جنيهات! لكن ب. يرفض السداد قائلاً إن ثمن المنامتين معاً لا يزيد عن جنيهين. ثم يزداد الموقف تعقيداً. إذ تتساءل الجمارك عما ينبغي فعله بالطرد ثم ترده إلى مدير مكتب البريد الذي يرفض تسليم ب. إياه كما أنه لن يسمح، كذلك، بمغادرته البلاد! نمضي ساعات وأياماً مهدورة هباء في الذهاب إلى القامشلي والنقاش في القضية. ثم يتم استدعاء مدير المصرف وضباط جهاز الخدمة الخاصة. بل إن رجل دين رفيع من الكنيسة المارونية كان في زيارة لمدير المصرف يتدخل في المسألة، بمظهره المهيب في ثوبه الأرجواني وصليبه الضخم وعقصة شعره الكبيرة! هكذا ينفض مدير مكتب البريد الحقير آثار النوم عنه على الرغم من أنه ما يزال يرتدي منامته! وسرعان ما تستحيل القضية أزمة دولية.

وفجأة ينتهي كل شيء حين يصل موظف جمارك عامودا إلى بيتنا مصطحباً معه الطرد. لقد حلت كافة التعقيدات مقابل رسم مقداره ثلاثون شلناً و

douze francs cinquante pour les timbres et des cigarettes, n'est ce pas?

(تدس بضع علب سجائر في جيبه). «*Voilà, Monsieur!*» ويمد يده بالطرد وتشرق وجوهنا. نتحلق حول ب. ونراقبه وهو يفتح الطرد.

ثم يرفع محتوياته بفخر قائلاً بلهجة الفارس المخلص إنه ابتكار خاص صنع من أجله.

ويضيف: "من أجل البعوض. إنها تحميك من البعوض".

فيقول ماكس إنه لم ير بعوضة واحدة في هذه الأرجاء.

فيجيبه ب.: "يوجد بعوض بالطبع. إنه أمر معروف تماماً. المياه الآسنة!".

تنتقل عيناي إلى ماك على الفور. وأقول: "لا وجود للمياه الآسنة هنا. ولو كان الأمر غير ذلك، لشاهدها ماك!".

فيقول ب. بلهجة مظفرة إنه توجد بركة مياه آسنة إلى الشمال من عامودا.

لكننا نكرر، ماكس وأنا، مرة أخرى، أننا لم نر أية بعوضة هنا و لم نسمع بوجود بعوض. بيد أن ب. لا يلقي لنا بالاً ويطنب في الحديث عن مزايا اختراعه.

المنامتان مصنوعتان من حرير أبيض وتتألف كل منهما من قطعة واحدة تعلوها قلنسوة لتغطية الرأس وينتهي كماها بقفازين بلا أصابع. وتغلق هذه المنامة باستخدام سحاب يرفع إلى الأعلى بحيث تصبح العينان والأنف الجزأين الوحيدين من الجسد المعرضين للبعوض.

ويضيف ب. بظفر: "وطالما أنك تتنفسين من أنفك، فهذا يكفي لإبعاد البعوض".

أما ماكس، فلا يكف عن القول بغضب إنه لا يوجد أي بعوض.

لكن ب. يفهمنا أننا سنتمنى جميعنا، في اليوم الذي سنكابد فيه آلام الملاريا، لو أننا تبنينا فكرته.

وفجأة ينفجر ماك ضاحكاً. فننظر إليه باستفهام.

فيقول شارحاً الأمر: "إنني أفكر في ذلك اليوم الذي جلست فيه و لم يكن الكرسي موجوداً" ثم يمضي بعيداً وهو يضحك بحبور.

كنا قد أخلدنا إلى النوم بالفعل في تلك الليلة عندما يدب الهرج والمرج في البيت. فننهض من أسرتنا بسرعة وقد خلنا للوهلة الأولى أن لصوصاً يهاجموننا ونندفع بسرعة إلى غرفة الطعام. وهناك يقابلنا شكل أبيض يجري بجنون ويعوي ويقفز.

فيصيح ماكس: "يا للهول. ماذا أصابك يا ب.؟".

يخيل إلي للحظة أن ب. قد جن.

لكن الأمر يتضح بسرعة.

لقد نجحت فأرة، بطريقة ما، في الاندساس في منامة ب. الواقية من البعوض! أما السحاب فقد علق في الأعلى.

لم نكف عن الضحك إلا وقد أشرقت الشمس.

وحده ب. لا يشعر بالسرور...

الجو يزداد حرارة وتنبت كل أنواع الزهور. لا أعتبر نفسي عالمة نبات ولا أعرف أسماء هذه الزهور ولا أرغب، بصراحة، في معرفتها. فأية متعة ينالها المرء من معرفة أسماء الأشياء؟ ومع ذلك، هناك أزهار زرقاء وبنفسجية كأزهار ترمس صغيرة وأخرى ذهبية كأزهار الماريغولد وأخرى دقيقة كالرز ذات لون أحمر داكن. أصبحت تلك التلال جميعها الآن ثورة من الألوان. إنه بالفعل "السهب الخصيب". أزور غرفة الأنتيكات وأستعير بضعة قدور فخارية ذات أشكال مناسبة. يفتش ماك، الراغب في رسمها، عنها دون جدوى. فهي الآن مليئة بالأزهار.

المنزل يرتفع بسرعة. إذ ينتصب الهيكل الخشبي لمركز البيت ويتم إكساؤه بالطوب الطيني وأهنئ ماكس الذي أقف بجواره على قمة الأكمة.

"هذا أسرع بكثير من غاسلة الملابس لدي".

يوافقنـي المعمـاري الناجح القول. لكنـه يتبرم بمرارة مـن رؤساء عماله الذيـن، كما يقول، ليست لديهم فكرة عـن معنى الدقة. أقول إننـي واثقة من ذلك. فيقول ماك بمرارة إنهم يضحكون وفي ظنهم أن الأمر لا قيمة له. أغير وجهة الحديث نحو الخيول، فيشرق وجه ماك.

يـزداد مزاج رؤساء عمالنا سخونـة مع ارتفاع حرارة الجو. ويرفع ماكس الغرامـات المفروضة على الرؤوس المكسـورة ويتوصل أخيراً إلى قـرار يائس. سوف يقـوم العمال، في صباح كل يـوم، بتسليم ما في حوزتهـم مـن سلاح قبـل أن يشرعوا في العمـل. لا يحظى القرار بالشعبيـة، لكـن الرجال يقبلونه علـى مضض. هكـذا، تسلم، تحت أنظار ماكس، الهـراوات والعصي والمدى الطويلة ذات المظهر القاتل إلى ميشيـل الذي يحتجزها في خزانة في الكويـن ماري. ومع مغيب الشمس، تعاد هذه الأسلحـة إلى مالكيها. إنه جهد مضجر وفيه هدر للوقت لكنه، على الأقل، يجنب العمال إحداث المزيد من الأضرار.

يأتـي عامل أيزيـدي ويشتكي إصابته بالإغمـاء بسبب حاجته إلى الماء. إنه لن يكون قادراً على العمل ما لم يشرب.

"لكن الماء هنا – فلماذا لا تشرب؟"

"لا أستطيع الشرب من هذا الماء. هذا الماء مصدره البئر وقد أسقط ابن الشيخ بعض الخس في البئر هذا الصباح".

يجب على الأيزيديين، بموجب إيمانهم، الامتناع عن ذكر الخس أو عن لمس أي شيء ملوث بالخس لأنهم يؤمنون أن الشيطان مقيم فيه.

يجيبه ماكس: "أظن أن أحدهـم كذب عليك. فقد رأيت ابن الشيخ

هــذا الصباح في القامشلي وأخـبرني أنه هناك منذ يومين. لقد قيل لك ذلك للتغرير بك".

عندئذ تتم تلاوة قانون الشغب على العمال المجتمعين. يحظر على الجميع الكــذب على العمال الأيزيديــين أو اضطهادهم. "الجميع في هذه الورشة إخوة".

فيتقدم رجل ذو عينين مرحتين إلى الأمام.

«أنــت تتبــع المسيح يـا خواجة ونحن نتبـع محمد، لكننــا، كلينا، أعــداء للشيطان. فمن واجبنا، إذن، اضطهاد هؤلاء الذين يؤمنون بأن الشيطان سوف يعود ويعبدونه».

فيقول ماكـس: «قيامك بواجبـك في المستقبـل سيكلفك، إذن، خمسة فرنكات في كل مرة!».

ولا نعود، لبضعة أيام من ذلك، نسمع أي تذمر من الأيزيديين!

الأيزيديـون أشخاص مثيرون للفضول ودمثـون على نحو خاص وعبـادة الشيطان لديهم أقـرب، في طبيعتهـا، إلى أن تكون نوعاً من الاستعطـاف. وهــم، فضلاً عن ذلــك، يؤمنون أن الله هــو من أوكل للشيطان مهمــة الإشراف على هذا العالم- وأن زمــن الشيطان سيليه زمن يسوع الذي يعتبرونه نبياً، وإن يكن نبياً لم يتبوأ سدة السلطة بعد. ويمنــع في الديانة الأيزيدية ذكر اسم الشيطان أو أية كلمة أخرى شبيهة باسمه.

يقع مقامهم المقدس، مقام الشيخ عدي، في التلال الكردية بالقرب مــن الموصل، وقد زرناه ذات مرة عندما كنا ننقب بالقرب منه. أعتقد

أنه لا يوجد مكان في العالم بجماله أو بسكينته. يتجه المرء إليه صعوداً في التلال بين أشجار البلوط والرمان على خطى مسيل جبلي. الجو هناك منعش ونظيف ونقي. ويحتاج المرء، كي يقطع الأميال الأخيرة قبل الوصول إليه، أن يسير على قدميه أو أن يستخدم الجياد. يقال إن الطبيعة البشرية هناك على درجة من النقاء يمكن معه للنساء المسيحيات أن يسبحن عاريات في الجداول.

ثم تصل، فجأة، إلى مشارف المقام. كل شيء هناك هادئ وواد ع. هنالك أشجار وفناء وماء جار. يجلب لك حراس المقام ذوو الوجوه الوديعة المرطبات وتجلس في مكان ملؤه السلام وتحتسي الشاي. يقع المدخل المفضي إلى المعبد في الساحة الداخلية وإلى اليمين منه أفعى سوداء كبيرة منحوتة. وقد تم نحت هذه الأفعى لأن الأيزيديين يؤمنون أن طود نوح رسا في جبل سنجار وأنه كان فيه ثقب. هكذا التفت الأفعى على نفسها وسدت الثقب كي يستطيع الطود متابعة طريقه.

انتزعنا أحذيتنا وتم اصطحابنا إلى المعبد حيث خطونا فوق العتبة بحذر لأن الدوس عليها ممنوع. ومن الأمور الممنوعة كذلك إظهار باطن القدم، وهو عمل تكتنفه بعض الصعوبة عند الجلوس أرضاً بوضعية مقاطعة الساقين.

الجو في الداخل مظلم وبارد بعض الشيء وهنالك مسيل مائي رقيق هو النبع المقدس الذي يقال إنه يصل إلى مكة. تعرض في المعبد صورة الطاووس في أزمنة الأعياد. يقول البعض إنه تم اختيار طاووس بوصفه ممثل الشيطان لأن اسمه هو الكلمة الأكثر اختلافاً عن الاسم الممنوع. إنه، من بعض النواحي، لوسيفر، ابن الصباح، الذي هو الملاك الطاووس في الايمان الأيزيدي.

خرجنا من جديد وجلسنا في سكينة الساحة وصمتها وراودنا إحساس بالنفور من مغادرة هذا الملاذ الجبلي والعودة إلى صخب العالم...

مقام الشيخ عدي هو من الأمكنة التي لن أنساها ما حييت- كما لن أنسى أبداً السلام الكلي والرضا المطلق اللذين استوليا على روحي هناك...

زارنا المير، رئيس الأيزيديين، ذات مرة إلى الموقع الذي ننقب فيه في العراق. كان رجلاً فارع القامة ذا وجه حزين، متسربلاً بالسواد. إنه، بالنسبة إليهم، بمثابة البابا والزعيم، على الرغم من الروايات المحلية التي تقول إن هذا المير، تحديداً، واقع كلياً تحت سطوة عمته، خاتون مقام الشيخ عدي، ووالدته، وهي امرأة جميلة طموحة كان يقال إنها تبقي ابنها تحت تأثير المخدرات كي لا يستخدم سلطته.

زرنا، في رحلة لنا إلى جبل سنجار، شيخ سنجار الأيزيدي، حمو شيرو، وهو رجل طاعن في السن يقال إنه يبلغ من العمر تسعين عاماً. فر، خلال الحرب التي دارت بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، مئات من اللاجئين الأرمن من الأتراك وقدم لهم المأوى في جبل سنجار وأنقذوا من الموت.

ينشب خلاف شديد آخر حول يوم الاستراحة. يعتبر اليوم التالي ليوم تسديد الأجور يوم عطلة على الدوام. ويزعم المسلمون أنه طالما أن عددهم يزيد على عدد المسيحيين في بعثة التنقيب فإن يوم الجمعة هو الذي ينبغي إختياره كيوم استراحة. لكن العمال الأرمن يرفضون، على كل حال، العمل أيام الآحاد قائلين إنه طالما أن البعثة مسيحية فيجب أن يكون يوم الأحد هو يوم العطلة.

فنقـرر اعتبار يـوم الثلاثاء يوم عطلة على الـدوام لأنه لا يعتبر يوماً مقدساً في أي ديانة على حد علمنا.

يزورنا رؤسـاء العمال في المساء ويحتسون القهـوة معنا ويبلغوننا بالصعوبات أو المشكلات التي تواجههم.

العجـوز عبد السـلام يتكلم كثـيراً هـذا المساء. وصوتـه يصدح بمونولوغ طويل متقد. أنصت إلى ما يقوله باهتمام على الرغم من أنني لا أستطيع أن أفهم شيئاً منه. لكنه على درجة من الدرامية تثير فضولي. وعندما يتوقف عبد السلام لبرهة كي يلتقط أنفاسه، أسأل ماكس عما يجري.

فيجيبني ماكس بكلمة واحدة مختصرة:

«إمساك».

يلتفت عبد السلام نحوي، وقـد أحس باهتمامي، ويضيف المزيد من التفاصيل البلاغية عن حالته الصحية.

يقـول ماكس: «لقد تنـاول إينـو وبيتشام وملينـات نباتية وزيت الخـروع. وهو يصف لك أثر كل من هذه العقاقـير فيه وكيف أنها لم تعط النتائج المطلوبة».

من الواضح أن الحوار يتطرق إلى دواء الطبيب الفرنسي القادر على شفاء حصان.

فيصف له ماكس جرعة كبيرة! ويغادر عبد السلام والأمل يحدوه وندعو الله أن تكون النتائج مرضية!

أنـا الآن مشغولة للغاية. فبالإضافـة إلى ترميم الفخاريات، هنالك

كذلـك التصوير- خصصت «حجرة مظلمـة» من أجلي. وهي تشبه إلى حد ما زنزانات برج لندن.

إذ لا يمكـن للمـرء أن يجلس فيها كمـا لا يمكنه أن يقـف! هكذا أحمض الأفـلام في تلك الحجرة وأنـا أدب على أربـع وأجثو ورأسي ملـوي إلى الأسفل. أخرج من الحجرة وقد خنقتني الحرارة فيها بالفعل وقد أصبحت عاجزة عن الانتصاب- وأجد الكثير من المتعة في وصف ضـروب العذاب التـي عانيت منها هنـاك على الرغم مـن أن الحضور يبـدون غافلين بعض الشـيء- إذ أن اهتمامهم منصب كلياً على النسخ السلبية لا على العامل الذي أنتجها.

ثـم يتذكر ماكس عرضاً أنه عليـه أن يقول بحرارة وتعاطف: «أظن أنك رائعة يا عزيزتي» بشيء من شرود الذهن.

أصبح منزلنا ناجزاً. وهو ينضح، عندما يشاهده المرء من قمة الأكمة، بشـيء مـن القداسة بقبتـه الكبيرة التي تنتصـب بيضاء ناصعـة مقارنة بالأرض التي خبزتها حرارة الشمس. المنزل من الداخل جميل للغاية. فالقبة تشيع أجواء لطيفة وتوحي بالرحابة. توجد، إلى اليمين، غرفتان، الأولى هـي غرفة نوم مخصصة لي ولماكس والثانية مكتب رسم ألحقت بـه غرفة نوم لمـاك وب. سنمضي في هـذا المنزل أسبوعـاً أو اثنين هذه السنـة. بدأ موسم الحصاد والرجال يغـادرون العمل كل يوم ويذهبون لجني الغـلال. الأزهار لم تعد موجودة- لقد اختفت بين ليلة وضحاها لأن السكان البدو جاؤوا من الهضاب- وتناثرت خيامهم البنية في كل مكان ومواشيهم ترعى في المكان وهي تتحرك جنوباً ببطء.

نحن عائدون في السنة القادمة- عائدون إلى بيتنا- فهذا المنزل ذو القبة الواقع في قلب اللامكان هو، بالنسبة إلينا، بيت حقيقي.

يـدور الشيخ بجلبابه الأبيض الناصع حول البيت بإعجاب وعيناه الصغيرتـان المرحتان تتلألآن. فهذا المنزل سيؤول إليه في نهاية المطاف وهو يشعر، منذ الآن، بأبهة مضافة.

كـم سيكون جميلاً أن أرى إنكلترا من جديد. كم سيكون جميلاً أن أرى أصدقائي والعشب الأخضر والأشجار الباسقة. وكم سيكون جميلاً، كذلك، أن أعود إلى هذا المكان في السنة القادمة.

ماك يرسـم شيئاً ما. إنه يرسم الأكمة. الرسـم تجريدي للغاية لكنه يثير إعجابي إلى أقصى الحدود.

لا يمكن للمرء أن يشاهد فيه بشراً، بل مجرد خطوط منحنية وظلال. أكتشـف، في تلك اللحظـة، أن ماك ليس معماريـاً فحسب، بل هو، كذلك، فنان. فأسأله أن يصمم غلاف كتابي الجديد.

يصـل ب. وهـو يتذمر من كـون الكراسي قد وضبـت – وأنه لا يوجد شيء يستطيع المرء الجلوس عليه.

فيسألـه ماكس: «ولمـاذا تريد أن تجلس؟ هنالـك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه».

ويذهب بعيداً فيخاطبني ب. معاتباً:

«كم هو نشيط زوجك!».

أتسـاءل في نفسي كيف يمكن لمـن يرى ماكس في إنكلترا نائماً في بعد ظهيرة يوم صيفي أن يصدق ذلك...

تتداعى أفكاري إلى ديفون، إلى الصخور الحمراء والبحر الأزرق... كـم هو جميل أن يعـود المرء إلى وطنه. ابنتـي، الكلب، زبادي قشدة ديفونشاير، التفاح، الاستحمام... وأتنهد بنشوة.

الفصل السادس

نهاية الرحلة

كانت نتائج تحرياتنا مشجعة فنقرر المضي في التنقيب موسماً آخر.

سيكون فريقنا هذه السنة مختلفاً.

فماك يعمل مع بعثة أخرى في فلسطين لكنه يأمل في أن يلتحق بنا في الأسابيع الأخيرة من الموسم. ولذلك سوف يرافقنا معماري آخر. كما سيضم فريقنا عنصراً إضافياً هو الكولونيل. إذ أن ماكس يأمل في إجراء بعض التنقيب في تل براك، إلى جانب التنقيب في شاغر بازار. وبذلك يمكن للكولونيل أن يتولى مسؤولية أحد الموقعين في حين يشرف ماكس على العمل في الموقع الآخر.

يسافر ماكس والكولونيل والمعماري الجديد معاً على أن ألتحق بهما بعد بضعة أسابيع.

وقبل أسبوعين من مغادرتهما، يتصل معمارينا بالهاتف ويسأل عن ماكس الموجود خارج المنزل. يبدو عليه القلق. أسأله إن كان هنالك ما أستطيع فعله.

يقول: «حسناً. الأمر يتعلق بالرحلة. أنا موجود الآن في شركة كوك كي أحجز عربة نوم إلى المكان الذي أخبرني عنه ماكس لكنهم يقولون لي إنه لا يوجد مكان بهذا الاسم».

أطمئنه.

«غالباً ما يقولون ذلك. إذ لم يسبق لأحد أن ذهب إلى أماكن كهذه. فطبيعي، إذن، أنهم لم يسمعوا به».

«يبدو أنهم يظنون أنني أعني الموصل».

أطمئنه: «حسناً. أنت لا تعني ذلك».

وفجأة يهبط علي الوحي. «هل سألتهم عن القامشلي أو نصيبين؟»

«القامشلي. أليس ذلك اسم المكان؟»

«إنه اسم المكان بالضبط، لكن المحطة هي نصيبين – وهي على الجانب التركي من الحدود. أما القامشلي، فمدينة سورية».

«هذا يفسر كل شيء. لم يقل لي ماك أنني يجب أن آخذ أي شيء آخر. فهل يجب أن أفعل؟»

«لا أظن ذلك. لديك ما يكفي من أقلام الرصاص. أليس كذلك؟»

«أقلام رصاص؟» يبدو صوته كمن فوجئ بالأمر. «بالطبع».

أقول: «ستحتاج إلى الكثير من أقلام الرصاص»، دون أن أدرك الوقع الفاسد لهذه الكلمة في أذنه.

تمضي رحلتي إلى اسطنبول بسلام وأحصل على حصتي من الأحذية وأمر بسلام من الجمارك التركية!

أكتشف في حيدر باشا أنني سأشترك في مقصورة واحدة مع سيدة تركية ضخمة. لديها ست حقائب وسلتان شكلهما غريب وبعض الأكياس المخططة وطرود مؤن متنوعة. فإن أضفت حقيبتي الاثنتين وصندوق القبعات، لا يبقى هناك من متسع كي نريح سيقاننا !

تودع السيدة البدينة سيدة أخرى لطيفة وأكثر رشاقة. تخاطبني

بالفرنسية ونتجاذب أطراف حوار ودي. أنا ذاهبة إلى حلب؟ آه، ابنة عمها لن تصل إلى هناك ! هل أتكلم الألمانية؟ فابنة عمها تتكلم القليل من الألمانية.

لا، للأسف، لا أتكلم الألمانية. ولا التركية؟ ولا التركية !

يـا لسوء الطالـع ! فابنة عمها لا تتكلم الفرنسيـة ! فماذا سنصنع؟ كيف سنتخاطب؟

أقول إنه يبدو لي أننا لن نكون قادرين على التخاطب.

أمـر يدعو للرثاء، تقول ابنة العم اللطيفة، لأن الأمر يمكن أن يكون مثيراً لكليكمـا. لكن فلنقل كل ما نستطيع قولـه قبل مغادرة القطار. أنت متزوجـة، صح؟ أقر أنني متزوجة. «والأبنـاء؟ لديك العديد من الأبنـاء بلا ريب؟ لابنة عمي أربعة أبنـاء – لكن»، ثم تضيف باعتزاز، «ثلاثـة منهـم صبية!». أحس أننـي لا أستطيع الإقـرار باكتفائي بابنة واحدة، كرمى للمكانة الإنكليزية. فأضيف، بلا خجل، ابنين آخرين.

«ممتاز»، تقول ابنة العم ببشاشـة. «وماذا عن الإجهاض؟ كم مرة أجهضت؟ ابنة عمي أجهضت خمس مرات، مرتين في الشهر الثالث ومرتين في الشهر الخامسـ وأنجبت مرة واحدة مولوداً ميتاً في الشهر السابع». أتـردد بعض الشيء في اختراع حالـة إجهاض لمجرد تعزيز أواصـر الصداقـة بيننا قبل أن تأتي صافرة القطـار لنجدتي وتغادر ابنة العـم اللطيفـة العربة ثم تصـرخ على طول الممر: «عليكمـا أن تتبادلا المعلومات بالتفصيل بلغة الإشارة».

الآفـاق غير مشجعة، لكن أمورنا تسير على خير ما يرام من خلال الإيماءات والابتسامات. تعرض رفيقتي علي حصة سخية من مخزونها

الهائل من الطعام المفعم بالتوابل، وأعطيها، بالمقابل، على سبيل الشراكة، تفاحة أحضرتها من عربة الطعام.

تزداد الفسحة المخصصة لأقدامنا ضيقاً بعد فض سلال الطعام وتملأ روائح الطعام وعبير التوابل المكان !

ومع حلول الليل، تتحقق رفيقة رحلتي من أن النافذة محكمة الإغلاق. أصعد إلى السرير العلوي وأنتظر سماع أصوات شخير لطيف ومنتظم من السرير السفلي.

ثم أنسل بخفة إلى الأسفل وأشق النافذة بحذر. وأنسحب من جديد إلى سريري دون أن يفتضح أمري.

إيماءة هائلة تنم عن المباغتة عندما يتبين في الصباح أن النافذة مفتوحة. إذ تحاول السيدة التركية أن تؤكد لي، من خلال عدد لا يحصى من الإشارات، أن الأمر لم يحدث بخطأ منها. فأطمئنها، إيمائياً، أنني لا ألومها على الإطلاق وأن الأمر، كما أظن، هو واحد من تلك الأمور التي يمكن أن تحدث.

نصل إلى محطة القطار التي تقصدها السيدة التركية فتودعني بكبير تهذيب. فنتبادل الابتسامات والإيماءات والانحناءات معربتين عن أسفنا لأن الحاجز اللغوي حال دون أن نتبادل وقائع حياتنا الأساسية.

أجلس، عند الغداء، قبالة سيدة أمريكية عجوز لطيفة. تتأمل مطولاً في نسوة يعملن في الحقول.

وتتنهد قائلة: «يا لهذه الأرواح المسكينة. أتساءل إن كن يدركهن أنهن حرات».

أتساءل بشيء من الضياع: «حرات؟»

«بالطبع. لأنهن لم يعدن يرتدين البرقع. لقد تخلص مصطفى كمال من كل هذه الأمور. إنهن حرات الآن».

أنظر إلى أولئك النسوة العاملات بتفكر. يبدو لي أن هذه الناحية لا تعني شيئاً لهن. فيومهن هو جولة لا تنتهي من الكد وتساورني شكوك كثيرة في أنهن حظين بترف تغطية وجوههن. فنساء عمالنا المحليين لا يفعلن ذلك.

بيد أنني لا أجادلها في هذه النقطة.

تنادي السيدة الأمريكية النادل وتطلب كأساً من الماء الحار وتقول:

«*Je vais prendre des remèdes*».[١٨]

ينظر إليها الرجل بوجه خلو من التعابير. يسألها إن كانت ترغب في القهوة أو الشاي؟ لكننا نفهمه بمشقة أن المطلوب هو كأس من الماء الساخن من غير إضافات.

«هلا تناولت معي بعض الأملاح؟» تسأل بلطف كمن يدعوني إلى كأس من الكوكتيل. أشكرها قائلة إنني لا أحب الأملاح. تلح علي: «لكنها مفيدة من أجلك». أعاني من صعوبات كبيرة في تجنب الإسهال.

أنسحب إلى مقصورتي وأتساءل كيف هي حال الإمساك لدى عبد السلام هذه السنة!

أقطع رحلتي في حلب لأن ماكس يريدني أن أحضر بعض الأشياء من هناك. وأوافق، بسبب حصولي على يوم فراغ كامل قبل أن أستقل

١٨-بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أريد أن أتناول أدوية" (المترجم).

القطـار التالي إلى نصيبين، على الانضمـام إلى مجموعة ذاهبة بالسيارة إلى قلعة سمعان.

يتبـين أن المجموعة تتألـف من مهندس مناجـم وكاهن طاعن في السن وشبـه أصم. يتبادر إلى ذهن الكاهن، لسبـب من الأسباب، أن مهندس المناجم، الذي لم ألتق به من قبل، هو زوجي.

فيقول، مربتاً علـى يدي بحنان ونحن في طريق العودة: «زوجك يتكلم العربية بطلاقة يا عزيزتي».

أصرخ بشيء من الارتباك:

«بالفعل، لكنه ليس كذلك».

«آه، بالطبـع، إنه كذلك»، يقول الكاهن مؤنبـاً. «إنه اختصاصي ممتاز باللغة العربية».

فأصيح: «إنه ليس زوجي».

يلتفـت الكاهن إلى المهندس الـذي أصبح وجهه أحمـر قرميدياً: «زوجتك لا تتكلم العربية على الإطلاق كما أفهم».

فيجيبه بصوت مرتفع: «هي ليست...».

«لا»، يقول الكاهـن. «لقد عرفت أنها غير بارعة باللغة العربية». ثم يضيف مبتسماً: «عليك أن تعلمها».

نصرخ بصوت واحد: «نحن لسنا زوجين!».

تتغير ملامح الكاهن. ويرمقنا بقسوة واستنكار.

ويتساءل: «و لم لا؟»

يخاطبني مهندس المناجم بقنوط: «أنا أستسلم».

ثم نضحك كلانا فتنفرج أسارير الكاهن.

ويقول: «لقد فهمت. كنتما تمازحانني قليلاً».

تتوقف السيارة أمام الفندق ويخرج منها بحذر ويطلق زفرة طويلة عبر شاربيه الأبيضين ويلتفت صوبنا ويبتسم بمحبة قائلاً:

«بارككما الله أنتما الاثنين. وأتمنى لكما حياة طويلة وهانئة معاً!».

وصول مظفر إلى نصيبين. كما هي العادة، يتوقف القطار في مكان تبلغ الهوة بين درجه وسطح مغطى بحجارة حادة غير مثبتة خمسة أقدام! يتكرم أحد رفاق الرحلة بالقفز إلى الأسفل وإزالة الحجارة كي أستطيع القفز دون أن ألوي كاحلي. ألمح من بعيد ماكس وهو يدنو كما أشاهد سائقنا ميشيل وأتذكر كلمات الطاقة الثلاث لديه. «فرقع»- والتي تعني تطبيق قوة عمياء (وعادة ما تكون النتائج كارثية)، و»ساوي بروفا» ثم «إيكونوميا»- التي تمثل المبدأ العام للاقتصاد الذي أودى بنا، في مرة سابقة، إلى نفاذ الوقود منا في قلب الصحراء.

وقبيل التقائنا، يخاطبني رجل تركي يرتدي زياً رسمياً بتجهم: «جواز السفر» ويأخذه بعيداً ويقفز إلى القطار.

ثم نتبادل التحيات وأصافح يد ميشيل المتينة فيقول لي: «بونجور، كيف حالك؟» ثم يحمد الله على سلامتي بالعربية. يلتقط بعض العمال الحقائب التي يلقيها سائق القطار من النافذة، فأبحث عن جواز سفري الذي اختفى تماماً مع التركي ذي الزي الرسمي.

عربة النقل ماري الزرقاء تنتظرنا بإخلاص. يفتح ميشيل بابها الخلفي فتلتقي عيناي بأعين مألوفة. هنالك عدة دجاجات مقيدة

معـاً بشكل غير مريح وصفائح بنزيـن وكتل من الخيش يتبين في نهاية المطاف أنهـا مخلوقات بشريـة. توضع حقائبي فـوق الدجاج والبشر ويذهب ميشيل كي يتفقد جـواز سفري، فيمضي ماك في إثره خشية أن يمارس ميشيل «الفرقعة» مورطـاً إيانا في تعقيدات دولية لا قبل لنا بها. وبعد عشرين دقيقة، يعودان منتصرين.

تنطلق السيارة بنا وهي تصرُّ وتترنح وتحشرج وتتقافز بين المطبات. نغـادر تركيـا إلى سوريـة كي نصـل، بعد خمسـ دقائـق، إلى مدينة القامشلي النامية.

لدينـا الكثير من الأعمال التي علينا إنجازهـا سيراً على الأقدام قبل العودة إلى المنزل. نتوجه أولاً إلى متجر «هارودز»- أي مؤسسة السيد ياناكوس - هنـاك ألقى ترحيباً حـاراً ويُقدم لي كرسـي خلف درج النقود وتصنع القهوة من أجلي. ميشيل يعمل على شراء حصان سنربط بـه عربـة ننقل بها الماء من نهر جغجغ إلى موقـع التنقيب في تل براك. لقد عثر ميشيل، كما يقول، علـى حصان ممتاز، حصان «إيكونوميا» للغاية. يسأله ماكس بارتياب، بـأي معنى هذا الحصان «إيكونوميا». هـل هو حصان جيد؟ حصان كبـير؟ حصان ذو جلد؟ إذ إن دفع مبلغ إضـافي صغير لقاء حصـان جيد أفضل، على حـد قوله، من الحصول على حصان بخس ورديء.

تغـادر إحدى رزم الخيش سيارة النقل كي يتبين أنها الرجل الجلف الـذي سيصبـح السقاء وهو رجل يتمتع (على حـد زعمه) بالخبرة في الخيـول. ولذلك فهو ذاهب مع ميشيل كي يقدم تقريره عن الحصان. نشـتري، في ذلك الوقت، فاكهة معلبـة وزجاجات من نبيذ مشكوك في نوعيته وبعض المعكرونة وقدوراً من مربى الخوخ والتفاح وسواها

مـن أطايب السيـد ياناكوس. ثم نتجه إلى مكتـب البريد حيث نلاقي فيـه صديقنا القديم، مدير المكتب ذا اللحيـة غير الحليقة بمنامته القذرة التي يبـدو أنه لم يغسلهـا أو يستبدلها منذ السنة الماضيـة. نتسلم رزم صحفنـا ورسالة أو اثنتين ونرفض ثلاث رسائل أخرى يفرضها مدير المكتـب علينا بإصرار وهي معنونة بخط يد أوروبي ومرسلة إلى السيد تومبسون، ونذهب إلى المصرف.

بنـاء المصرف حجـري وفسيـح وخاو وهـادئ للغايـة والجو فيه لطيـف. هناك مقعد في الوسط يجلس عليه جنديان وعجوز ذو لحية مخضبـة بالحناء يرتدي أسمالاً جديرة بأن تكـون موضوعاً للوحة فنية وصبـي بملابس أوروبية ممزقة. هم جميعـاً جالسون بسكينة يحدقون في الخـواء ويبصقون بـين الفينة والأخرى. ويوجـد في أحد الأركان سريـر غامض تغطيه ملاءات قذرة. يستقبلنـا بالترحاب كاتب يجلس خلـف نضد. يقدم ماكس شيكاً لصرفه فيقودنا إلى مكتب *Monsieur le directeur*. والسيـد المديـر هذا ضخم الجثة، بشرتـه بلون القهوة ومهذار. يستقبلنا بكبير مودة ويطلب لنا القهوة. لقد حل هذا المدير، في السنـة الماضية، مكان المدير السابق وهو حزين لذلك. فقد جاء إلى هنـا من مدينة اسكندرون التي يوجد فيهـا، كما يقول، بعض الحياة! أما هنا! (يلوح بيديه إلى الأعلى)،

«*on ne peut même pas faire un bridge!*»[١٩]. «لا»، ثـم يردف وقد تضاعف إحساسه بالألم،

«*pas même un tout petit bridge*».

١٩–بالفرنسيـة في الأصل وترجمتها: "فلا يستطيع المرء أن يلعب ولو قليلاً من البريدج" (المترجم)

(ملاحظة: ما الفرق بين *un bridge?* و *un tout petit bridge*

أظن أن الأمر في الحالتين يتطلب وجود أربعة لاعبين).

تمضي نصف ساعة في الحديث في الوضع السياسي ووسائل الراحة (أو الافتقار إلى وسائل الراحة) في القامشلي، لكنه يقر أنه «*Mais tout de même on fait de belles constructions*»[٢٠].

يبدو أنه يعيش في أحد هذه المنازل الجديدة. مبنى لا تتوفر فيه الإنارة الكهربائية أو الصرف الصحي أو وسائل الراحة الحضارية – لكن على الأقل *construction*–

«*une construction en pierre vous comprenez!*»[٢١]. تستطيع المدام أن تشاهده في طريقها إلى شاغر بازار.

أعده أن ألقي نظرة عليه.

يتطرق النقاش إلى الشيوخ المحليين. فيقول إنهم سواء.

«*Des propriétaires- mais qui n'ont pas le sou!*»

وهم جميعاً غارقون في الديون.

يقاطعنا أمين الصندوق بين الفينة والأخرى باستمارات يوقعها ماكس ويسدد مبالغ صغيرة كالستين سنتيماً *pour les timbres*.

تصل القهوة. وبعد أربعين دقيقة، يعود أمين الصندوق الضئيل وبرفقته ثلاث وثائق أخيرة وطلب أخير هو

٢٠– بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "على الرغم من أنه تبنى منشآت جميلة هنا" (المترجم)

٢١–بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "مبنى من الحجر إن فهمتم قصدي!" (المترجم)

«*Et deux francs, quarante cinq centimes pour les timbres, s'il vous plait*»

وتختتم المراسم الأخيرة ويصبح بمقدورنا استلام المال.

«*C'est à dire, si nous avons l'argent ici!*.»[٢٢]

فيشير ماكس، ببرودة، إلى أنه قدم إشعاراً بنيته صرف شيك قبل أسبوع من الآن. فيهز أمين الصندوق كتفيه مبتسماً. «آه حسناً. سوف نرى». ولحسن الحظ يتبين أن كل شيء على ما يرام وأن المال قادم و *les timbres* ملصقة في مكانها فنستطيع المغادرة. ما يزال الأشخاص أنفسهم جالسين على المقعد وهم يحدقون في الفضاء ويبصقون.

نعود إلى هارودز. السقاء الكردي في انتظارنا حيث يقدم إلى ماكس تقريراً عن الحصان– حسناً، لا يستطيع المرء أن يدعوه حصاناً! إنه ليس بحصان على الإطلاق، بل امرأة عجوز– مجرد امرأة عجوز! بما يتطابق تماماً مع مفهوم "الايكونوميا" لدى ميشيل. فيذهب ماكس لتفقد الحصان وأعود إلى كرسي خلف درج النقود.

يروح السيد ياناكوس الصغير عني بحوار أعرج يتناول الأحداث العالم. يقول«*Votre roi*». «*Votre roi- vous avez un nou- veau roi*». أوافقه على أننا حصلنا على ملك جديد. ثم يكافح السيد ياناكوس كي يعبر عن أفكار تتجاوز في تعقيدها حصيلته اللغوية. «*Le roi d'Angleterre*»، يقول. «*Grand roi- Plus grand roi dans tout monde- aller- comme ça*» وينفذ حركة معبرة، «*pour une femme!*». الأمر يفوق طاقته. *Pour une femme!*. لا، إنه أمر لا

٢٢–بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أي إن كان لدينا المال هنا!" (المترجم)

يصـــدق. هل من المعقول أن تتمتع المـرأة في إنكلترا بهذه الأهمية؟ ثم يردد بنبرة ذهول «*le plus grand roi au monde*»[٢٣].

يعـود ماكس والرجل الكردي وميشيـل. لقد سقط اقتراح ميشيل علـى الفور بالتصويت وتلقى تقريعاً شديداً، لكنه استعاد رباطة جأشه على الفور. وهم الآن في طريقهم إلى الدخول في مفاوضات من أجل الحصـول على بغـل. يتمتم ميشيل قائـلاً إن شراء بغـل سيكلف مبلغاً باهظاً. فيقول الكردي إن البغل حيوان نافع على الدوام. هكذا ينطلق ميشيـل والكردي بحثاً عن امرأة يعـرف زوج ابنة عمها الثانية رجلاً لديه بغل للبيع.

يظهـر مدبـر منزلنا الأبله منصـور بصورة مفاجئـة. يشرق وجهه ترحيبـاً ويصافحني بحـرارة. كان هو من تطلب تعلمـه إعداد المائدة موسمـاً كاملاً – بل ما يزال حتـى الآن يحضر شوكاً من أجل الشاي. أما ترتيـب الأسرّة فيشكل تحدياً كبيراً لقدراتـه العقلية. تتميز حركاته بالبـطء والإصرار وهو يقوم بكل شيء علـى طريقة كلب تعلم خدعة جديدة بنجاح.

هل نزور بيـت أمه (التي هي بمحض المصادفة غاسلة ملابسنا) كي نطلع على مجموعة من الأنتيكات؟

نذهـب إلى هناك. الغرفة نظيفـة ومزخرفة. نتنـاول القهوة للمرة الثالثـة في ساعتين. يتم إحضـار الأنتيكات وهـي زجاجات رومانية صغـيرة وكسر من الزجـاج والخزف وعملات معدنيـة غريبة وكمية كبـيرة من النفايـات. يفرز ماكس هذه الأشيـاء إلى مجموعتين، يرفض

٢٣- يتحدث الشاب بفرنسية ركيكة عن حادثة تنازل الملك البريطاني إدوارد الثامن عن العرش عام ١٩٣٦ لإصراره على الزواج من امرأة أمريكية مطلقة (المترجم)

أولاهمـا ويعرض ثمنـاً للأخرى. تدخـل إلى الغرفة امـرأة يبدو أنها معنيـة بالأمر. تبدو مسألة أيهما سيسبق الآخر، إنجاز الصفقة أم ولادة توأميهـا أمراً قابلاً للنقاش. بل إنها قد تضـع خمسة توائم بحسب ما يوحي مظهرها. تصغي المرأة إلى ترجمة منصور لما نقوله وتهز رأسها.

نغـادر البيـت عائديـن إلى عربة النقـل. ثم نمضي، وقـد افتتحت مفاوضـات شراء البغل بالفعل، كي نتفقـد براميل الماء التي سيتم نقلها بواسطة العربة التي سيجرها البغل. يقع ميشيل، مرة أخرى، في مأزق جديد. لقـد أوصى على برميل كبير لا تتسع لـه العربة ومن شأنه قتل أي حصان أو بغل. «لكن برميل ماء واحد أكثر إيكونوميا من برميلين صغيرين وسعته أكـبر!»، يقول ميشيل منتحباً. فيجيبه ماكس قائلاً إنه أحمق لعين وإنه سيلتزم في المستقبل بما يقال له. فيتمتم برجاء «ساوي بروفا؟» لكنه يحرم حتى من تحقيق هذه الأمنية الصغيرة.

ثـم نقابل الشيخ – صديقنا القديم – يبـدو الآن، بلحيته المصطبغة بالحنـاء، شبيهاً بهنري الثامن أكثر مـن أي وقت مضى. يرتدي جلبابه الأبيض المعهـود وقد لف جسده بعبـاءة خضراء بلـون الزمرد. يبدو مزاجـه طيباً للغاية، لأنه يبلغنا بنيته زيارة بغداد خلال وقت قصير على الرغم مـن أن استصدار جواز سفره يتطلب بضعـة أسابيع بالطبع. ثم يقـول لماكس: «أخي. كل ما لي هو لك. بـل إنني لم أنثر بذرة واحدة هذا العام كي تكون الأرض رهن تصرفك». فيجيبه ماكس: «كم هي سعادتي كبيرة لأن الشهامة التي أبديتها صبت في صالحك. فالمحصول هذه السنة سيء للغاية وسيمنى كل من زرعوا أرضهم بخسائر كبيرة. سوف يهنئك الجميع على فطنتك».

هكذا، يفترق الرجلان على وفاق، وقد نالت المجاملات نصيبها.

فنقفز إلى ماري الزرقاء ويفرغ ميشيل حملاً من البطاطس والبرتقال فوق صندوق قبعاتي فيسحقه وتصيح الدجاجات احتجاجاً. يرجونا العديد من العرب والأكراد أن نقلهم معنا، فنوافق على اصطحاب اثنين، فيحشران نفسيهما بين الدجاج والبطاطس والأمتعة. وننطلق إلى شاغر بازار.

الفصل السابع

الحياة في شاغر بازار

ألمح من بعيد، بكثير من الإثارة، منزلنا. إنه ينتصب هناك بقبته فيبدو كمقام مكرس لأحد الأولياء الصالحين!

يخبرني ماكس أن الشيخ فخور للغاية بهذا المنزل. إذ يطوف حوله، بين الفينة والأخرى، مع أصدقائه بإعجاب. بل إن ماكس يظن أن الشيخ يجمع المال بواسطته تحت زعم أن المنزل له وأننا مجرد مستأجرين.

تتوقف ماري الزرقاء أمام المنزل بفرامل ميشيل العنيفة (فرقع!) المعهود ويسارع جميع من في الداخل إلى الخروج للترحيب بنا. هنالك وجوه قديمة وأخرى جديدة.

ديمتري الطاهي هو نفسه بوجهه الطويل اللطيف الذي يوحي بالأمومة. يرتدي سروالاً من قماش الموسلين عليه رسوم أزهار تشع بهجة. يمسك يدي ويضعها على جبهته ثم يريني بفخر صندوقاً خشبياً فيه أربعة جراء حديثة الولادة قائلاً إنها ستصبح، في المستقبل، كلاب حراستنا. هناك، كذلك، الفتى علي الذي كان، بدوره، معنا في السنة الماضية. إنه الآن يشعر بشيء من التفوق مع استخدام مساعد طاه آخر أقل مرتبة اسمه فرهيد. ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عن

فرهيد باستثناء أن هناك، على الدوام، ما يجعله قلقاً. لكن ماكس يؤكد لي إنها طبيعة متأصلة في فرهيد.

لدينا الآن مدبر منزل جديد اسمه صبري. وهو طويل القامة ومتين البنيـان ويبـدو عليه الـذكاء الشديد. يكشـر كاشفاً عن أسنـان بيضاء وذهبية منضدة بتناسق.

يجهـز الكولونيل وبامبس الشاي من أجلنا. يقوم الكولونيل بكل شـيء بانضباط عسكري. فقد أرسى نظاماً جديداً يكون على الرجال بموجبـه الاصطفاف بانتظام عند استلام البقشيش. هم يرون في الأمر نكتـة كبـيرة. أما الكولونيـل، فينفق الكثـير من الوقـت على ترتيب الرتل. وقد وجد في الأيام التي سافر فيها ماكس إلى القامشلي فرصته الكـبرى. إذ يعلن بفخـر أن المنزل أصبح الآن دقيقـاً كدبوس جديد. فكل ما له مـكان أصبح في مكانه والكثير من الأشياء التي لم يكن لها مـن مكان صار لها مـكان الآن! إلى درجة سوف تتسبب بكل أنواع الإزعاجات!

أمـا بامبس فهو معمارينـا الجديد. ولقبه هـذا مشتق من ملاحظة بريئـة أبداها للكولونيـل أثناء رحلتهما. فقد رفـع بامبس ستائر نافذة القطـار أثنـاء اقترابه من نصيبين مع شروق الشمـس ونظر باهتمام إلى البلاد التي سوف يمضي فيها الأشهر القليلة القادمة.

«كم هو مثير للفضول هذا المكان. الكدمات في كل مكان!»[٢٤].

فيصرخ الكولونيل: «كدمات؟ ألا تدرك، أيها الزميل غير الموقر، أن

٢٤–الترجمة الإنكليزية لكلمة كدمة هي *bumps*. ومن هنا جاء لقب المهندس المعماري *bumps* أي كدمات (المترجم)

كل كدمة من هذه الكدمات هي مدينة تعود إلى آلاف من السنين؟».

منذ تلك اللحظة، التصق لقب بامبس بصاحب التعليق!

هنالـك مقتنيات جديدة يجب أن نلقي عليها نظـرة. لدينا، أولاً، سيارة سيتروين مستعملة يطلق الكولونيل عليها اسماً هو بيلو.

يتبين، مع مرور الوقت، أن بيلو سيد في غاية المزاجية. فهو، لسبب أو لآخر، يختار الكولونيل كي يسيء التصرف معه، فيرفض الاشتغال بعناد أو يتعطل في مكان غير مناسب.

لكـن حل هذا الغموضـ يهبط علي، ذات يـوم، كالوحي فأشرح للكولونيل أن الخطأ خطأه.

«ما الذي تعنينه بكلمة خطئي؟»

«ما كان عليـك أن تسميها بيلو. فإن كانت سيـارة النقل لدينا قد بـدأت باسـم هو كوين مـاري، فإن أقل مـا كان يمكنك فعلـه هو أن تناديها باسم الإمبراطـورة جوزيفين. فلو أنك فعلت ذلك، لما عانيت من المتاعب!».

يقـول الكولونيـل، بما هو عليه من روح الانضبـاط، إن الوقت قد فات على كل حال. فبيلو هو بيلو وعليه أن يعلم نفسه حسن السلوك. أرمـق بطرف عيني بيلو الذي يبـدو وكأنه يراقب الكولونيل باستهتار ويسـاورني إحساسـ قوي أن بيلـو يفكر في ارتـكاب أخطر الجرائم العسكرية – العصيان!

بعد ذلك، يسارع رؤساء العمال كي يرحبوا بنا. يبدو يحيى ككلب سعيد أكثر من أي وقت مضى. أما علاوي، فوسيم للغاية كما هو على الدوام في حين أنه يوجد لدى العجوز عبد السلام الكثير ليقوله.

أسأل ماكس عن حال الإمساك الذي يعاني منه عبد السلام، فيجيبني أن معظم الأمسيات خصصت لنقاشات مضنية حول هذا الشأن!

ثم نمضي إلى غرفة الأنتيكات. كانت حصيلة الأيام العشرة الأولى من العمل وفيرة وأدت إلى اكتشاف حوالي مائة رقيم فأحس الجميع بالبهجة. سوف نبدأ، التنقيب في تل براك، كما في شاغر بازار، في غضون أسبوع من الآن.

أشعر، لدى عودتي إلى البيت في شاغر بازار، وكأنني لم أغادره قط، على الرغم من أن المنزل يبدو الآن، بفضل ولع الكولونيل بالنظام، أكثر ترتيباً بكثير من أي يوم مضى. وهو أمر يذكرني بقصة أجبان كاماميير الحزينة.

فقد اشترى ماكس ست قطع من جبن كاماميير من حلب وفي ظنه أنه يستطيع التعامل مع هذا النوع من الجبن كما يعامل الجبن الهولندي وأنه يستطيع تخزينه كما يشاء. أكلت قطعة واحدة من الجبن قبل وصولي، ثم قام الكولونيل، الذي وقع، أثناء ترتيب المنزل، على القطع الخمس الباقية، بتكديسها بإتقان خلف خزانة في غرفة المعيشة. وهناك، اكتسبت قطع الجبن هذه طبقة من ورق الرسم وورق الآلة الكاتبة ورماد السجائر، الخ... وذبلت في الظلام وأصبحت طي النسيان وغير مرئية، وإن لم تكن غير مستنشقة إن جاز القول.

إذ لم يمض أسبوعان حتى بدأنا، جميعنا، نشم ونخمن.

« لست واثقاً أنه ليس لدينا أي مصارف للمياه»، قال ماكس.

«ثم إن أقرب خط للغاز يبعد عنا مائتي ميل».

«لذلك أظن أنه لا بد أن يكون فأراً ميتاً».

«بل جرذ ميت على أقل تقدير!».

أصبحت الحياة في الداخل لا تطاق، فأطلقنا عملية بحث دؤوب عن الجرذ المتفسخ المزعوم. عندها، وعندها بالذات، اكتشفنا كتلة هلامية كريهة الرائحة كانت، ذات يوم، خمس قطع من جبن كامامبير، تجاوزت المرحلة السائلة إلى المرحلة الغازية.

تتجه نظرات الاتهام إلى الكولونيل على الفور ونعهد بالبقايا المروعة إلى منصور كي يدفنها في مكان بعيد عن بيتنا. ثم يشرح ماكس للكولونيل بانفعال كيف أن هذه الحادثة تؤكد له ما كان يعرفه على الدوام – وهو أن التنظيف خطأ كبير! فيرد الكولونيل قائلاً إن التنظيف، بحد ذاته، لا عيب فيه والدليل على ذلك هو أن تنظيف البيت من قطع الجبن فكرة حسنة وأن الخطأ يكمن في سهو علماء الآثار الذين لا يتذكرون أن لديهم جبن كامامبير في البيت. أما أنا فأقول لهما إن الخطأ الحقيقي هو شراء جبن كامامبير ناضج بكميات كبيرة وتخزينه! ويتساءل بامبس عن المغزى من شراء جبن كامامبير أصلاً. فهو لم يستسغ هذا النوع من الجبن يوماً! في حين يمضي منصور ببقايا الجبن بعيداً ويدفنها بامتثال، لكنه في الواقع يشعر بالحيرة. يبدو أن الخواجات يحبون هذه الأشياء لأنهم دفعوا مبلغاً كبيراً من المال لشرائها. لكن لماذا يتخلصون منها عندما تصبح مزاياها الجيدة أكثر ظهوراً مما كانت عليه من قبل؟ لا بد أن ذلك جزء من العادات الاستثنائية للمخدومين!

تختلف مشاكل الخدم في حوض الخابور عن مثيلاتها في إنكلترا. يمكنك القول إن الخدم هنا يعانون من مشكلة اسمها المخدوم!

فنزواتنـا وآراؤنا ومـا نحب وما نكره غريبة للغايـة وهي، بالنسبة إلى العقل المحلي، لا تتبع أي نسق منطقي.

فهنالك، على سبيل المثال، أنواع متعددة مـن قطع القماش ذات نقوش مختلفة وألوان حواف مختلفة تستخدم كل منها لغاية محددة. فلم كل هذا الترتيب؟

ولمـاذا، عندما يستخـدم منصور منديـل مائدة ذا إطـار أزرق في إزالـة الطين عن مبرد السيارة، تخرج خاتون غاضبة من المنزل وتمطره باللعنات وقد أزالت قطعـة القماش هذه الطين بنجاح منقطع النظير؟ ثم تتميز غضباً دون سبب وجيه عندما تدخل إلى المطبخ وتكتشف أن أدوات الطعام تجفف بعد تنظيفها بقطعة قماش؟

فيحتج منصور محاولاً تبرئة نفسه: «لكنني لا أستخدم قماشاً نظيفاً في هذا الأمر. إنها مجرد قطعة قماش قذرة !».

بيد أن التبرير الذي يقدمه يزيد الطين بلة، على ما يبدو، بشكل غير مفهوم على الإطلاق.

وعلى الصورة نفسها، يصبح ابتكار المدنية أدوات المائدة، بالنسبة إلى خادم قلق، مصدراً لصداع مزمن.

لقـد راقبت منصور، أكثر من مرة، من خلال الباب، وهو يحاول، بكثير من العصبية، تنسيق المائدة من أجل الغداء.

يقـوم، أولاً، بترتيب غطاء الطاولـة – ويختبر في هذا الأمر مختلف الأساليب الممكنة ويتراجع إلى الخلف، في كل مرة كي يحدد الأسلوب الأفضل من الناحية الجمالية.

ثم يختار، بصورة لا يحيد عنها، أن يمد الغطاء على عرض الطاولة

بحيـث يتدلى بأناقة من جانبيهـا الطوليين ويتكشف جزء من سطحها علـى طول بوصة أو بوصتين من جهـة الرأسين. ويهز رأسه راضياً ثم ترتسـم علامـات التجهم على جبهته ويحدق في سلـة من القش شبه متآكلـة اشتراها أحدهم بثمن زهيد من بـيروت تضطجع فيها أدوات المائدة بانسجام.

وهنـا، نصل إلى لـب المشكلة. يستجمـع منصور طاقاتـه العقلية ويضع، بكل الحرص الواجب، شوكة على صحن كل فنجان وسكيناً إلى يســار كل طبق. ثم يتراجع إلى الـوراء ويميل رأسه إلى أحد الجانبين كـي يدرس النتيجة. ويهز رأسه ويتنهد. هنالك، على ما يبدو، ما ينبئه أن هـذا الترتيب غير صحيح. وهنالك، على ما يبدو كذلك، أمر ينبئه أنـه لن يتقن المبدأ الحاكم للتشكيـلات المختلفة التي يمكن تركيبها من الأشيـاء الثلاثـة التي هي السكـين والشوكة والملعقة. بـل إن الترتيب الـذي يعتمده في توزيـع الشوكات من أجل الشـاي، الذي هو أكثر الوجبات بساطة، لا يلقى القبول. إذ أننا نطلب، لسبب ما عصي على الفهـم، سكيناً، في حين لا يوجد ما يستوجب تقطيعه ! الأمر ببساطة شديدة بلا معنى.

بهـذه الطريقـة ينفذ منصـور مهمته المعقـدة مختتماً إياهـا بتنهيدة عميقة. لكنه اليوم، بالتحديد، عازم على إرضائنا. فيلقي نظرة أخرى علـى المائدة. ويضيف شوكتين إلى يمـين كل طبق وملعقة أو سكيناً إلى يساره. ثم يأخذ نفساً عميقاً ويضع الأطباق في مكانها وينحني فوقها وينفـخ بقوة كي يزيل أثر أي غبار قد يكـون عالقاً بها. ويغادر الغرفة مترنحاً نتيجـة للمجهود الذهني الذي بذله ويعلـم الطاهي أن المائدة جاهـزة وأنه يستطيع أن يخرج العجة مـن الفرن الذي أبقاها فيه على

مــدى الدقائق العشرين الأخيرة كي تحتفـظ بحرارتها وتكتسب طبقة قاسية وشهية.

عندئذ، يتم إرسال فرهيد في طلبنا، فيصل إلينا ونظراته تشي بالقلق وكأنــه على وشك إبلاغنا بوقوع كارثة، فنتنفس الصعداء عندما يبلغنا إن العشاء جاهز.

نتنــاول هذه الليلــة كافة الأطباق التي يعتبرها ديمــتري الأكثر رقياً. فنبــدأ بالمقبلات التي تتضمــن بيضاً مسلوقــاً مطهــواً بالمايونيز الغني وسمــك السرديــن والفاصولياء البــاردة والرنكة. ثم يقــدم لنا الطبق الــذي يمتاز به ديمتري وهو كتــف (؟) الضأن المحشــو بالرز والزبيب والتوابــل. وهذا الطبق حافل بالغموضــ. إذ يوجد خيط قطني طويل عليك أن تقطعه أولاً ثــم تستطيع، بعد ذلك، الحصول على أجزاء من الحشــوة بسهولــة، أما اللحم الفعلــي فيفلت منك، قبــل أن تكتشف الضــأن الفعلي، وقد أوشكــت على الانتهاء من الطبــق ووصلت إلى شريحــة اللحم المغلفة للحشوة! ثم نتنــاول الكمثرى المعلبة. إذ يحظر على ديمتري أن يصنع الحلــوى الوحيدة التي يتقنها ونبغضها جميعنا، وهي الكريم كاراميل. وبعد العشاء، يعلن الكولونيل، باعتزاز، أنه علم ديمتري صنع فاتح شهية.

توزع علينا أطباق في كل طبق منها شريحة صغيرة من الخبز العربي المطهو بالدهن الحــار مذاقها كالجبن إلى حد ما. فنفاتح للكولونيل بأن فاتح شهيته هذا لا يروق لنا كثيراً!

ثم توضع على الطاولة بعض الحلويات التركية وفاكهة مجففة لذيذة من دمشق. وفي تلك اللحظة، يصل الشيخ في زيارة مسائية. كان قرارنا التنقيــب في شاغر بازاز قد غير حاله بصــورة جذرية من رجل مفلس

بصورة لا رجاء فيها إلى رجل يمكن للذهب أن ينهمر عليه كالشلال في أية لحظة. لقد اقتنى لنفسه، بحسب روايات رؤساء العمال، زوجة أيزيدية حسناء، مستغلاً الوضع الجديد، وازدادت ديونه بشكل هائل نتيجة حصوله على قرض جديد! معنوياته مرتفعة بالتأكيد. وهو، كالعادة، مدجج بالسلاح. ينزع بندقيته بلا مبالاة ويعلقها في إحدى الزوايا ويسهب في شرح مزايا المسدس الأوتوماتيكي الذي اشتراه للتو.

يقول: "أترى؟"، مسدداً فوهة المسدس إلى الكولونيل. "الآلية هي هكذا- ممتازة وبسيطة. تضع إصبعك على الزناد بهذا الشكل وتخرج الرصاصات الواحدة تلو الأخرى".

يسأله الكولونيل بصوت مخنوق إن كان المسدس محشواً.

إنه محشو بالطبع، يجيبه الشيخ بدهشة: ما نفع المسدس إن لم يكن محشواً؟

فيغير الكولونيل، الذي يحمل خوفاً عسكرياً مبرراً من الأسلحة المحشوة المسددة باتجاهه، مكان جلوسه على الفور ويحاول ماكس إلهاء الشيخ عن دميته الجديدة عارضاً عليه الحلوى التركية. فيخدم الشيخ نفسه بسخاء ثم يمص أصابعه بإعجاب ويطوف ببصره علينا وقد أشرق وجهه.

آه"، يقول وقد لاحظ انشغالي بالكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز. "خاتونك تقرأ إذن؟ لكن هل تكتب كذلك؟"

يجيبه ماكس بالإيجاب.

فيقول الشيخ بإعجاب: "يا لها من خاتون متعلمة. وهل تصف

العقاقير للنســاء؟ إن كانت كذلك، فسوف تأتــي زوجاتي إليها ذات مساء كي يشرحن لها آلامهن".

فــيرد ماكس إن زوجات الشيــخ مرحب بهن لكن هذه الخاتون لا تفهم الكثير من اللغة العربية لسوء الحظ.

فيهتف الشيخ: "سنتدبر الأمر، سنتدبر الأمر".

ثم يستعلم ماكس منه عن رحلته إلى بغداد.

فيقــول الشيــخ: "لم يجــر الترتيــب لها بعــد. هنالــك الكثير من الصعوبات والشكليات".

ينتابنا شك كبــير في أن الصعوبات ذات طبيعة مالية. إذ أن هنالك شائعــات تقــول إن الشيخ أنفق كل المال الذي تلقــاه منا بالإضافة إلى الخوة التي تقاضاها من عمال قريته.

ثم عوداً على بدء: "في أيام البارون...".

لكن ماكس يتحايل عليه قبل أن يأتي على ذكر الذهب بسؤاله عن الايصــال الرسمي بمبلغ الستين لــيرة سورية الذي ناله الشيخ. "سوف تطلبه الحكومة".

فيغير الشيخ الحديث على الفور ويتحدث عن صديق عزيز وقريب يقــف في الخارج وعينه في حالة سيئة. فهلا خرجنا وألقينا نظرة عليها وقدمنا له النصح؟

نخرج في الظلام ونتفحص العين بالاستعانة بنور كشاف. لا شك أن الأمر يفوق طاقتنا. فالعين في حال سيئة للغاية. هكذا عين يجب أن يراها طبيب، يقول ماكس. ثم يضيف وبأسرع ما يمكن.

يهــز الشيخ رأســه. سيذهب صديقه إلى حلب. فهــل لنا أن نعطيه

رسالة للدكتور ألتونيان هناك؟ يبدي ماكس موافقته ويبدأ في كتابة الرسالة ثم يتوقف قليلاً ويسأل: "هل قلت إن هذا الرجل قريب لك؟"

"نعم".

فيسأله ماكس وهو ما يزال يكتب: "اسمه؟".

يكرر الشيخ السؤال وقد أخذ على حين غرة: "اسمه؟ لا أعرف. علي أن أسأله".

يختفي الشيخ في الظلام من جديد ثم يعود بالمعلومات المتعلقة باسم قريبه وهو محمد حسن.

يقول ماكس وهو يكتب: "محمد حسن".

ثم يسأله الشيخ: "أم أن المطلوب هو اسمه على جواز السفر؟ اسمه على جواز السفر هو داوود سليمان".

ينظر ماكس إليه بحيرة ويسأله عن الاسم الفعلي للرجل.

فيجيبه الشيخ بسخاء: "سمه ما شئت".

يستلم الشيخ الرسالة ويستعيد تجهيزاته الحربية ويباركنا بحرارة ويغيب مع تابعه الغامض في الظلام الدامس.

يبدأ الكولونيل وبامبس نقاشاً حول الملك إدوارد الثامن والسيدة سيمبسون، يليه نقاش آخر حول الزواج بشكل عام سيفضي، بالضرورة، إلى موضوع الانتحار!

عند هذه النقطة أغادرهما وأذهب إلى النوم.

تهب رياح قوية هذا الصباح. تتصاعد قوتها حتى تتحول إلى عاصفة ترابية في منتصف اليوم. يعاني بامبس الأمرين مع قبعته التي

أحضرهـا معـه إلى التل وسط الريـح العاصفة قبل أن ينتهـي الأمر به، أخـيراً، إلى تعليقها حول عنقه. وهنـا، يهب ميشيل، باندفاعه المعهود لمساعدة الغير، لنجدته.

ويقول وهو يشد حزام القبعة بقوة: "فرقع".

فيستحيل لون وجه بامبس قرمزياً وهو يختنق ببطء.

ثم يقول ميشيـل بمرح وهو يشد الحزام بقـوة أكبر: "*Beaucoup forca*" ويصبح وجه بامبس أسود. ويتم إنقاذه في اللحظة الأخيرة!

ينشب شجار حاد بعد العمل بين علاوي ذي المزاج الحامي ونجارنا سركيس. وكما هي العادة، ينشب الخلاف من لا شيء على الإطلاق، لكنه يبلغ مستويات قاتلة.

وهنا يضطر ماكس إلى تقديم واحدة مما يدعوها "خطبه المدرسية". يقـول إن ممارستـه لـدور مدير المدرسة تـزداد إتقاناً من يـوم إلى يوم، وتتدفق منه المواعظ الأخلاقية الباعثة على الغثيان بسهولة ويسر!

الخطبة التي يلقيها مثيرة للإعجاب.

يسألهمـا ماكس: "هـل تتصـوران أن أفكاري وأفـكار الخواجة الكولونيـل وأفكار خواجة عصا المساحة متوافقـة باستمرار؟ وأننا لا نرغب في أن نختلف أحيانـاً؟ لكن هل نرفع أصواتنا ونصرخ ونشهر السكاكـين؟ لا! إننا نلقي كل تلك الأشياء خلـف ظهورنا حتى نعود إلى لنـدن! أما هنا، فنضع العمـل في المقام الأول. في المقام الأول على الدوام! ونضبط مشاعرنا!".

يشعر علاوي وسركيس بتأثر بالغ ويسويان الخلاف بينهما ويبديان كياسة في مسألة من منهما يخرج من الباب أولاً، بطريقة تمس شغاف القلوب وتحلو متابعتها!

يأتي أحد العمال إلى ماكس طالباً إجازة لأربعة أيام. وما حاجته إلى إجازة مدتها أربعة أيام؟ يقول، كي يذهب إلى السجن!

اشترينا دراجة هوائية، دراجة هوائية يابانية زهيدة الثمن. وسوف تصبح هذه الدراجة ملكاً لعلي الصغير ومبعث فخره وسيستخدمها في الذهاب إلى القامشلي مرتين في الأسبوع من أجل إحضار البريد.

يغادر علي في الصباح الباكر وملؤه الإحساس بالأهمية والسعادة ويعود مع حلول ساعة تناول الشاي.

أقول لماكس بارتياب إن المسافة طويلة. فالقامشلي تبعد أربعين كيلومتراً عن هنا. أجري بعض الحسابات الذهنية السريعة وأتمتم "خمسة وعشرون ميلاً– وخمسة وعشرون ميلاً إياباً" ثم أضيف برعب: "ربما يعجز الصبي عن القيام بالرحلة. إنها بعيدة جداً عليه". فيقول ماكس (بقلب متحجر برأيي الشخصي): "آه، لا أظن ذلك". فأتمتم: "لا بد أن يكون منهكاً". وأغادر الغرفة بحثاً عن علي المستنزف، فلا أجد له أثراً.

وأخيراً، يفهم ديمتري ما أتحدث عنه.

علي؟ لقد عاد علي من القامشلي منذ نصف ساعة. وأين هو الآن؟ لقد ذهب بالدراجة إلى قرية جيرماير الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات لزيارة صديق.

يتلاشى قلقي على علي بسرعة ولاسيما عند رؤيتي له واقفاً أمام المائدة في وقت العشاء بوجه مشرق لا تبدو عليه آثار التعب.

يمازحني ماكس متمتماً بإيجاز: "تذكري سويس ميس".

فتتداعى أفكاري إلى زمن سويس ميس.

وسويس ميس هـذه كانت واحدة مـن خمسة جـراء هجينة من تنقيبنـا الأول في الأربجيـة بالقـرب من الموصل. تمتعـت هذه الجراء بأسمـاء (أو بالأحرى فرضت عليها أسماء) علـى شاكلة وولي بوي، بوجـي، وايتفانـغ، وتومبوي وسويـس ميس. ماتـت بوجي صغيرة بسبـب إفراطها في تنـاول الكليجة، وهي نوع مـن المعجنات الثقيلة على نحو خاص يتناوله أبناء الطوائف المسيحية في عيد الفصح. فقد أحضـر عمالنا المسيحيون بعض الكليجة من أجلنا وتحـول الأمر إلى مصـدر للحرج. هكـذا أطعمنا بوجي، خفية، ما بقـي من الكليجة، التـي عانينا، نحن أنفسنا، من نتائجها ناهيك عن عسر الهضم الشديد الـذي أصاب فتاة بريئة كانـت ضيفة لدينا إثر تناولها كمية كبيرة منها مـع الشاي. لكن بوجي دبت إلى الشمـس في الخارج، وهي تكاد لا تصدق حسن طالعها، والتهمت غذاءها الغني وماتت على الفور! كان موتـاً بفعل النشوة – فيه الكثير ممـا تحسد عليه! احتلت سويس ميس، دونـاً عن الجراء الأخـرى، مكانة مميزة لدى السيد. فقـد كانت تأتي إلى ماكـس في ساعة المغيب مع انتهاء العمـل فيقوم بتنقيتها من القراد بعناية. بعد ذلك، تصطف الكلاب أمام المطبخ بانتظام، وسويس ميس في المقدمـة، وتتقدم، الواحد تلو الآخر، عندما ينادى عليها كي تتلقى عشاءها.

ثـم كسرت سويس ميس ساقها في مغامرة ما وعادت وهي تعرج وقـد صارت مريضة للغايـة. لكنها لم تمت علـى كل حال. وعندما حان موعد مغادرتنا الموقع، أثقل مصير سويس ميس كاهلي. فكيف لهـا أن تعيش بعد رحيلنا وهي على هذه الحـال من العرج؟ نافحت أن الأمـر الوحيد الواجب هو أن نأخذها بعيداً عن هذا المكان. إذ لا يمكـن لنـا أن ندعها هنا كي تموت جوعاً. لكـن ماكس لم يلق بالاً لما

قلت، بل طمأنني بتفاؤل أن سويس ميس ستكون على خير ما يرام. فقلت نعم، قد يصح ذلك بالنسبة للكلاب الأخرى، لكن سويس ميس معاقة.

تعمق الجدال وازداد حدة. لكن ماكس خرج في النهاية منتصراً، فغادرنا الموقع بعد أن نفحنا البستاني العجوز مبلغاً من المال داعين إياه إلى "رعاية الكلاب ولاسيما سويس ميس"، لكن دون كبير أمل في أنه سيقوم بذلك. طاردتني المخاوف حول مصير سويس ميس على مدى العامين التاليين وكنت ألوم نفسي باستمرار على عدم اتخاذي موقفاً صارماً. وعند مرورنا التالي بالموصل، ذهبنا إلى بيتنا القديم كي نلقي عليه نظرة. كان البيت خاوياً ولا أثر لحياة فيه. فتمتمت لماكس قائلة: "أتساءل عما حل بسويس ميس".

وفجأة سمعنا صوت زمجرة. كان هنالك كلب جالس على الدرج – كلب مخيف في الواقع (لم تكن سويس ميس جميلة حتى عندما كانت جرواً). ثم نهض الكلب ورأيته وهو يعرج. ناديناها سويس ميس باسمها فاهتز ذيلها قليلاً لكنها استمرت في الزمجرة. ثم، ومن وسط الشجيرات، ظهر جرو صغير وجرى مسرعاً إلى أمه. لا بد أن سويس ميس عثرت لنفسها على زوج وسيم لأن الجرو كان جميلاً للغاية. رمقتنا الأم وابنها برباطة جأش وإن لم تتعرف إلينا بحق.

ففال ماكس بلهجة الظفر: "أترين؟ لقد قلت لك إنها ستكون على ما يرام. وإلا كيف تفسرين بدانتها. سويس ميس ذكية ولذلك كان لا بد أن تنجو. فكري في الأوقات الممتعة التي كانت لتفوتها لو أننا أخذناها بعيداً!".

لم نشتر البغل في النهاية. بل اقتنينا حصاناً، حصاناً حقيقياً، لا

امرأة عجـوزاً، بل حصاناً كبيراً، أميراً بين الخيول. ومع الحصان جاء رجل شركسي لا يمكن فصله عن الحصان على ما يبدو.

"يا له من رجـل!"، يقول ميشيل وهو ينوح بإعجاب. "الشركس يعلمـون كل شيء عن الخيول. إنهم يعيشون مـن أجل الخيول. يا لها مـن رعاية، ويا له من اهتمام ذاك الـذي يوليه هذا الرجل لحصانه! إنه لا يكـف عن الاهتمام براحته. ثم كم هـو مهذب! يا لسلوكه الطيب معي!".

بيـد أن ماكـس لا يبدي أي انبهـار مؤكداً أن الزمـن وحده كفيل بإظهـار ما إذا كان الرجل جيداً. ثم يتم تقديمه لنا. شعره طليق وينتعل حذاء عالياً بما يذكرني، في بعض جوانبه، براقصي الباليه الروس.

يزورنـا اليوم زميـل فرنسي من بعثة مدينة مـاري. ويأتي بصحبته مهندسـه المعماري الذي يبدو، كالكثيرين مـن المعماريين الفرنسيين، أشبه بقديس رديء. لديه واحدة من تلك اللحى الضعيفة العصية على الوصف وهو لا يقول شيئاً باستثناء "*Merci, Madame*" بلهجة رفض مهذب لكل ما يقدم له. ثـم يشرح لنا السيد بارو معاناته المستمرة مع معدته.

يغادر الرجلان بعد زيارة ممتعة ونعبر له عن إعجابنا بسيارته. فيقول السيد بارو بحزن:

«*Oui, c'est une bonne machine, mais elle va trop vite. Beaucoup trop vite*». ويضيف: «*L'année dernière elle a tué deux de mes architectes!*»[٢٥].

٢٥-بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "نعم هي آلة جيدة بالفعل لكنها تسير بأسرع مما ينبغي، بأسرع مما ينبغي بكثير. لقد قتلت اثنين من مهندسي المعماريين في السنة الماضية" (المترجم)

ثــم يركبـان السيارة ويجلس المعمـاري الشبيـه بالقديسين خلف المقود ويقلعان على نحو مفاجئ بسرعة ستين ميلاً في الساعة، مخلفين عاصفـة من الغبار، وسط الحفر والمطبـات ويتلويان في دروب القرية الكرديـة. مـن الواضح أن معماريـاً آخر لم يردعه مصير سلفه سيقع ضحيـة السرعـة الكبيرة لهـذه الآلـة. واللائمة تقع، بـلا ريب، على السيارة! لا على الرجل الذي تضغط قدمه على دواسة السرعة.

الجيش الفرنسي يجري مناورات الآن. وهو أمر يستثير الكولونيل الـذي تستيقظ اهتماماته العسكرية من سباتها في الحال. لكن الضباط الذين يخاطبهم يقابلونه ببرود شديد وينظرون إليه بشك.

أخبره أنهم يظنون أنه جاسوس.

فيتساءل الكولونيل بسخط: «جاسوس؟ أنا؟ كيف لهم أن يفكروا بذلك؟»

«حسناً. من الواضح أنهم فكروا بذلك».

«كل مـا فعلته أنني طرحت عليهم بضع أسئلة بسيطة. هذه الأمور مثيرة للاهتمام من الناحية التقنية. لكن ردودهم ملتبسة للغاية».

كـم إن الأمـر مخيب للكولونيل المسكين الـذي يتوق للتحدث في الشؤون العسكرية لكنهم يردونه على أعقابه بحزم.

وتثير المنـاورات قلق عمالنا، كذلك، وإن بطريقـة مختلفة تماماً. إذ يصل رجل وقور ملتح إلى ماكس.

«هل سيتدخل العسكر في تجارتي يا خواجة؟»

«لا، بالتأكيد لا. هم لن يتدخلوا في الحفر على الإطلاق».

«لا أقصد العمل يا خواجة، بل تجارتي الخاصة».

يسأله ماكس عن تجارته، فيجيبه الرجل باعتزاز أنه يهرب السجائر!

يبدو تهريب السجائر عبر الحدود العراقية علماً قائماً بذاته. إذ ما إن تدخل سيارة الجمارك إلى إحدى القرى في يوم ما، حتى يدخل المهربون إليها في اليوم التالي. يسأله ماكس إن كان رجال الجمارك يعودون مرة أخرى إلى أية قرية سبق لهم زيارتها. فيرمقه الرجل بنظرة عتاب ويقول بالطبع لا. وإن فعلوا، فستكون الكارثة. بهذه الطريقة، يدخن الرجال سجائر كلفتها بنسان لكل مائة سيجارة!

يطرح ماكس على بعض الرجال أسئلة تتناول كلفة المعيشة. يحضر معظم من يأتون من القرى البعيدة كيساً من الدقيق يكفيهم عشرة أيام. ثم يقوم شخص ما من القرية بإعداد الخبز لهم لأنهم يعتبرون صنع الخبز بأنفسهم أدنى شأناً من مقامهم. كما يحضرون البصل حيناً والرز أحياناً أخرى وقد يحضرون حليباً رائباً. نكتشف، بعد جمع الأسعار، أن نفقات معيشة الرجل تبلغ بنسين أسبوعياً.

ثم يأتي عاملان تركيان ويطرحان، بقلق، بعض الأسئلة عن العسكر.

«هل سيثيرون المشاكل لنا يا خواجة؟»

«ولماذا يثيرون المشاكل لكما؟»

يبدو أنه لا يحق لهما عبور الحدود. بيد أن أحد عمال الحفر يطمئنهما قائلاً:

«سيكون الأمر على ما يرام. أنتما تضعان الكوفية».

تقابل القبعة في هذا الجزء من العالم بالضيق وصيحات السخرية من العرب والأكراد من ذوي الكوفيات الذين يشيرون بأصابعهم

بازدراء إلى الرجل التعس الذي يضع غطاء رأس أوروبي امتثالاً لأوامر مصطفى كمال، وهم يصيحون «تركي، تركي!».

يدخل فرهيد بوجهه القلق مع انتهائنا من تناول طعام العشاء، ويبلغنا بنبرة مفعمة بالقنوط أن الشيخ أحضر زوجاته كي يسألن خاتون النصح.

ينتابني شيء من التوتر. يبدو أن صيت حكمتي الطبية قد ذاع. وهو صيت غير مستحق بالتأكيد. لا تتردد المرأة الكردية في وصف أعراض مرضها لماكس بالتفصيل كي يترجمها لي. أما المرأة العربية الأكثر تواضعاً، فلا تأتي إلي إلا إن كنت وحدي، فيهيمن الإيماء على المشهد. يعتبر الصداع من الأمور التي يسهل وصفها وتتلقى المريضة قرص الأسبيرين بخشوع. وفي حين يستطيع المرء أن يميز العين الملتهبة بسهولة، إلا أن شرح كيفية استخدام أملاح البوريك أكثر صعوبة.

أقول: «مي حار» (أي ماء ساخن)

فتكرر: «مي حار».

ثم أقدم عرضاً عملياً باستخدام قرص من البوريك. «مثل هذا!».

تليها حركة إيمائية ختامية تصف كيفية غسيل العينين.

فترد المريضة بالتظاهر بشرب جرعة كبيرة، فأهز رأسي نفياً. إنه للاستخدام الخارجي للعينين. فيخيب رجاء المريضة بعض الشيء. بيد أن رئيس العمال يبلغني، بعد بضعة أيام، أن دواء الخاتون أفاد زوجة أبي سليمان كثيراً. إذ صنعت منه مغطساً لعينيها ثم شربته كله، حتى آخر قطرة!

ويعتبر فرك المعدة من الحركات الإيمائية الأكثر شيوعاً.

وهـذه الحركة تعنـي أمراً من اثنين: (أ) سـوء هضم حاد، (ب) أو شكوى من العقم.

تبلي بيكاربونات الصوديوم بلاء حسناً مع الحالة الأولى، كما أنها حازت على سمعة مفاجئة بعض الشيء في التعامل مع الحالة الثانية.

«كان لمسحـوق خاتونـك الأبيضـ في الموسـم الماضـي مفعول السحر! لقد أصبح لدي الآن ابنان قويان - توأمان!».

بيـد أن استعراضـ إنجازات الماضي لم يحـل دون انكماشي قليلاً أمـام المحنة التي تنتظـرني. لكن ماكسـ يشجعني بتفاؤلـه المعهود. كان الشيـخ قـد أخبره أن زوجته تعاني من عينيهـا. إنها حالة بوريك نموذجية.

نساء الشيخ منقبات بالطبع، على العكس من نساء القرية. ولذلك أحمل مصباحاً إلى حيث سأعاين المريضة في مستودع صغير خاو.

ينبس الكولونيل وبامبس ببضع ملاحظات سفيهة ويبذلان كل ما في وسعهما لإزعاجي وأنا في طريقي إلى حجرة المعاينة.

يقف هناك، في عتمة الليل في الخارج، حوالي ثمانية عشر شخصاً. يزمجـر الشيخ مرحباً بماكسـ بسرور ويلوح بيده لخيـال منقب فارع الطول.

ألقي عبارات الترحيـب التقليدية وأتجه إلى المستودع الصغير على رأسـ خمس نساء، لا امرأة واحدة. النساء يشعرن بالكثير من الإثارة وهن يثرثرن ويضحكن.

يغلق باب المستودع علينا ويقف ماكس والشيخ في الخارج لتقديم ما قد يلزم من خدمات الترجمة.

أشعـر، في مواجهة هذا العدد من النساء، بشيء من الارتباك. هل كلهن زوجات؟ وهل كلهن في حاجة إلى الرعاية الطبية؟

ثـم ترفع النقب. واحـدة من النسـاء فتية وطويلـة القامة وجميلة للغايـة. أتصور أنها قد تكـون الزوجة الأيزيدية الجديـدة التي اقتناها الشيـخ بمقدم إيجـار الأرض. أما الزوجة الرئيسيـة، فأكبر سناً بكثير، وتبـدو في الخامسـة والأربعـين من العمـر وربما تكـون في الثلاثين. وكلهن متزينات بالحلي ويبدون مرحات ويتمتعن بجمال كردي.

تشـير المرأة التي هي في منتصف العمر إلى عينيها وتمسك وجهها. ليست هذه الحالة مما يمكن علاجـه بأملاح البوريك للأسف الشديد. إنها تعاني، إن أمكن القول، من نوع خبيث من أنواع تسمم الدم.

أرفـع صوتي مخاطبـة ماكس. إنه تسمم. أظن أنـه تسمم في الدم. يجـب أن تذهـب إلى طبيب أو مستشفى في دير الـزور أو حلب كي تتلقى الحقن المطلوبة.

يترجـم ماكـس ما قلتـه للشيخ الذي يبـدو كما لو أنـه أغرم بهذا التشخيص. ثم يناديني ماكس:

«إنــه معجـب للغاية بذكائك. هذا بالضبط ما قالـه له أحد الأطباء في بغـداد. وقد قال لـه الطبيب، هو أيضاً، أنها يجـب أن تأخذ '*des piques*'[٢٦]. أمـا وأنـك تقولين الأمـر نفسه، فسيأخـذ الشيخ هذا التشخيص على محمل الجد. وسوف يصطحب زوجته، في وقت ما، إلى حلب بالتأكيد».

أقول إنه يفعل حسناً إن أخذها في أقرب وقت ممكن.

٢٦- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: حقناً (المترجم)

هـذا الصيف، يقـول الشيـخ، أو على أبعد حـد، في الخريف. لا حاجة إلى العجلة. فكل شيء بمشيئة الله.

الزوجـات الأصغر سناً، أو مهما يكـن شأنهن، يفحصن ملابسي بشغـف ومرح. أعطي المريضة بعض أقراصـ الأسبيرين لتسكين ألمها وأنصحها باستخدام مغاطس الماء الساخن وما إلى ذلك. بيد أنها تبدو أكثر اهتماماً بمظهري منه بحالتها الصحية. أقدم لهن الحلويات التركية ونضحك جميعنا ونبتسم وتتلمس كل منا ملابس الأخرى.

وأخيراً، تعيد النساء وضع النقاب آسفات ويغادرن. أما أنا، فأعود إلى غرفة المعيشة بأعصاب محطمة.

أسـأل ماكـس إن كان يظن أن الشيخ سيأخذهـا إلى المستشفى في وقت ما، فيجيبني ماكس إنه ربما لن يفعل.

يذهب ميشيل اليوم إلى القامشلي مع غاسلة الملابس ولائحة طويلة مـن المشتريات. وعلى الرغم من أن ميشيل لا يتقـن القراءة والكتابة، إلا أنه لم ينس يوماً بنداً واحداً وهو قادر على تذكر الأسعار التفصيلية لـكل مادة، ناهيك عن نزاهته التي تبلغ حـدود الوسواس الأمر الذي يعوض عن الكثير من سجاياه المزعجة الأخرى التي يمكنني أن أضعها في لائحة بالترتيب التالي:

صوته المنتحب ذو النبرة المرتفعة.

ميله إلى القرع على "التوتية" أسفل نافذتك.

محاولاته الواعدة قتل المسلمين على الطريق.

قدراته في الجدال.

لدينا الكثير من الصور الضوئية اليوم وأتعرف إلى حجرتي المظلمة

الجديـدة التي تمثل، بلا ريب، تطـوراً كبيراً عن «زنزانة برج لندن» في عامـودا. إذ أستطيع أن أعمل فيها بقامـة منتصبة كما أنها تضم طاولة وكرسياً.

لكـن جدرانهـا، وبسبـب كونها إضافـة حديثة إلى البيـت، إذ لم يمض على بنائها سوى بضعـة أيام قبل وصولي، ما تزال رطبة. هنالك نـوع غريب من الفطور ينمو على الجـدران، وعندما يحتجز المرء بين جدرانهـا في نهار حـار، فإنه لا يخـرج منها في نهاية اليـوم إلا وقد أوشك على الاختناق بالفعل!

نفـح ماكس الصبـي الصغـير الذي يجلس في الخـارج ويغسل الخزفيات قضيباً من الشوكولا. الصبي الصغير يعترض دربه هذه الليلة :

"أتوسـل إليك يا خواجة أن تخبرني باسم تلك الحلوى. إنها لذيذة المـذاق إلى درجـة لم تعد معها تعنيني الحلويات التـي تباع في البازار. علي أن أشتري هذه الحلوى الجديدة ولو كان ثمنها مجيدية كاملة!".

أقـول لماكس إنـه عليه أن يشعر كأنه خلـق مدمناً على المخدرات. فتناول الشوكولا يؤدي إلى التعود.

فيجيبني بأن الأمر لا يشبه ما حدث لرجل عجوز قدم له قطعة من الشوكـولا في السنة الماضية. فقد شكـره الرجل بكياسة ووضعها في ثنايا ردائه. لكـن ميشيل الفضولي سألـه إن كان سيأكلها قائلاً: "إنها لذيذة". فأجابه العجوز ببساطة: "إنها جديدة وقد تكون خطرة!".

اليـوم هو يوم عطلتنا فنغـادر إلى تل براك لإجـراء بعض الترتيبات هنـاك. الأكمة نفسها تبعد عن نهر جغجغ ميلاً واحداً تقريباً، فتكون المسألـة الأولى التي ينبغي حلها هي مشكلـة الماء. كنا قد وظفنا حفار

آبار محلي بالفعل، لكن الماء الذي تم استخراجه من التل كان أكثر ملوحة من أن يصلح للشرب. فعلينا، لهذا السبب، أن نجلب الماء من النهر. ومن هنا كان الرجل الشركسي والعربة وبراميل الماء (والحصان الذي ليس بامرأة عجوز). نحتاج كذلك إلى خفير كي يقيم عند الحفريات.

أما في ما يخصنا، فنستأجر منزلاً في القرية الأرمنية الواقعة على النهر. معظم منازل القرية مهجورة. أنفقت مبالغ كبيرة على بناء هذه المستوطنة - لكن دون ترتيب صحيح للأولويات على ما يبدو. فالبيوت (أكواخ بائسة من الطوب الطيني على الرغم من أنها قد تبدو جميلة للعين الغربية!) كانت في الواقع أكثر طموحاً مما ينبغي وأكبر وأشد تعقيداً مما هو مطلوب، في حين لم تول ناعورة الماء التي يعتمد عليها الري ونجاح المستوطنة برمتها ما تستحقه من الاهتمام لأنه لم يكن هناك ما يكفي من المال لبنائها كما ينبغي. وقد بدأت هذه المستوطنة على شكل كومونة. إذ تم تزويدها بالأدوات والحيوانات والمحاريث وما إلى ذلك على أن يتم تسديد ثمنها من الأرباح التي تحققها القرية. لكن ما حصل بالفعل هو أن الناس هناك بدؤوا يتعبون من الحياة في البرية وصاروا يتمنون العيش في مدينة، فغادروا القرية، الواحد تلو الآخر، مصطحبين معهم أدواتهم وتجهيزاتهم. والنتيجة أنه أصبح ينبغي استبدال الأدوات باستمرار وأخذت ديون من بقوا في القرية واستمروا في العمل فيها بالتراكم لبالغ ذهولهم. وأخيراً، تعطلت الناعورة تماماً وارتكست المستوطنة إلى مجرد قرية - قرية ساخطة إلى حد ما. المنزل الذي استأجرناه مهيب تماماً بما يتمتع به من جدار يطوق فناء و"برج" حقيقي من طابقين يقع على أحد جوانبه. ويواجه البرج، من الجهة الأخرى، صف من الغرف تفتح كل منها على الفناء. سركيس النجار منهمك الآن بإصلاح المشغولات الخشبية

للأبواب والنوافذ. وبذلك لم يبق سوى بعض الغرف التي تصلح للإقامة.

نرسل ميشيل كي يحضر الخفير الجديد من قرية تبعد ميلين بالإضافة إلى خيمة.

يبلغنا سركيس أن غرفة البرج هي الأكثر جاهزية. فنرتقي بضع درجات ونجتاز سطحاً صغيراً ونصل إلى غرفتين. نتفق على تزويد الغرفة الداخلية بسريرين عسكريين على أن نخصص الغرفة الخارجية لتناول الطعام، الخ... النوافذ مزودة بمصاريع خشبية ذات مفصلات، لكن سركيس سيضيف بعض الألواح الزجاجية.

يعود ميشيل ويبلغنا أن الخفير الذي أرسلناه إليه كي ينقله إلى الأكمة لديه ثلاث زوجات وثمانية أطفال والعديد من أكياس الدقيق والرز وعدد من المواشي، بما يجعل نقلهم جميعاً بعربة النقل مستحيلاً. فماذا نفعل؟

يغادر ميشيل من جديد مزوداً بثلاث ليرات سورية وتعليمات تقضي بنقل كل ما يمكن نقله على أن يستأجر الباقون حميراً كي تقلهم إلى التل.

يظهر الشركسي على حين غرة وهو يقود عربة الماء ويغني ويلوح بسوط طويل. العربة مطلية بطلاء أزرق فاقع وأصفر والشركسي ينتعل حذاء عالياً ويرتدي ملابس مرحة، فيبدو المشهد برمته أقرب إلى الباليه الروسي أكثر منه في أي يوم مضى. يترجل الشركسي ويفرقع بسوطه ويستمر في الغناء وهو يمشي مترنحاً. من الواضح أنه ثمل للغاية!

عثرة جديدة من عثرات ميشيل!

يتـم صـرف الشركسي وإحضـار عبد الحسن، وهـو رجل جدي وسوداوي يقول عن نفسه إنه يفهم الخيول.

ينفـذ الوقـود منا أثناء عودتنـا إلى البيت على بعـد ميلين من شاغر بازار. فيلتفت ماكس إلى ميشيل بغضب ويشتمه.

فيرفع ميشيل يديه إلى السماء ويندب براءته المكلومة.

لقـد قام بما قام به مـن أجل صالحنا. لقد كان يريـد أن يستفيد من الوقود حتى آخر قطرة.

"ألم أخـبرك، أيها الأحمـق، أن تملأ الخزان باستمـرار وأن تحتفظ بصفيحة احتياطية؟"

"ليـس هناك مـن متسـع لصفيحة احتياطيـة ناهيك عـن أنها قد تسرق".

"ولماذا لم تملأ الخزان بالوقود؟"

"أردت أن أعرف المسافة التي يمكن للسيارة أن تجتازها بما لدينا".

"غبي!".

فيقول ميشيل باسترضاء: "ساوي بروفا" فيستشيط ماكس غضباً. أما نحن فتراودنا رغبـة جامحة في "فرقعة" ميشيل فيما هو مستمر في التحديق فينا كرجل نزيه بريء أدين من غير وجه حق!

يكظـم ماكس غيظـه لكن دون أن يمتنع عن القـول إنه يستطيع أن يرى الآن لماذا ذبح الأرمن!

نعـود إلى البيت أخيراً فيرحب بنا فرهيد الذي يعرب عن رغبته في "التقاعد" لأنه لا يكف عن الشجار مع علي!

الفصل الثامن

شاغر وبراك

لـكل عظمة قصاص. يعتبر صبري، بين الخادمـين اللذين يعملان لدينا، الأفضل بلا منازع. فهو يتميز بالذكاء والرشاقة والتكيف وهو، فـوق ذلك، مرح على الدوام. أما مظهره العـام الذي يتسم بالشراسة وسكينـه الكبير المشحـوذ بعناية الذي يضعه تحـت وسادته في الليل، فأمـران هامشيـان! والحقيقـة أنـه في كل مرة يطلب إجـازة، يكون ذلـك من أجل زيارة قريب قابع في السجن في دمشق أو في أي مكان آخر لارتكابه جريمة قتل! يقـول صبري بجدية بالغة، إن تلك الجرائم ضرورية كلها لأنها تتصل بأمور تتعلق بشرف العائلة أو هيبتها. ودليله على ذلك أن الجناة في كل تلك الجرائم لم يتلقوا أحكام سجن طويلة.

فصبري، على الرغم مـن كل شيء، هو الخادم المفضل بما لا يقارن - لكـن منصور هو من يحتـل منصب كبير الخدم بفعـل الأقدمية في الخدمة. وعلى الرغم مـن أن منصور يجسد مقولة ماكس حول كونه أغبـى مـن أن لا يكون نزيهـاً، إلا أنه، ولأقلها بصراحـة، مصدر دائم للصداع!

ولكونه كبير الخدم، يقوم منصور على خدمتي وخدمة ماكس، في حين يحظى الكولونيل وبامبس، بسبب كونهما أدنى رتبة، بخدمات الذكي والرشيق صبري.

يسيطر علي، منذ الصباح الباكر أحياناً، شعور بالاشمئزاز من منصور! إذ يدخل إلى الغرفة، بعد أن يقرع بابها ست مرات تقريباً، والشك ما يزال يعتمل في صدره حول ما إذا كان هو المقصود بالفعل بكلمة «ادخل» المتكررة. ويقف في الداخل وتثقل أنفاسه وفي يديه فنجانان من الشاي الثقيل لا يكادان يتوازنان.

ثم يتقدم ببطء جاراً قدميه على الأرض ويتحول تنفسه إلى شخير ويضع أحد الكوبين على الكرسي الموجود بجوار سريري، فينسكب معظم الشاي فيه على الصحن. وترافقه، مع اقترابه، رائحة بصل في أفضل الأحوال وثوم في أسوئها، والرائحتان غير مستساغتين حقاً في الخامسة صباحاً.

يصيب الشاي المسفوح منصور بالقنوط. فيحدق إلى الأسفل إلى الكوب والصحن ويهز رأسه ويشير إليهما بإصبعه بحزن.

فأقول له بصوت شرس نصف مستيقظ: «دعه!».

يأخذ منصور نفساً عميقاً ويجر قدميه إلى الجهة الأخرى من الغرفة حيث ينام ماكس ويكرر الدور بحذافيره.

ثم حينذاك، يتحول اهتمامه إلى المغسلة. فيحمل الحوض الخزفي بحذر ويتجه إلى الباب ويفرغ محتوياته في الخارج، ثم يعود بالحوض ويسكب فيه ما مقداره نصف بوصة من الماء وينكب عليه بإصبع واحد. تستمر تلك العملية عشر دقائق تقريباً، يتنهد بعدها ويذهب إلى الخارج كي يعود بصفيحة كيروسين مملوءة بالماء الساخن ويضعها أرضاً ويخرج بمشية متثاقلة ويصفق الباب خلفه بطريقة تجعله يفتح من جديد على الفور!

أتناول الشاي البارد وأنهض من السرير وأنظف الحوض بنفسي

وألقي الماء في الخارج وأوصد الباب بطريقة صحيحة وأبدأ يومي.

يكلف منصور نفسه، بعد الفطور، بمهمة «ترتيب غرفة النوم». ويتمثل الإجراء الأول، بعد دلق كميات كبيرة من الماء في محيط المغسلة، بمسح الغبار بعناية ومنهجية. وأداؤه، في هذا المجال، لا غضاضة فيه من حيث المبدأ، إلا أنه يستغرق الكثير من الوقت.

ثم يخرج منصور من الغرفة، وقد امتلأت نفسه بالرضا عن نتائج المرحلة الأولى، ويحضر مكنسة ويبدأ بكنس الأرض بقوة مثيراً عاصفة من الغبار تجعل الجو خانقاً. ثم يرتب الأسرة بطريقة تجعل قدميك مكشوفتين حين تندس في السرير أو أنه يقوم بدس نصف الملاءة تحت الفراش بحيث تكاد لا تبلغ وسطك. أغض الطرف، كذلك، عن بعض التفصيلات الهامشية كمد الملاءات والبطانيات بترتيب معكوس أو استخدام غلافي الوسائد في تغليف وسادة واحدة. فهذه اللمحات الفنية لا تحدث إلا في يوم تبديل الملاءات.

وأخيراً، يهز منصور رأسه علامة على الموافقة ويغادر الغرفة وقد نال منه العمل الشاق والجهد العصبي الذي بذله. يأخذ منصور نفسه وواجباته على محمل الجد وهو يتمتع بضمير حي كذلك. وهي أمور تركت أعمق الأثر في نفوس الخدم الآخرين، بل إن الطاهي ديمتري يقول لماكس بجدية بالغة: «صبري إنسان كادح ومبادر، لكنه لا يتمتع، والحق يقال، بالمعرفة والخبرة اللتين يملكهما منصور الخبير بعادات الخواجات!». فيضطر ماكس، تجنباً للمساس بالتراتبية السائدة، إلى إصدار أصوات تفيد بالموافقة، على الرغم من أننا، كلانا، نرنو إلى صبري الذي ينفض ملابس الكولونيل ويطويها بنشاط.

حاولت مرة، على سبيل التطوع، أن أزرع في منصور أفكاري

الخاصة حول روتين العمل المنزلي، لكنها كانت حركة خاطئة أربكت منصور وأيقظت فيه عناده الفطري.

فقد أبلغ ماكس بحزن أن «أفكار خاتون غير عملية. إنها تطلب مني أن أضع ورق الشاي على الأرض. لكن ورق الشاي يوضع في إبريق الشاي كي يشرب. ثم كيف أمسح الغبار بعد كنس الغرفة؟ في حين أنني أمسح الغبار وأدعه يقع على الأرض كي أقوم بكنسه. هكذا هو المنطق».

ومنصور قوي للغاية حين يتعلق الأمر بما هو منطقي. إذ يقابل طلب الكولونيل إضافة بعض المربى إلى اللبن بتأنيب فوري: «لا، هذا ليس ضرورياً!».

وهنالك بعض من بقايا تقليد عسكري ما تزال عالقة بمنصور. فاستجابته الفورية لأي استدعاء له تكون بكلمة: «*Présent !*». وهو يستخدم العبارة البسيطة نفسها في الإعلان عن الغداء والعشاء:

«*La soupe!*»

لكن ساعة الاستحمام التي تسبق العشاء مباشرة هي الوقت من اليوم الذي يتجلى فيه منصور. ففي هذه الساعة، يصبح منصور رئيساً ولا يعود مضطراً إلى القيام بأي شيء بنفسه. إذ يحضر فرهيد وعلي، تحت أنظاره، صفائح كيروسين كبيرة من الماء المغلي وأخرى من الماء البارد (الذي يغلب عليه الطين) من المطبخ ويجهزان المغاطس – التي هي أشياء نحاسية دائرية كبيرة تشبه قدوراً ضخمة لحفظ الطعام. ثم يخرج فرهيد وعلي، بإشراف منصور، بالقدور النحاسية وهما يترنحان ويفرغانها أمام الباب مباشرة، في العادة، بحيث يمكن لمن يخرج بعد العشاء غافلاً أن ينزلق على الطين السائل ويسقط على طول قامته.

يكتسب علي، منذ تعيينه ساعياً للبريد ونيله دراجة هوائية، مكانة تتخطى الأعمال المنزلية الوضيعة. أما فرهيد القلق، فيكلف بمهمة نتف ريش الدجاج الأزلية وبالغسيل الطقوسي للمواد الغذائية باستخدام كميات هائلة من الصابون دون ماء تقريباً.

يزداد التشديد على أعلى المعايير الصحية ومعايير النظافة العامة في الحالات النادرة التي أدخل فيها إلى المطبخ كي «أري» ديمتري كيفية تحضير طبق أوروبي ما.

فإن التقطت قدراً يشي مظهره بالنظافة التامة، يختطفه أحدهم من يدي بسرعة ويعطي فرهيد إياه.

«فرهيد، نظف هذا كي تستخدمه خاتون».

فيأخذ فرهيد القدر ويفركه بعناية بصابون أصفر ثم يصقل السطح الصابوني بسرعة ويعيده إلي. فتنتابني الهواجس أن كعك «السوفليه» بنكهة الصابون قد لا يكون مقبولاً احتمالاً، لكنني أخمد هذه الفكرة في الحال وأرغم نفسي على الاستمرار.

الأمر برمته مرهق للأعصاب. ابتداء بدرجة الحرارة في المطبخ التي تبلغ في العادة تسعاً وتسعين فهرنهايت - ويتطلب الحفاظ على هذا القدر من البرودة الاكتفاء بفتحة صغيرة تسمح بدخول الضوء بحيث تسود المكان، في نهاية الأمر، أجواء من القيظ والظلمة معاً. أضف إلى ذلك الأثر المزعزع الذي تخلفه الثقة المطلقة والتبجيل اللذين تنضح بهما الوجوه التي تحيط حولي، وهنالك، في الواقع، عدد كبير منها. فبالإضافة إلى ديمتري وفرهيد المجد وعلي المتعجرف، يأتي لمتابعة العملية كل من صبري ومنصور وسركيس النجار والسقاء وأي عامل غريب قد يكون لديه ما يفعله في المنزل. المطبخ صغير والحشد كبير.

يتحلق الجميع حولي ويزدادون دنـواً مني ويراقبون أقل حركاتي شأناً بعيـون ملؤهـا الإعجاب والإجلال. تـزداد أعصابي توتـراً مع ذلك الشعور الذي ينبئني أن كل شيء سيكون خطأ بالتأكيد. هكذا، أسقط بيضـة على الأرض وأكسرها. فيخـال الجميع، من فرط ثقتهم بي، أن الأمر جزء من الطقس!

أتابـع العمـل وحرارتـي تـزداد ارتفاعـاً بالتدريج، ويـزداد معها ارتباكـي. فهـذه القدور تختلف عن أي شيء عرفتـه من قبل ومقبض خفاقـة البيض محلول بصورة غير منتظـرة وكل ما أستخدمه غريب إن في الشـكل أو في الحجم... أتمالك نفسـي وأقرر بيأس أنه مهما تكن النتيجة، فسأزعم أنها النتيجة المرجوة بالضبط!

والواقـع أن النتائج تتفاوت. ففي حـين تحقق قشدة الليمون نجاحاً كبيراً، يتبين أن البسكويت المغطس بالزبدة لا يؤكل فنتخلص منه سراً. وفي حـين تمضي أمور كعك سوفليـه الفانيليا على خير ما يرام بطريقة إعجازية، يتبين أن لحم الدجاجَ المطهو على طريقة ميريلاند على درجة مـن القسـوة لا يمكن للمرء معها أن ينشب أسنانـه فيه (أكتشف، فيما بعد، أن السبب في ذلك يعود إلى طراوة لحم الدجاج المستخدم وسنه التي لا تصدق)!

لكنني أستطيـع الزعم أنني أعلم الآن الأطبـاق التي يمكن تعليمها وتلـك التي ينبغي عدم التطرق إليهـا. إذ لا ينبغي للمرء أن يجرب في الشـرق أي طبق يجب تناولـه حال طهوه. وعجة البيضـ والسوفليه ورقائـق البطاطا يجـب أن تصنع قبل ساعة مـن تقديمها ثم توضع في الفـرن إلى أن تنضج ولا طائل مـن أي احتجاج على ذلك. ومن جهة أخـرى، يمكن لأي طبق، بغض النظر عـن تعقيده، يتطلب فترة إعداد

طويلـة ويمكــن إبقــاؤه في الانتظار أن ينجــح. هكذا، أزيلــت، لبالغ الأســف، العجــة والسوفليه من لائحة ديمتري. ومــن جهة أخرى، لا يمكن لأي طاه أن يصنع المايونيز بالجودة نفسها باستمرار.

هنالك كذلك ما يمكن التنويه إليه طالما أننا نتحدث عن الطهو. إنه طبق نعرفه باسم «البفتيك». يحيي هذا الطبق الشهي آمالاً عريضة فينا في كل مرة يتم الإعـلان عنه – آمالاً سرعان ما يحكم عليها بالخذلان في اللحظـة التي يوضع أمامنا طبق فيـه قطع صغيرة من اللحم الدهني المسفوع.

فيقــول الكولونيــل بصوت حزيــن: «بل إن طعمهــا لا يشبه لحم العجل في شيء».

وهــذا، بالضبط، هو التفســير الحقيقي. فالطبق يخلــو من أي أثر للعجل.

تمارســ أعمال الجزارة هنا بطريقة بسيطة للغاية. إذ يمضي ميشيل، بــين الفنية والأخــرى، وبصحبته عربــة النقل، إلى إحــدى القرى أو العشائــر المجاورة ثم يعود ويفتــح الباب الخلفي لماري الزرقاء فتنهمر ثمانية خراف!

تذبح هذه الخراف، الواحد تلو الآخر، وفق ما تقتضيه الحاجة مع الالتزام التــام بأوامري المشددة بضرورة الامتنــاع عن ذبحها خارج نوافــذ غرفــة المعيشــة! وأعترض كذلك علــى رؤية فرهيــد يدنو من الدجاج وبيده سكين طويلة حادة.

يتعامــل العمــال مع هــذه الحساسيــة المفرطة التــي تبديها خاتون بتساهل معتبرين إياه طرفة أخرى من الطرائف الغربية.

أتذكـر إحدى المرات، وكنـا ننقب بالقرب مـن الموصل، حين اقترب رئيس عمالنا العجوز من ماكس بحماسة شديدة.

«عليـك أن تأخذ خاتونك إلى الموصل غداً. هناك حدث عظيم. عمليـة شنق! سيشنقـون امرأة. لا بد أن خاتونـك ستستمتع بالأمر كثيراً. عليها أن لا تفوت ذلك بأي ثمن!».

لكن عدم اكتراثي بهذه الدعوة، بل اشمئزازي منها، أذهله.

«لكنها امرأة. وشنق النساء من الأحداث النادرة لدينا. إنها امرأة كرديـة دست السم لثلاثـة أزواج! لن ترضى خاتـون بتفويت هذا الحدث بكل تأكيد، بكل تأكيد!».

لكـن رفضي الصـارم الحضور ألحق بمكانتي لديـه أضراراً بالغة. فتركنا بحزن وذهب كي يستمتع بعملية الشنق بنفسه.

هنالك كذلك ضروب حساسية غير متوقعة، وإن بطرق أخرى، تباغـت المـرء. فعلـى الرغم من عـدم اكتراثنـا بمصير الدجاجات والديـوك الروميـة (وهي مخلوقـات كريهة مقرقرة)، فقـد اشترينا، ذات مـرة، إوزة بدينة لطيفـة. ولسوء الحظ، تبـين أن الإوزة تتمتع بـروح اجتماعية. بدا جلياً أنها كانت تعيش في القرية التي جاءت منها كفرد مـن أفراد الأسرة. فقد حاولت، منـذ يومها الأول معنا، أن تشارك ماكس مغطسه. وكانـت تدفع الأبواب المغلقة باستمرار وتحشـر منقارها فيها كما لو أنها تقول برجاء: «أنا وحيدة». ومرت الأيـام وفقدنـا كل رجاء. إذ لم يعد أحد منا قـادراً على الإيعاز بقتل الإوزة.

لكـن الطاهي أخذ الأمر على عاتقه أخيراً. وقدمت الإوزة، وفق الأصول، محشوة على الطريقة المحليـة وكانت شهية، بالتأكيد، من

حيث الطعم والرائحة. لكن أحداً منا لم يذق منها لقمة. وكانت تلك أكثر الوجبات التي قدمت لنا إحباطاً.

وبدوره، ألحق بامبس العار بنفسه، ذات يوم، عندما قدم ديمتري، بكل اعتزاز، حملاً - برأسه وقوائمه وكل شيء فيه. إذ لم يقتض الأمر من بامبس سوى نظرة سريعة على الحمل كي يولي الإدبار إلى الخارج على الفور.

لكن، فلنعد إلى مشكلة «البفتيك». يقدم الحمل، بعد ذبحه وتقطيع أوصاله، بالترتيب التالي: يتم حشو الكتف أو جزء منه بالتوابل والرز ثم يخاط (طبق ديمتري العظيم). ثم السيقان. ويلي ذلك طبق كبير مما اصطلح خلال الحرب الأخيرة على تسميته باسم «الفضلات الصالحة للأكل». ثم طبق من اللحم والخضار المطهوة مع الرز. أما الأجزاء الأخيرة المنبوذة من الحمل غير الجديرة بأن تضمن في الأطباق الأفضل، فتعرض للقلي مدة طويلة إلى أن يصغر حجمها ويقسو قوامها - وهو الطبق المعروف باسم «البفتيك»!

كان العمل في التل يتقدم بشكل مرض. إذ تبين أن النصف الأول برمته ينتمي إلى عصور ما قبل التاريخ. فقد أجرينا، في أحد أجزاء التل عملية «قص عميق» من القمة إلى التربة العذراء كشفت لنا خمس عشرة طبقة إشغال متتالية، عشر منها تنتمي إلى ما قبل التاريخ. فقد هجر التل تماماً بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد بسبب عوامل التعرية التي لم يعد ارتفاع التل، معها، مقبولاً على ما يبدو. وهنالك، كما هي الحال دائماً، بضعة أضرحة رومانية وإسلامية متطفلة تماماً. لكننا نزعم أن الأضرحة برمتها رومانية تجنباً لإثارة مشاعر المسلمين. على الرغم أن الرجال أنفسهم يبدون الكثير من عدم التوقير، فيصيحون

ويضحكون من غير تحفظ: "هذا جدك الذي ننبش قبره يا عبد الله!"، "بل هو جدك يا داوود!".

عثرنا على العديد من التمائم المثيرة للاهتمام على شكل منحوتات حيوانيــة، جميعها من الأصناف المعروفة. وفجأة، تبدأ بالظهور بعض الأشكال المثيرة للفضول. دب صغير مسود، رأس أسد، وأخيراً شكل إنســان بدائي غير مألوف. أبدى ماكس بعض التحفظات على تلك الأشياء، لكن الشكل البشري أكد شكوكه. هنالك مزور في صفوفنا.

"وهو رجل ذكي للغاية"، يقول ماكس وهو يقلب الدب بإعجاب: "قطعة جميلة".

وتبــدأ التحريات البوليسية. القطع تظهــر في ركن محدد من الموقع ويعــثر عليها، عــادة، أحد شقيقــين من سكان قرية تبعــد حوالي عشر كيلومــترات. وذات يوم، تظهر، في مكان آخر من الموقع "ملعقة" من البيتومــين ذات مظهر مريب. لقد "عــثر عليها" رجل آخر من القرية نفسها. نوزع البقشيش كالمعتاد دون أن ننبس ببنت شفة.

ثــم يحل يوم دفع الأجور ومعــه الكشف الكبير! إذ يعرض ماكس الأدلة ويلقي خطبــة إدانة ملتهبة واصفاً الأمر بالخديعة ويحطم القطع (علــى الرغم مــن أنه يحتفــظ بالدب علــى سبيل الفضــول)، ويطرد الرجــال الذين دسوها، فيرحلون بمرح علــى الرغم من زعمهم البراءة بصوت مرتفع.

وفي اليوم التالي، يتهامس الرجال أثناء العمل.

"الخواجة يعرف كل شــيء. إنه وافر العلم في الآثار، لا يمكنك أن تخدع عينيه".

يشعر ماكس بشيء من الحزن لأنه كان يود أن يعلم كيف تمت عملية التزييف بالضبط، وقد نالت الصنعة المتقنة لهذه القطع إعجابه.

يستطيع المرء، الآن، أن يرسم لنفسه صورة عن شاغر بازار كما كان عليه قبل ثلاثة إلى خمسة آلاف عام. لا بد أن هذا المكان كان يقع على طريق قوافل مطروق للغاية يصل حران بتل حلف مروراً بجبل سنجار في العراق إلى دجلة ثم إلى نينوى القديمة. وكان هذا الموقع جزءاً من شبكة من المراكز التجارية العظيمة.

يشعر المرء أحياناً بوجود لمسة شخصية – لمسة خزاف وضع علامته على قاعدة قدر– مخبأ في جدار يخفي قدراً صغيراً مليئاً بأقراط ذهبية ربما تكون بائنة ابنة مالك البيت. ثم لمسة شخصية أخرى، لكنها، هذه المرة، أقرب إلى أزمنتنا، هي عملة معدنية عليها اسم هانس كراوفينكل من نورمبرغ يعود تاريخ صكها إلى عام ١٦٠٠ ميلادية، وقد تم العثور عليها مرمية في قبر إسلامي – في دليل على أنه كان هنالك تواصل بين هذه البقعة المجهولة من العالم والقارة الأوروبية في ذلك الزمن.

هنالك بعض القدور الفخارية البديعة للغاية التي تعود إلى حقبة قد ترقى إلى خمسة آلاف عام، تحمل نقوشاً، وهي، برأيي الشخصي، آية في الجمال وجميعها مصنوعة يدوياً.

وهنالك عذراوات ذلك العصر أيضاً. شخوص معممة بنهود عامرة – غريبة وبدائية لكنها تمثل المعونة والعزاء بلا أدنى شك.

وهناك، كذلك، التطور المذهل لموضوعة "البوكرانيوم" في صناعة الخزف التي بدأت برأس بسيط لحيوان وأصبحت، بالتدريج، أقل طبيعيانية وأكثر شكلانية إلى أن بلغت حداً لا يستطيع المرء التعرف إلى ما يمثله الشكل ما لم يطلع على المراحل الوسيطة التي أفضت إليه.

(أكتشف بذعر، في الواقع، أنه يتطابق تماماً مع النقش البسيط المطبوع علـى رداء حريـري أرتديه أحياناً! آه، حسناً – لـ "البوكرانيوم" وقع مستحب أكثر من وقع "معين يجري!").

ثـم يحـل اليوم الذي سنضرب فيـه معاولنا، للمـرة الأولى، في تل براك. وهي لحظة مهيبة بالفعل.

يتعـاون سركيس وعلي على تجهيز غرفة أو اثنتـين. كما أن السقاء وحصانه الجليل الذي هو ليس بعجوز مسنة والعربة والبراميل – كلها على أهبة الاستعداد.

يغادر الكولونيل وبامبس إلى تل براك، في الليلة السابقة، ويقضيان ليلتهما هناك كي يصعدا إلى التل في الصباح الباكر.

أما ماكس وأنا، فنصل في حوالي الساعة الثامنة. أمضى الكولونيل، للأسـف الشديد، ليلـة حزينة ومزعجة في مصارعـة الخفافيش! يبدو أن غرفـة البرج مبتلاة، بكل ما للكلمـة من معنى، بالخفافيش – وهي مخلوقات يكن الكولونيل لها بغضاً شديداً.

يبلغنا بامبس أنه كان، كلما استيقظ في تلك الليلة، يرى الكولونيل يدور في الغرفة مهاجماً الخفافيش بقسوة باستخدام منشفة حمام.

نمكث في المكان بعض الوقت ونتابع تقدم أعمال الحفر.

يدنو السقاء الكئيب مني ويروي لي قصة طويلة عن ما يبدو أنه محنة مريرة. يصل ماكس فأسأله أن يستقصي الأمر.

يبدو أن للسقاء زوجة وعشرة أبناء في مكان ما بالقرب من جرابلس وأن قلبـه منفطر علـى غيابهم. فهلا أعطيناه دفعـة على الحساب كي يرسل في طلبهم؟

أترافع لصالح الموافقة على الطلب. لكن ماكس يبدو متردداً. ويقول إن وجود امرأة في البيت سيجلب المتاعب.

نصادف، في طريق عودتنا إلى شاغر بازار، مجموعة كبيرة من العمال يسيرون على الأقدام في طريقهم إلى موقع التنقيب الجديد.

يصيحون: "الحمد لله. هل من عمل لنا في الغد؟"

"نعم، سيكون هناك عمل".

يشكرون الله من جديد ويتابعون السير.

نمضي في البيت يومين خاليين من الأحداث ثم يحين موعد نوبتنا في تل براك. لم يحدث أي شيء هام هناك حتى الآن، لكن العمل واعد والبيوت وما إلى ذلك تنتمي إلى الحقبة التاريخية المطلوبة.

تهب اليوم ريح قوية من الجنوب- ريح مقيتة للغاية تبعث على الحنق والتوتر. فنستعد لأسوأ الاحتمالات بانتعال الأحذية المطاطية ذات الساق العالية وارتداء المعاطف الواقية بل وحتى المظلات. أما تأكيدات سركيس على أنه أصلح السقف فلا نأخذها على محمل الجد. إذ يبدو أننا سنعيش في هذه الليلة حالة "ساوي بروفا"، كما يمكن لميشيل أن يقول في مثل هذه المناسبة.

يقتضي الوصول إلى تل براك عبور أراض غير ممهدة، إذ لا يوجد أي طريق يفضي إلى التل. نصادف، في منتصف الطريق إلى التل، اثنين من عمالنا يغذون السير إلى "العمل". لدينا في الواقع متسع لهما. هكذا يتوقف ماكس ويعرض إقلالهما فيقابلان العرض بفرح كبير. يسير، في أعقابهما، كلب يلتف حول عنقه طوق بال.

يصعد الرجلان ويستعد ميشيل للانطلاق. يسألهما ماكس وماذا

عــن الكلب؟ سوف نقل كلبهما كذلك. يقولان إنه ليس كلبهما. فقد ظهر فجأة في الصحراء وتبعهما.

نعايــن الكلب عن كثب. إنه لا ينتمــي إلى سلالة معروفة، لكن من الواضح أنه هجين أوروبي! فهو يشبه كلاب سكاي تيرييه الاسكتلندية بألــوان كلب داندي دينمونت مــع لمسة مؤكدة من كلب كيرن. طوله كبير ويتمتع بعينــين كهرمانيتين براقتين وأنف بنــي باهت. مظهره لا يشــي بالبؤس أو بالأسف لما هي عليه حالــه أو بالجبن– على العكس من الكلاب الشائعة في الشرق. يجلس في مكانه بهدوء ويتأملنا بوجه مشرق وبذيل يتأرجح قليلاً.

يقــول ماكس إننا سنأخــذه معنا ويأمر ميشيــل بحمله ووضعه في السيارة.

"نعــم، نعــم" يقــول الرجــلان العربيــان. "سوف يــأكل لحمك بالتأكيد! الأفضل أن تدعه هنا يا خواجة".

فيقــول ماكس لميشيل: "احملــه وضعه في الداخــل أيها الأحمق اللعين".

يتوتر ميشيل ويتقدم من الكلب الذي يدير رأسه صوبه بسرور.

فيتراجع ميشيــل بسرعة. أما أنا، فينفذ صــبري، وأقفز إلى الخارج وأصعد برفقته إلى الجهة الخلفية من ماري الزرقاء. ضلوعه تكاد تلتصق بجلــده. نقفل عائدين إلى تل براك حين يتم تسليم الوافدة الجديدة إلى فرهيد مع تعليمات واضحة بوجوب تقديم وجبة كبيرة لها. نتجادل، كذلك، حول الاسم الذي سوف نطلقه عليها ثم يستقر رأينا على اسم الآنســة أوستابنكــو (لأنني أقرأ حالياً روايــة "العروس البعيدة"). بيد أن هايــو هو الاسم الذي صارت تعرف به الآنســة أوستابنكو بفضل

بامبس. تتكشف هايو عن كلبة ذات شخصية مذهلة متعطشة إلى الحياة وجسورة بالتأكيد لا يخيفها شيء أو أحد. وهي تتميز بخفة دم مؤكدة وبمزاج رائع وتبرهن، في كل الأوقات، عن تصميم على القيام بما يحلو لها. وهي تتمتع، كذلك، بالأرواح التسعة التي تعزى إلى القطط عادة. فإن علقت في الداخل، تتدبر أمر خروجها بطريقة ما. وإن علقت في الخارج، تتدبر أمر دخولها – بل إنها حفرت بأسنانها ذات مرة فتحة قطرها قدمان في الجدار الطيني. تحضر كل الوجبات وتبدي عزيمة لا يستطيع المرء الصمود في وجهها. وهي لا تتوسل الطعام بالتأكيد – بل تطلبه.

تتشكل لدي قناعة أن أحدهم قيدها إلى حجر ثقيل باستخدام حبل مربوط بعنقها وحاول إغراقها، لكن هايو، بحبها للحياة، قضمت الحبل وسبحت إلى الشاطئ ورمقت الصحراء بفرح وتبعت الرجلين بغريزتها التي لا تخطئ. والدليل على نظريتي أنها ترافقنا إلى كل مكان باستثناء المرات التي نجتمع فيها أمام نهر جغجغ. إذ تجلس في الممر بثبات وتهز رأسها ثم تستدير عائدة إلى البيت وكأنها تقول: "لا، شكراً. لا أحب أن يغرقني أحد. هذا مخيف!".

يسعدنا سماع أنباء أن الكولونيل أمضى ليلة أفضل من ذي قبل. فقد طرد سركيس معظم الخفافيش أثناء ترميم السقف، كما ابتكر الكولونيل جهازاً على شاكلة أجهزة هيث روبنسون قوامه وعاء كبير مملوء بالماء تقع الخفافيش فيه في نهاية المطاف وتغرق. والآلية، كما يقدمها الكولونيل لنا، معقدة للغاية وإعدادها يقتطع الكثير من ساعات نومه.

نرتقي إلى الأكمة ونتناول الغداء في بقعة محمية من الريح. ومع

ذلك تتخلل كل لقمة كميات كبيرة من الرمل والغبار. يبدو الجميع فرحين، بل إن السقاء السوداوي نفسه يظهر شيئاً من الفخر وهو ينتقل بين التل وجغجغ جيئة وذهاباً كي يحضر الماء للرجال. حيث يقود العربة إلى أسفل التل ثم تصعد الحمير إليه محملة بجرار الماء في مشهد فيه لمسات كتابية رائعة.

ثم تأتي ساعة الاستراحة فنتبادل تحيات الوداع ويستقل الكولونيل وبامبس ماري الزرقاء إلى شاغر بازار ونتسلم نوبتنا التي ستدوم يومين في تل براك.

تبدو غرفة البرج جذابة للغاية. فأرضيتها مغطاة بحصيرة وبعض البسط. ولدينا إبريق وحوض وطاولة وكرسيان وسريران عسكريين ومناشف وملاءات، بل وبعض الكتب كذلك. النوافذ مغلقة من غير إحكام. نأوي إلى السرير بعد وجبة غريبة بعض الشيء أعدها علي وقدمها فرهيد الكئيب، قوامها حساء سبانخ تعوم فيه جزر صغيرة من شيء نظن أنه "البفتيك" من جديد!

نمضي ليلة هانئة لم يظهر فيها سوى خفاش واحد طرده ماكس باستخدام مشعل. فنقرر أن نخبر الكولونيل أن قصصه عن مئات الخفافيش فيها مبالغات فجة وأنها تعود، على الأرجح، إلى الإفراط في الشرب. يدعى ماكس، في الرابعة والربع صباحاً، إلى الشاي وينطلق إلى الأكمة. أما أنا فأعود إلى النوم من جديد ثم يقدم إلي الشاي في الساعة السادسة. يعود ماكس إلى الفطور في الساعة الثامنة. ويقدم الطعام لنا بتباه. بيض مسلوق، شاي، خبز عربي، مرطبانان من المربى وعلبة من مسحوق الكستر. وبعد بضع دقائق، يقدم لنا طبقاً آخر- هو بيض مقلي مخفوق.

"*Trop de zèle*"[٢٧]، يتمتم ماكس معرباً عن خشيته من الوصول الوشيك للعجة ويرسل إلى علي غير المرئي رسالة مفادها أننا اكتفينا. فيتنهد فرهيد ويمضي حاملاً الرسالة. ثم يعود وقد قطب جبينه بقلق وحيرة. لا بد أن كارثة كبيرة قد حلت، لكن لا – يسألنا بكل بساطة: «هل ترغبون في بعض البرتقال مع الغداء؟»

يعود بامبس والكولونيل في منتصف اليوم. بامبس يعاني الأمرين من قبعته بسبب الريح العاصفة، فيصل ميشيل لنجدته بـ «الفرقعة» المعهودة، لكن بامبس يفلت من يديه بمهارة وقد تذكر ما حل به في المرة السابقة.

نتناول غداءنا المعهود وهو اللحم البارد والسلطة- لكن علي، بروح المبادرة لديه، يتحفنا بما هو أفضل. فنتناول شرائح من الباذنجان المقلي البارد ونصف المطهو مع بطاطس مقلية باردة ودهنية وأقراصاً صغيرة من «البفتيك» المقلي بشدة، فكان الأمر فوضى من السمن البارد الأخضر!

يقول ماكس إنه سيشعر بالأسف لتثبيط همة علي، لكنه سيكون مضطراً إلى لجم خياله.

نقع على عبد السلام الذي يستغل ساعة الغداء في إلقاء عظة رنانة على الرجال تبعث على الاشمئزاز.

يصيح ملوحاً بذراعيه: «هل ترون كم أنتم محظوظون؟ أليس كل ما يصنع هو من أجلكم؟ أليست كل الأفكار مكرسة لكم؟ لقد سمح لكم أن تحضروا طعامكم إلى هنا وأن تتناولوه في فناء المنزل.

٢٧- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "الكثير من الحماسة" (المترجم)

تتقاضون أجوراً كبيرة– نعم، أنتم تتقاضون المال سواء عثرتم على شيء أم لم تعثروا على شيء. فأي سخاء وأية شهامة! وهذا ليس كل شيء. فبالإضافة إلى أجوركم المجزية، تتقاضون أموالاً إضافية مقابل كل ما تعثرون عليه. والخواجة يرعاكم كما لو كان أباً لكم – ويحول دون أن يؤذي أحدكم الآخر. فإن أصابتكم حمى أعطاكم الدواء. وإن سدت أحشاؤكم أعطاكم ما يفتحها! كم هو حسن– كم هو سعيد طالعكم! وهنالك بادرة سخاء إضافية! هل يدعكم تعملون وأنتم ظمآنون؟ هل يجعلكم تحضرون الماء بأنفسكم؟ لا، بالطبع لا! إنه يحضر لكم الماء إلى الأكمة – وهو ليس مرغماً، لكنه سخاؤه العظيم– من جغجغ! ماء يكلف إحضاره بعربة يجرها حصان الكثير من المال. فكروا في الكلفة وفي النفقات! أي طالع حسن هو طالعكم كي يستخدمكم رجل كهذا».

ننسل بعيداً ويبدي ماكس استغرابه كيف لا يقوم أحد من العمال بقتل عبد السلام. كان هو نفسه ليفعل ذلك لو كان واحداً منهم. فيجيبه بامبس إن الرجال، على العكس من ذلك، يثنون على كلامه. وهو محق. فهم يومئون برؤوسهم ويتمتمون بالموافقة وينظر أحدهم إلى الآخر:

«ما يقوله منطقي. الماء يجلب من أجلنا. نعم، هنالك الكثير من الكرم في ذلك. إنه على حق. نحن محظوظون. إنه رجل حكيم عبد السلام هذا».

يقول بامبس إنه لا يفهم كيف ينطلي عليهم هذا الكلام، لكنني أخالفه الرأي. وأتذكر كيف يقبل الإنسان في طفولته على الحكايات! هنالك في العربي بعض من المقاربة الساذجة المباشرة للحياة. هكذا

يصبح عبد السلام، بمواعظه المضجرة، مفضلاً لدى العمال على علاوي الأكثر عصرية والأقل ادعاء. وعبد السلام، فضلاً عن ذلك، راقص عظيم. ففي المساء، يجتمع الرجال في الفناء في بيت تل براك ويقودهم العجوز عبد السلام في سلسلة طويلة من الخطوات النمطية التي يصعب تحليلها وتستمر أحياناً حتى وقت متأخر من الليل. أما كيف يقومون بذلك ثم يصلون إلى الأكمة في الخامسة صباحاً فسر مستغلق – ثم هناك أيضاً سر وصول رجال قادمين من قرى تبعد ثلاثة كيلومترات وخمسة كيلومترات وعشرة كيلومترات مع شروق شمس كل يوم في اللحظة نفسها! إنهم لا يملكون ساعات جدارية ولا ساعات يد وهم، بالتأكيد، ينطلقون من دورهم في أوقات تتراوح بين عشرين دقيقة وساعة قبل الشروق، لكنهم يصلون في الوقت المحدد من غير إبكار أو تأخير. يفاجئني كذلك حين أراهم، مع انتهاء العمل (قبل نصف ساعة من مغيب الشمس)، وهم يرمون سلالهم ويضحكون ويحملون أدواتهم على أكتافهم ويجرون– نعم، يجرون– بمرح على طول الكيلومترات العشرة التي تفصلهم عن قراهم! الاستراحة الوحيدة التي يحصلون عليها هي نصف الساعة المخصصة للفطور والساعة المخصصة للغداء ناهيك عن كون الغذاء الذي يحصلون عليها غير كاف بمعاييرنا. صحيح أنهم يعملون بأسلوب نصفه، نحن، بالكسول تتخلله فترات من الحفر المحموم أو الجري عندما تجتاحهم موجة من الفرح الغامر – لكنه في نهاية المطاف عمل يدوي شاق. قد يكون عامل المعول أوفرهم حظاً لأنه يستطيع الجلوس، بعد انتهائه من خلخلة الأرض حوله، كي يستمتع بتدخين لفافة بينما يقوم عامل المجرفة بملء السلال. أما فتية السلال، فلا ينالون أي قسط من الراحة باستثناء تلك التي ينتزعونها لأنفسهم – وهم حاذقون في ذلك – من

خلال التمهل أثناء التوجه إلى مكان المكب أو بقضاء وقت طويل في التنقيب في سلالهم.

صحتهم، بالإجمال، ممتازة على الرغم من انتشار حساسية العين بينهم وقلقهم الشديد من الإمساك! والسل شائع بينهم في أيامنا هذه - وقد جلبته إليهم الحضارة الغربية. لكن قدراتهم على التعافي مذهلة. فقد يشج رجل رأس رجل آخر تاركاً فيه جرحاً مريعاً. فيسألنا المصاب أن نعالجه ونضمده لكنه يذهل حين نقترح عليه أن يغادر العمل باكراً. «ولماذا؟ إنه مجرد ألم في الرأس!». ثم يمر يومان أو ثلاثة أيام يشفى الجرح بعدها تماماً على الرغم من ضروب العلاج غير الصحية التي لا بد أن يكون الرجل قد أخضع نفسه لها عند عودته إلى البيت.

كان هنالك، ذات مرة، رجل يعاني من بثرة كبيرة ومؤلمة في ساقه، فأرسله ماكس إلى بيته لأنه كان محموماً بالتأكيد.

«سوف تتقاضى أجرك عن يوم العمل هذا كما لو كنت حاضراً».

فغمغم الرجل وذهب. ثم في بعد ظهيرة ذلك اليوم، رآه ماكس فجأة وهو يعمل. «ماذا تفعل هنا؟ لقد أرسلتك إلى بيتك». «لقد ذهبت إلى البيت يا خواجة (يبعد ثمانية كيلومترات). لكنني ضجرت إذ لم يكن هناك أي حديث أشارك فيه! فقط النساء. فأقفلت عائداً. وساقي كما ترى على خير ما يرام. لقد زال التورم!».

نعود اليوم إلى شاغر بازار في حين يحل الآخران محلنا في تل براك. أي ترف عظيم أن نعود إلى بيتنا. نجد الكولونيل، عند وصولنا، مشغولاً بتعليق الملاحظات في كل مكان - ومعظمها ذات طابع مهين! كما قام بترتيب البيت بحيوية نعجز معها عن العثور عن

أي شيء نحتاج إليه. فنتوسل الانتقام! وأخيراً، نقص صورة السيدة سمبسون من صحيفة قديمة ونعلقها بالدبابيس في غرفة الكولونيل!

هنالك الكثير من الصور الضوئية التي يجب التقاطها وتحميضها. ولأن الحر شديد اليوم، أخرج من غرفة التحميض وأشعر كما لو كنت قطعة من فطر جداري. ينهمك العمال بمدي بماء نقي نسبياً. حيث يقومون بتخليصه من قطع الطين الكبيرة أولاً ثم يمررونه عبر نسيج قطني إلى أوعية مختلفة بحيث لا يبقى عالقاً فيه، لحظة استخدامه، سوى القليل من الرمل والغبار اللذين يحملهما الهواء فتكون النتيجة النهائية مرضية تماماً.

ننفذ اليوم عملية إنقاذ لا تنسى. فقد كانت الأمطار التي هطلت خلال الليل غزيرة والأرض هذا الصباح لما تزل مشبعة بالماء. وفي الثانية عشرة ظهراً، يلوح من بعيد فارس ذو مظهر جامح يدنو بضراوة وتهور من يحمل الأنباء الطيبة من إكس إلى غنت[٢٨]. لكن الأنباء التي يحملها سيئة، في الواقع. الكولونيل وبامبس عالقان في الطمي في منتصف الطريق إلينا. يقفل الفارس عائداً بمجرفتين ونشكل، على عجل، فريق إنقاذ مكوناً من خمسة رجال بالإضافة إلى سركيس ونحشرهم في السيارة بوالو. يصطحب الرجال معهم مجارف وألواحاً إضافية ويمضون بفرح وهم يغنون!

يصيح ماكس في إثرهم محذراً إياهم من أن لا يعلقوا هم أنفسهم وهو ما حدث بالفعل - لكن، ولحسن طالعهم، على مسافة بضع مئات من الياردات من المكان الذي تقف ماري الزرقاء فيه بحزن،

٢٨-في إحالة إلى قصيدة للشاعر والمسرحي الإنكليزي روبرت براونينغ عنوانها "كيف حملوا الأنباء الطيبة من إكس إلى غنت" (المترجم)

ومحورها الخلفي غارق في الطمي وركابها مرهقون وقد حاولوا على مـدى خمس ساعات شاقة أن ينتشلوهـا وأفقدتهم صوابهم هتافات ميشيل الطيـب وتعليماته التي يصدرها بنبرته البـكاءة المرتفعة والتي تقتصـر، بالإجمال، على كلمـة «فرقع!» وهو يحطـم الرافعة الثالثة على التـوالي! وأخيراً، تفلح مـاري الزرقاء، بمعونة الرجـال الأشداء (الذيـن تم اختيارهم بنـاء على متانـة بنيانهم) وبإرشـادات سركيس العاقلـة، في الخروج مـن المستنقع، فتندفع بقوة تجعـل الطمي يغطي كل الحاضرين مـن رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم مخلفة حفرة كبيرة دعاها الكولونيل «ضريح ماري».

هطلـت أمطار وافـرة أثناء إقامتنـا الأخيرة في تل بـراك، فلم يبل سقـف سركيس حسنـاً في مواجهة الرشح. وفضـلاً عن ذلك، تفتح مصاريـع النوافذ وتغلق باستمرار بفعل الريح وتجتاح الأمطار الغرفة. ولحسـن الحظ، تسقط أغزر الأمطـار في يوم العطلة فلا يتعطل العمل - علـى الرغم من أنها تجعلنا نلغي رحلتنـا القصيرة المقررة إلى بركان تل كوكب.

توشـك أعمال شغب علـى الاندلاع عندنـا، في إحدى المرات، بسبـب مسألة يوم العطلة - حين تنتهي دورة العمل البالغة عشرة أيام في يـوم سبت ويكلف عبد السلام بإبلاغ العمال أنه لن يكون هنالك من عمل في اليوم التالي، لكنه يثرثر بحماقته المعهودة قائلاً: «غداً هو الأحد، ولذلك لن يكون هناك من عمل!».

فيعم الصخب في الحال! ماذا- هل سيتعرض كل هؤلاء المسلمين الطيبيـن للمهانة ويضحى بهـم كرمى لعيون عشريـن أرمنياً مسيحياً بائسـاً؟ يحاول رجل ناري اسمه عباس عيـد تنظيم إضراب. فيتكلم

ماكس فيهم مؤكداً أنه حين يريد أن يكون يوم الأحد أو يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء أو يوم الخميس أو يوم الجمعة أو يوم السبت يوم عطلة فإنه سيكون يوم عطلة. أما عباس عيد، فلن يرى أحد وجهه في التل من جديد! في حين يؤمر الأرمن الذين يسعون، من خلال ضحكاتهم المكتومة، إلى جريمة قتل بإغلاق أفواههم. ثم بعد ذلك، يبدأ توزيع الأجور. فيتوارى ماكس في ماري الزرقاء ويخرج ميشيل من المنزل مترنحاً بأكياس المال (حمداً لله أنها ليست ليرات مجيدية. فقد صارت الليرة المجيدية غير قانونية وصار التعامل بالليرة السورية ملزماً) ويرميها في عربة النقل. يطل ماكس برأسه من النافذة المجاورة لمقعد السائق (يبدو كعامل قطع تذاكر في كوة محطة قطارات) ويضع ميشيل كرسياً في عربة النقل كي ينظم توزيع المال، فيشكل القطع النقدية المعدنية في أكوام ويتنهد بعمق وهو يتأمل كل هذا المال الذي سيذهب إلى جيوب المسلمين!

يفتح ماكس سجلاً كبيراً ويبدأ المرح. يتقدم العمال الواحد تلو الآخر عندما ينادون بأسمائهم ويأخذون استحقاقهم. كان اليوم السابق قد شهد مآثر حسابية جبارة استمرت حتى الليل وتم، خلالها، التحقق من قيمة البقشيش الذي يستحقه كل عامل وأضيفت إلى أجره.

يبدو التفاوت في القسمة والنصيب كبيراً اليوم على نحو خاص. إذ يتقاضى بعض الرجال مكافآت مجزية في حين يخرج آخرون بخلو الوفاض تقريباً. لكن الجميع يتبادلون النكات والقفشات، بل إن أولئك الذين فاتهم حسن الطالع يبدون جذلين للغاية. تسارع امرأة كردية حسناء فارعة القامة نحو زوجها الذي يحصي ما تلقاه.

«كــم لديك؟ أرني». ثــم تضع يدها، دون تردد، علـى المال برمته وتمضي به بعيداً.

يشيح عاملان عربيان يبدو عليهما التهذيب بوجهيهما بلطف وقد صدمهما ما شاهداه من سلوك لا أنثوي (ولا رجولي كذلك)!

تخـرج المرأة الكردية من كوخها الطيني من جديد وتعنف زوجها على طريقة إفلاته حماراً من رسنه. فيتنهد الكردي، وهو رجل ضخم الجثة ووسيم، بحزن. فمن يود أن يكون زوجاً كردياً؟

هنالـك مقولة شائعـة مفادها إن العربـي، إن سلبك في الصحراء، يكتفـي يضربك ويدعـك على قيد الحيـاة، أما الكـردي فيسلبك ثم يقتلك لمجرد المتعة!

ربمـا تكون هيمنـة زوجته عليه في البيت هي مـا يحضه على إبداء الشراسة في الخارج!

وأخيراً، يتقاضى الجميـع أجورهم بعد مرور ساعتين. ويحل سوء تفاهـم بسيـط بـين داوود سليمـان وداوود سليمان محمـد بما يرضي الطرفـين. ويعود عبد الله باسماً كي يقـول إنه تقاضى عشرة فرنكات ونصـف عن طريق الخطأ، ويحتج محمد الصغير بحدة من أجل خمسة وأربعـين سنتيماً – «خرزتـان وحافة قدر فخـاري وقطعة من السبج يـا خواجة وكان ذلك يوم الخميـس الماضي!». تدرس كافة الدعاوى والدعـاوى المضادة وتتم تسويتهـا. ثم نلتمـس المعلومات حول من سيستمر في العمل ومن سيغادر. ويتبين لنا أن الجميع تقريباً سيغادرون. «لكن مـن يدري ما سيحدث بعد الجولة التاليـة يا خواجة؟». فيقول ماكس: «بالطبع، عندما ينفذ المال!». «الأمر كما تقول يا خواجة».

يتبادل الجميع التحية ويودعون بعضهم. أما الليلة، فستكون حافلة بالغناء والرقص في فناء البيت.

نعود إلى شاغر في يوم حار جميل. كان الكولونيل يدمدم بغضب بسبب سلوك بيلو التي داومت، في الآونة الأخيرة، على خذلانه في تل براك باستمرار. وفي كل مرة كان فرهيد يأتي ويؤكد للكولونيل أن السيارة على ما يرام ولا تشكو من أي عيب ثم يقوم بتشغيلها، فتعمل على الفور في تأكيد على هذه الحقيقة، فيزداد إحساس الكولونيل بالمهانة.

أتمتم بنبرة ذات دلالة: «جوزيفين؟». فينبح الكولونيل بأسلوب عسكري: «بل بيلو!».

ثم يصل ميشيل ويشرح بصوته المرتفع أن الأمر لا يتطلب سوى تنظيف المكربن – والأمر بسيط للغاية – ويري الكولونيل كيف يتم ذلك. ثم يمارس ميشيل خدعته المفضلة في مص الوقود والتغرغر به ثم شربه، فيرمقه الكولونيل بنظرة اشمئزاز باردة. ثم يهز ميشيل رأسه ويبتسم بسعادة ويقول للكولونيل محاولاً إقناعه: «ساوي بروفا؟» ويشعل لفافة. فنحبس أنفاسنا في انتظار نشوب النار في حلق ميشيل، لكن شيئاً من ذلك لا يحدث.

تقع بعض التعقيدات التافهة. إذ يطرد أربعة عمال لأنهم لا يكفون عن القتال. ويتشاجر علاوي ويحيى ثم لا يعود أحدهما إلى مكالمة الآخر. سرق أحد البسط من بيتنا. يغضب الشيخ كثيراً ويعقد محكمة للتحقيق في القضية. أما نحن فنستمتع بمراقبة الأمر عن بعد – يجلس رجال ملتحون في الهواء الطلق في حلقة ويقربون رؤوسهم. يفسر

منصور الأمر بالقـول «إنهم يعقدون الجلسة هناك كي لا يسترق أحد السمع إلى الأسرار التي يتداولونها».

أما الإجراءات التالية، فشرقية تماماً. يأتي الشيخ ويؤكد لنا أن الجناة معروفون له وأنه سيحل الأمر وسنستعيد بساطنا.

أمـا ما يحدث على أرض الواقع، فهو أن الشيـخ يضرب ستة من أعدائه اللدودين وربما يتنزهم فوق ذلك. لا يظهر البساط بالطبع لكن الشيخ في قمة المرح ويبـدو متخماً بالمال من جديد. يأتي عبد السلام إلى ماكـس ويقول له بتكتم: «سأخبرك من سـرق بساطك. إنه صهر الشيخ، الشيخ الأيزيدي. إنه رجل شرير للغاية، لكن شقيقته جميلة».

وتلـوح في عيني عبـد السلام ملامـح أمل بالاستمتـاع بمشاهدة الأيزيديين يضطهدون قليـلاً، لكن ماكس يصرح أنه سيسجل البساط في خانة الخسائر ولن يفعل المزيد من أجله. ثم يقول وهو يرمق منصور وصبري بقسوة: «عليكما الانتباه في المستقبل والامتناع عن مد البسط في الشمس في الخارج».

أما الحدث المحزن التالي فهو حدث بمجيء رجال الجمارك وإلقائهم القبض على اثنين من عمالنا بتهمة تدخـين سجائر عراقية. كان حظ هذيـن الرجلين تعيساً للغاية. فالواقع هـو أن الرجال المائتين والثمانية (وهم عمالنا المسجلون على لوائح الأجور) يدخنون، جميعاً، سجائر عراقية مهربة! يطلب موظف الجمارك مقابلة ماكس ويقول له: «هذه مخالفـة خطيرة». «سوف نمتنع عن إلقاء القبض على هذين الرجلين في موقع العمل كرمى لك يا خواجة. فالأمر لن يكون مشرفاً لك». يجيبه ماكـس: «أشكرك على لطفك وكياستك». «بيد أننا نقترح يا خواجة أن تقـوم بطردهما مـع حرمانهما من أجرهمـا». «لن يحدث ذلك.

لست أنا من يجب أن يسهر على تطبيق القوانين في هذه البلاد. فأنا أجنبي. أما هذان الرجلان، فهما ملزمان بالعمل كما أنني ملزم بسداد أجريهما. لا أستطيع حرمانهما من الأجر». وتتم تسوية المسألة، في نهاية المطاف، (برضا الطرفين المذنبين) على شكل غرامة تقتطع من أجريهما ويتم تسديدها لضابط الجمارك.

يقول الرجلان «إن شاء الله» ويهزان أكتافهما ويعودان إلى العمل. لكن ماكس، بقلبه الرقيق، يبدي كرماً مفرطاً في البقشيش المخصص للمدانين هذا الأسبوع فيخرجان راضيين. لكنهما لا يرتابان، ولو قليلاً، بإحسان ماكس، بل يعزوان الفضل إلى رحمة الله التي لا تحدها حدود.

قمنا برحلة خاطفة أخرى إلى القامشلي. أصبحت لهذه الزيارة الآن طعم زيارة باريس أو لندن من حيث التشويق. تمضي الإجراءات كالمعتاد - هارودز- الحوار المفكك مع السيد ياناكوس- جلسات العمل الطويلة في المصرف - لكن حضور كاهن كبير من الكنيسة المارونية، بصليبه المرصع وشعره المنمق وثوبه القرمزي يضفي عليها نكهة جديدة. يلكزني ماكس كي أعرض على «المونسنيور» الكرسي الذي أجلس عليه، فأقوم بذلك على مضض- وبشعور بروتستانتية غاضبة. (ملاحظة: هل كان لي، في ظروف مماثلة، أن أعرض كرسي على رئيس أساقفة يورك إن كنت جالسة عليه؟ أقرر أنني إن فعلت، فلن يأخذه بالتأكيد!). لكن الأرشمندريت أو المفتي الكبير، أو أياً يكن منصبه، يأخذ الكرسي ويغوص فيه ثم يتنهد برضا ويرمقني بنظرة عطف.

لا حاجة بي إلى القول إن ميشيل يخضع قوة أعصابنا لأشد

الاختبارات قسوة! إذ يقوم بعمليات شراء غبية تتميز بالحد الأعلى من الاقتصاد. ثم يذهب، كذلك، مع منصور لشراء حصان آخر، فيدخل منصور، بخيلاء الفارس، على متن الحصان المزعوم إلى دكان الحلاق المحلي الذي يقص ماكس شعره فيه!

فيصيح ماكس: «اخرج من هنا أيها المجنون!».

«لكنه حصان رائع»، يصرخ منصور. «وهادئ!».

في تلك اللحظة، يشب الحصان على قائمتيه الخلفيتين فيختبئ كل من في الدكان خوفاً من حافريه الأماميين.

يطرح منصور والحصان في الخارج ويعود ماكس إلى حلاقة شعره مرجئاً كل ما يتمنى قوله لمنصور إلى وقت لاحق!

نتناول غداء شهياً ومنشوداً مع المقدم الفرنسي في الثكنة العسكرية وندعو بعض الضباط الفرنسيين لزيارتنا ونعود إلى هارودز كي نطلع على آخر ارتكابات ميشيل. يبدو أن السماء ستمطر فنقرر العودة في الحال.

تمت عملية شراءالحصان ويناشدنا منصور السماح له بالعودة إلى المنزل على متنه.

يقول ماكس إنه إن امتطاه فلن يصل إلى المنزل أبداً.

لكنني أقول إن الفكرة عظيمة وأناشد ماكس السماح لمنصور بامتطاء الحصان.

«سيتيبس جسدك على متنه ولن تكون قادراً على الحركة»، يقول ماكس.

فيجيبه منصور إن جسده لا يتيبس عندما يمتطي حصاناً.

يتم الاتفاق على أن يعود منصور إلى البيت على متن الحصان في اليوم التالي. فالبريد سيتأخر يوماً واحداً وبذلك يمكن لمنصور إحضاره معه.

تمطر السماء أثناء عودتنا (بصحبة الدجاجات المقيدة في وضعية غير مريحة كالعادة وبعض الكائنات البشرية المتهالكة). تنزلق السيارة في طريق عودتنا بطريقة مذهلة، لكننا نتمكن من الوصول إلى البيت قبل أن يصبح السير على الطريق متعذراً.

كان الكولونيل قد عاد للتو من تل براك وازدادت معاناته مع الخفافيش. وعلى الرغم من أنه استطاع استدراج الخفافيش إلى الحوض باستخدام مصباح كهربائي بنجاح كبير، إلا أنه قضى الليل برمته في ذلك، فلم يحصل على قسط كبير من النوم. نقول ببرود إننا لم نر أية خفافيش!

هنالك، في صفوف عمالنا، عامل يجيد القراءة والكتابة! اسمه يوسف حسن وهو واحد من أشد العمال كسلاً. فلم أره في زياراتي العديدة للموقع يعمل ولو مرة. فهو إما أن يكون قد انتهى، للتو، من حفر البقعة المخصصة له أو أنه على وشك أن يبدأ أو توقف مؤقتاً لإشعال لفافة. وهو فخور إلى حد ما بإجادته القراءة والكتابة. وفي أحد الأيام تسلى مع أصدقائه بكتابة العبارة التالية على علبة سجائر فارغة: «غرق صلاح برو في نهر جغجغ». فسر الجميع بسعة اطلاعه وبالدعابة نفسها!

ثم علقت علبة السجائر الفارغة هذه بكيس خبز فارغ تم دسه في كيس دقيق وعاد، كما هو متوقع، إلى المكان الأصلي الذي خرج منه، وهو قرية تل خنزير. وهناك، لاحظ أحدهم الكتابة فأخذها إلى

رجـل متعلم كي يقرأهـا. وعلى الفور أرسل الخـبر إلى قرية جيرماير، مسقط رأس صلاح بـرو. والنتيجة: يصل، في يوم الأربعاء التالي، إلى تـل براك، موكب عظيـم من المحزونين - من رجـال ونساء نائحات وأطفال باكين.

«يـا للأسـف، يا للأسـف، يصرخـون بلوعة. «لقد غـرق محبوبنا صلاح برو في جغجغ - ونحن هنا من أجل جثمانه!)».

ثـم يحدث أن يكـون أول مـا تقع أعينهـم عليه هـو صلاح برو شخصيـاً وهو يحفـر بفرح ويبصق في الرقعـة المخصصة له. ذهول- تليـه تبريرات- ثم يحاول صلاح برو، وقد فقد صوابه، أن يشج رأس يوسـف حسن بمعولـه. وينضم صديـق إلى كل من الطرفـين، قبل أن يصـل الكولونيل إلى المكان ويأمر الجميع بالتوقف (من دون جدوى) ويحاول اكتشاف سبب الشجار.

يعلن ماكس عن جلسة استجواب يليها النطق بالحكم.

يوقـف صلاح بـرو عن العمل يومـاً واحداً للسببـين التاليين: (أ) للشجـار، (ب) لعـدم الكف عن الشجار عندمـا أمر بذلك. في حين يحكـم على يوسف حسـن بالذهاب إلى جيرمايـر (أربعين كيلومتراً) سـيراً على الأقـدام كي يشرح ما حـدث ويقدم الاعتـذار عن فكرته الخرقاء. كما يتم تغريمه بأجر يومين.

أما العبرة مما جرى، فهي، على حد قول ماكس فيما بعد أمام حلقة من المختارين، أن معرفة القراءة والكتابة أمر بالغ الخطورة!

يصل منصور، الذي احتجز في القامشلي ثلاثة أيام بسبب الطقس الـرديء، فجأة، على متن الحصـان ميتاً أكثر منه حيـاً. ليس الأمر أنه يعجـز عن البقاء واقفاً فحسب - بل يضاف إلى تلك البلية قيامه بشراء

سمكـة كبيرة طازجة من القامشلي. لكن حال السمكة تسوء، بسبب اضطـراره إلى الانتظـار في المدينـة. ثم يحضرها معـه لسبب لا يمكن قبولـه! تدفن السمكة على عجـل ويذهب منصور إلى فراشه وهو يئن ويغيـب عن الأنظار ثلاثـة أيام. أما نحن، فنستمتـع، في تلك الأثناء، بالخدمة البارعة التي يقدمها صبري.

وأخيراً يحين موعد زيارة بركان تل كوكب. فيتطوع فرهيد للعمل دليـلاً لنا، وقد لاح على سحنته الذعر أكـثر من أي وقت مضى، لأنه «يعـرف المنطقة». نعبر نهر جغجغ على جسـر متهالك وندع أنفسنا لقيادة فرهيد البائسة.

لكن أمورنا ليست بذلك السوء، في الواقع، بمعزل عن فرهيد الذي يكاد القلق يقضي عليه في الطريق. إذ يلوح كوكب في الأفق باستمرار وهـو أمر مفيد، لكن الأرض الصخريـة التي علينا عبورها تزداد سوءاً مع دنونا من البركان الخامد.

هيمنـت أجواء التوتر على البيت قبل انطلاقنا – فقد نشب خلاف حاد حول قطعة صابؤن صغيرة سرعان ما تحول إلى هياج جماعي. ثم يقول رؤساء العمال ببرود إنهم يفضلون عدم الذهاب في الرحلة، لكن الكولونيـل يرغمهم علـى ذلك. فيستقلون مـاري الزرقاء من جهتين مختلفتين ويجلسون وقد أدار كل منهم ظهره للآخر! ويجلس سركيس بينهمـا في وضعية القرفصـاء كالدجاجة ويمضي الرحلة دون أن يكالم أحـداً. يصعب تحديد من تشاجر مع مـن بالضبط. لكنهم ينسون كل شيء مـع وصولنا إلى كوكب. كنا نتوقع أن يكون في انتظارنا منحدر سلس وأرض مفروشة بالأزهار، بيد أننا نفاجأ، مع وصولنا، بمنحدر حـاد كالجدار وبأرض تغطيها أحجـار بركانية سـوداء زلقة. يرفض

ميشيـل وفرهيـد الصعود منذ البدايـة بحزم، أما الباقـون فيحاولون. وسرعان مـا أستسلم وأجلس أرضاً كي أستمتـع بمرأى الآخرين وهم يزلون ويلهثون ويتعثرون. وينتهي الأمر بعبد السلام بأن يكمل طريقه على أربع!

هنالـك فوهة أصغر نتنـاول الغذاء على حافتهـا. وهنالك كذلك الكثـير مـن الأزهار، فيـا لها من لحظـات جميلة. يحيـط بنا من كل الجهـات مشهـد ساحر وتلوح تـلال جبل سنجار مـن مسافة ليست بالبعيـدة. السكون مطبق في هذا المـكان الرائع. وتجتاحني موجة من السعـادة وأدرك، في تلك اللحظة، مقدار حبي لهذه البلاد – وكم إن الحياة فيها كاملة ومرضية.

الفصل التاسع

وصول ماك

يشارف الموسم على النهاية ويحين موعد انضمام ماكس إلينا ونحن نتطلع للقائه قدماً. يطرح بامبس العديد من الأسئلة عن ماك ويقابل بعض إجاباتي بعدم التصديق. هنالك حاجة إلى وسادة جديدة، فنشتري واحدة من القامشلي، هي أفضل ما نجده، لكنها صلبة كالرصاص بما لا يقبل أي نقاش.

«لا يمكن للزميل العزيز أن ينام على هذا الشيء»، يقول بامبس.

أؤكد له أن ماك لا يمانع في النوم على أي شيء.

«البراغيث والبق لا تقترب منه، ولا تثقل كاهله أية أمتعة أو مقتنيات شخصية». ثم أضيف وأنا أتذكر: «ربما باستثناء بساطه ذي النقوش المربعة ودفتر يومياته».

يبدو بامبس أكثر ارتياباً من ذي قبل.

يحين يوم وصول ماك – الذي يصادف يوم عطلتنا، فنخطط لحملة معقدة. يغادر الكولونيل إلى القامشلي في الخامسة والنصف صباحاً بالسيارة بيلو كي ينتهز فرصة انتظار ماك في قص شعره. (والكولونيل يقص شعره باستمرار لأنه يصر على الالتزام بالحلاقة العسكرية!).

نتناول طعام الفطور في السابعة ونغادر في الثامنة إلى عامودا

حيث من المقرر أن نلتقي هناك بالآخرين ونمضي معاً إلى رأس العين كي نفحص بضعة تلال في الأرجاء. (عطلاتنا هي على الدوام أشبه بعطلات سائقي الحافلات!). يرافقنا في الحملة، كذلك، كل من صبري وديمتري اللطيف، فيتأنقان وينتعلان حذائين لامعين ويعتمران قبعتي هومبورغ ويرتديان سترتين أرجوانيتين ضيقتين عليهما، ضيقتين للغاية. أما ميشيل الذي علمته تجاربه السابقة المريرة الكثير، فيكتفي بملابس العمل - لكنه يضع طماقين أبيضين في دلالة على حس العطلة لديه.

عامودا قذرة كالعادة، بل إني لا أتذكر أنني شاهدت فيها هذا العدد من جيف الخرفان المتفسخة من قبل. الكولونيل وماك لم يصلا بعد، فتراودني فكرة أن بيلو ربما يكون قد خذل الكولونيل كالعادة.

بيد أنهما سرعان ما يصلان. وبعد القيام ببعض المشتريات (الخبز على رأسها - فخبز عامودا ممتاز)، نتحضر للانطلاق كي نفاجأ ببيلو وقد حاد عن سلوكه الطيب الذي أبداه حتى الآن، إذ تفرغ إحدى عجلاته من الهواء، فيهرع ميشيل وصبري كي يعالجا الأمر ويحتشد حولهما جموع من الناس يزدادون، بالتدريج، التصاقاً بهما - كما هي عادة العاموديين.

نتابع المسير أخيراً. ثم بعد مرور ساعة، يكرر بيلو سلوكه الشرير فتفرغ عجلة أخرى من الهواء. مزيد من عمليات الإصلاح، لكن، يبدو الآن أن عدة بيلو لم تعد صالحة. فالرافعة لا تعمل ومضخة الهواء معطلة تماماً. لكن صبري وميشيل يجترحان المعجزات فيستخدمان أسنانهما وأظفارهما في سد الأجزاء التالفة من الخرطوم.

وأخيراً، نستأنف رحلتنا من جديد بعد أن أضعنا ساعة ثمينة. ثم

نصل إلى واد امتلأ بالماء على نحو غير منتظر - فنتوقف ونتداول في مسألة ما إذا كان اجتياز الوادي بسرعة كفيلاً بإخراجنا منه.

ميشيل وصبري، بالطبع، من أنصار الرأي القائل إن الأمر ممكن بمشيئة الله وواسع رحمته. لكننا نقرر، لبالغ الأسف، أن نتعقل وقد أخذنا في الحسبان أنه إن لم يكن الله تعالى راغباً في التدخل وانتشال هيكل بيلو بمعجزة ما، فإننا سنعلق في الوادي وقد لا نخرج منه.

يخيب قرارنا رجاء سكان القرية المحلية إلى درجة تدفعنا إلى الظن أنهم ربما يجنون قوت يومهم من انتشال السيارات الغارقة. يخوض ميشيل غمار الماء في الوادي لاختبار عمقه، فتتراءى ملابسه التحتية على نحو مدهش! سروال قطني أبيض غريب معقود على كاحليه بشريطين يبدو معهما كسروال نسائي تحتي من العصر الفيكتوري!

نقرر تناول طعام الغداء بمحاذاة الوادي. وبعد الغداء أجدف في الماء بقدمي مع ماكس - وكان الأمر ممتعاً إلى اللحظة التي برزت فيها أفعى من الماء حارمة إيانا من التجديف.

يدنو منا رجل عجوز ويجلس بجوارنا. يسود الصمت الطويل المعهود الذي يلي إلقاء التحية.

ثم يستفسر منا بأدب جم إن كنا فرنسيين؟ ألماناً؟ بريطانيين؟

إنكليز!

يهز رأسه. «هل أصبحت البلاد تابعة للإنكليز الآن؟ لا أستطيع أن أتذكر. أعرف أنها لم تعد تتبع للأتراك».

نقول: «لا. لم يعد الأتراك موجودين هنا منذ الحرب».

«الحرب؟» يقول الرجل بحيرة.

«الحرب التي دارت منذ عشرين عاماً».

يفكـر. «لا أتذكر أية حرب... آه، نعـم، في الوقت الذي ذكرته، كان العسكر يتنقلون علـى السكة الحديدية جيئة وذهاباً. تلك كانت الحرب؟ لم نعرف أنها كانت حرباً. لم تصل إلينا هنا».

ثـم ينهض، بعد صمت طويـل، ويودعنا بتهذيب ويمضي في حال سبيله.

نعـود عن طريق تـل بندا الذي تتناثـر فيه ما تبدو آلافـاً من الخيام السـوداء. إنهم البدو القادمون من الجنوب من أجل المرعى مع اقتراب فصل الربيع. هنالك مـاء في وادي وجه والمشهد برمته ينبض بالحياة. أما بعد أسبوعين، على وجه الاحتمال، فسيصبح المكان خاوياً ويسود الصمت فيه من جديد.

ألتقـط لقية من سفوح تل بندا. تبدو القطعـة أشبه بصدفة صغيرة، لكنني أكتشف، بعد التدقيق، أنها، في الواقع، مصنوعة من الصلصال وعليها آثار طلاء. تثير هذه القطعة فضولي وأحاول أن أتكهن، من غير جـدوى، هوية مـن صنعها ولأية أسباب. هل كانـت تزين مبنى ما أو صنـدوق أدوات تبرج أو طبقاً؟ هل هـي صدفة بحرية – من ذا الذي خيل إليه أو علم أن البحر كان يغمر تلك المنطقة وهي على ما هي عليه من يابسة كل تلك الآلاف من السنين؟ أدعو ماكس إلى التخمين معي – لكنـه يقول بحذر إننا لا نملك أية بيانـات – ثم يستدرك بلطف إنه سيستعلـم من أجلي إن تم العثـور على أشياء من النوع نفسه في أماكن أخـرى. أما ماك، فلا أنتظر منه مجـرد المحاولة– فهذا ليس من طبائعه والأمـر لن يثـير اهتمامه، في حين يبـدي بامبس قـدراً أكبر بكثير من اللطـف ويوافق بحماسـة على الانخراط في اللعبـة. ويستمر البحث

عن «تنويعات على الصدفــة الصلصالية» لبعض الوقت، إلى أن ينتهي الأمر بنا إلى الالتقاء عند الكولونيل الذي جمع أشياء كلها رومانية (في انحــراف رهيب عن نوعية التنقيب الذي نقــوم به). أوافق، مكرهة، على تجشم عناء التقاط صورة فوتوغرافية لمشبك روماني كان موجوداً بين لقانا (التافهة)، بل وأخصه بلوحة تعريف!

نعــود إلى البيت والبهجــة تغمرنا، فيهرع الشيــخ للترحيب بماك. «ها، الخواجة المهندس!». ويقبله بحرارة على وجنتيه.

يضحك الكولونيل بصوت خافت، فيحذره ماكس:

«سوف تلقى المعاملة نفسها في المرة القادمة».

«لن أسمح لنفسي أن يقبلني هذا العجوز القميء؟»

فنراهنــه على ذلك، لكنه يستمر على تصلبه وترفعه. يخبرنا ماكس أنــه، هو نفسه، استقبل كما يليق بأخ وتلقــى عناقاً قلبياً حاراً– «لكن ذلك لن يحدث لي»، يقول الكولونيل بحزم.

يرحــب رؤســاء العمال بمــاك بحــرارة ويغدقون عليــه الكلمات بالعربية، في حين يجيبهم بالإنكليزية كالمعتاد.

«آه، الخواجــة ماك!»، يتنهد علاوي. «ما يزال مضطراً إلى الصفير كي يحصل على ما يريد!».

يتجسد أمامنا عشــاء حافل في أقل من لحظة، تليه حلويات خاصة احتفــالاً بالعيد وبقدوم ماك (حلويات تركية، باذنجان محفوظ، قضبان شوكولا والسيجار)، ثم نجلس ونتكلم، ولو لمرة واحدة، في شؤون لا علاقة لها بعلم الآثار.

نتناول مسألة الأديان بشكل عام، وهي مسألة شائكة في هذا الجزء

الخاص من العالم لأن سورية تحفل بطوائف متعصبة من كل الألوان – ترغب كل طائفة منها في جز أعناق الطوائف الأخرى لأسباب وجيهة! ومن هناك، ننتقل إلى مناقشة قصة السامري الصالح. تتخذ كافة قصص الكتاب المقدس والعهد الجديد واقعية خاصة في هذا المكان وتتمتع بمكانة مميزة. فهي كامنة في اللغة وفي العقيدة اليومية التي نسمعها باستمرار حيثما حللنا، وكثيراً ما أباغت بأن الاهتمام يتناول، أحيانا، جوانب غير تلك المتعارف عليها على نطاق واسع. إذ يتبين لي، فجأة، في قصة إيزابيل مثلاً، أن طلاء وجهها وزينة شعرها هما، بالضبط، ما تعنيه «إيزابيل» في الأوساط البروتستانتية البيوريتانية. أما هنا، فالأمر لا يتعلق بطلاء الوجه أو بزينة الشعر – فكل النساء العفيفات يطلون وجوههن (أو يقمن بوشمها) ويصبغن شعورهن بالحناء – بل حقيقة أن إيزابيل «أطلت من النافذة» – وهو فعل يفتقر إلى الاحتشام بالتأكيد!

ثم نقارب العهد الجديد حين أسأل ماكس أن يعيد علينا جوهر حواراته الطويلة مع الشيخ – لأن نقاشاتهما تقوم، كلياً، على الأمثال – إذ يلجأ المرء، كي يعبر عن رغباته أو مطالبه، إلى قصة تحمل إشارة إليها – فيقابلها الطرف الآخر بقصة أخرى تقلب الطاولة – وهلم دواليك. أما اللغة المباشرة، فلا تستخدم على الإطلاق.

تتخذ قصة السامري الصالح، في هذه الأرجاء، واقعية لا يمكن أن تحملها في أجواء الشوارع المزدحمة والشرطة وسيارات الإسعاف والمستشفيات والمؤسسات العامة المعنية بتقديم المعونة. فإن سقط رجل على حافة الطريق الصحراوي الشاسع بين الحسكة ودير الزور، فإن هذه القصة يمكن أن تتكرر بسهولة في أيامنا هذه،

وهـي تظهر القيمة الكبـيرة التي تتخذها الشفقـة في عيون سكان الصحراء.

ثم يباغتنا ماكس بالسـؤال عن كم واحد منا سيهب لنجدة إنسان آخر حيث لا شهود ولا قوة رأي عام ولا معرفة أو حس.بمعنى الامتناع عن مد يد العون؟

«كلنا بالطبع»، يجيب الكولونيل بحزم.

«حقاً؟» يجيب ماكس بإصرار. «رجل ممدد في الأرض ويحتضر. تذكـر أن الموت هنا ليس بتلك الأهمية. أنت علـى عجلة من أمرك. لديك ما تقوم به ولا تريد لشيء أن يؤخرك أو يزعجك. وليس للرجل أية صلة قرابة بك. ولن يعرف أحد إن كنت قد قلت، في نهاية المطاف، إن الأمر لا يعنيك وإن أحداً آخر سيتولى الأمر، الخ... الخ...».

نستغـرق، جميعـاً، في كراسينا ونفكر وقد شعرنـا، كلنا، على ما أظن، بشيء من الانكسار. هل نحن واثقون تماماً بجوهرنا الإنساني؟

وبعـد صمت طويل، يقـول بامبس ببطء: «أظن أننـي سأمد له يد العون... نعـم، أظن أنني سأقوم بذلك. ربمـا أذهب في حال سبيلي، ثم، قد أشعر بالعار وأعود إليه».

يوافقه الكولونيل.

«بالضبط، لا يمكن للمرء أن يشعر بالراحة».

يقول ماكس إنه يظن، بالفعل، أنه سيقوم بذلك، لكنه ليس متأكداً من نفسه تماماً وأتفق في الرأي معه.

يسـود الصمت بيننا لبعض الوقت ثم أنتبه إلى أن ماك، كالعادة، لم يدل بدلوه.

«ماذا كنت لتفعل يا ماك؟»

يستيقـظ ماك من ذهوله اللذيذ ويتكلم وقد فوجئ قليلاً: «أنا؟ آه، كنت لأمضي. لم أكن لأتوقف».

« لم تكن لتتوقف؟ على الإطلاق؟»

ننظر إليه باهتمام في حين يهز رأسه الرقيق.

«الناس يموتون كثيراً في هذه الأرجاء. يستطيع المرء أن يشعر أن الأمر لا يعود يعني له شيئاً، إن عاجلاً أو آجلاً. لا أتوقع أن يقف أحد من أجلي».

لا، هذا صحيح، لا يتوقع ماك ذلك.

ثم يمضي بصوته اللطيف قائلاً.

«أظن أنه أفضل للمرء أن يمضي في حال سبيله– دون أن يلهيه الآخرون والأحداث باستمرار».

نستمر في النظر إليه باهتمام. وفجأة، تداهمني فكرة.

فأقول: «لكن فلنفترض أن الأمر يتعلق بحصان».

«آه، حصان!»، يقول ماكس وقد استعاد إنسانيته وحيويته على نحو مفاجئ و لم يعد مستغرقاً في ملكوته البعيد. «الأمر سيكون مختلفاً تماماً! كنت، بالطبع، لأقوم بكل ما هو ممكن من أجل الحصان».

فننزجر، جميعاً، ضاحكين ويبدو وكأنه قد بوغت.

اليوم هو يوم الإمساك بالتأكيد. فقد أصبحت الحالة الصحية لعبد السلام موضوع الساعة في الأيام القليلة الماضية. ووصفت له كل أنواع الملينات. لكن النتيجة أنه أصبح، «أكثر وهناً»، كما يقول.

«علي أن أذهب إلى القامشلي يا خواجة كي آخذ حقنة ترد لي قوتي».

أما الحالة الصحيـة لصالح حسن فأكثر خطورة. إذ قاومت أمعاؤه كل أنواع الوصفات- من أكثرها لطفاً كشراب إينو إلى أشدها ضراوة متمثلة بنصف زجاجة من زيت الخروع.

مـا يزال لـدى ماكس بعض المخـزون من عقار طبيـب القامشلي الكفيـل بشفـاء حصان. فيعطـي المريض جرعـة كبيرة مؤكـداً له أنه سينفحه بقشيشاً مجزياً «إن تحركت [أحشاؤه] قبل المغيب».

فيلتئـم شمل أصدقائـه وأقربائه حوله في الحـال ويمضون فترة بعد الظهـيرة في الـدوران معه حـول الأكمـة مشجعين إيـاه بالصيحات والنصـح وعيونهـم شاخصـة بقلق علـى الشمس التـي توشك على المغيب.

تـكاد المهلـة تنقضي. ثم، بعد ربع ساعة تقريبـاً من إطلاق صافرة نهاية يـوم العمـل، تتناهى إلى مسامعنـا أصوات صيحـات وتهليل. وتنتشر الأنباء كالنار في الهشيم! لقد فتحت بوابات الفيضان! ويتحلق حـول الرجل الشاحب حشد صاخب مرافقـاً إياه إلى البيت كي ينال المكافأة الموعودة!

أدار صبري، الذي يتولى بالتدريج المزيد من المسؤوليات، مؤسسة براك بقبضة حديديـة - معتبراً أنها لم ترق بعد إلى المستوى المطلوب! فهو، مثـل الآخرين، غيور علـى «سمعتنا». ينجح صـبري في إقناع ميشيـل بـأن يتنكر لعقيـدة «الايكونوميـا» وأن يبتاع مـن البازار في القامشلـي أطباقـاً للحساء. هكذا، تشق هذه الأطبـاق، بالإضافة إلى قـدر كبير، طريقها إلينا كل مساء وتحتـل مساحات واسعة من الطاولة الصغيرة، فنجد أنفسنـا مضطرين إلى وضع كل شيء آخر على السرير

بحذر شديد! ثم ينسف مفهوم فرهيد عن كونك تستطيع أن تأكل كل شـيء باستخدام سكين وتظهر بمجموعة مذهلة من أدوات المائدة. كما يمنح صبري هايو حماماً ويحل عقد شعرها بمشط كبير (اشتراه ميشيل بحقد) بل إنه يعقد حـول عنقها طوقاً من الساتان الوردي الرخيص. هكذا تكرس هايو نفسها له!

وصلـت زوجة السقاء مـع ثلاثة مـن أطفاله العشـرة. (يخاطبني ماكـس بلوم: «هذا صنيع يديك»). وهي امـرأة نائحة وبغيضة بعض الشـيء. أما الأطفال فمنفرون على نحـو استثنائي. فأنوفهم، بصريح القـول، في حالة تبعث علـى الغثيان. لماذا يعتبر سيـلان الأنف عندما يترك وشأنـه حكراً على صغار الإنسان؟ إذ لا يبـدو أن صغار القطط والجراء وصغار الحمير تعاني من هذا البلاء.

يعلمهم ذووهم الشاكرون وجوب تقبيل أطراف أثواب المحسنين الكرام في كل فرصة ممكنة، فيطيعون الأمر متملصين من كل محاولاتنا الإفلات مـن هذا الطقس! ثم تبـدو أنوفهم في حـال أفضل وأشاهد ماكس وهو يرمق كمه بنظرة تعوزها الثقة!

نستهلـك، في هـذه الأيـام، كميات كبـيرة من الحبـوب المسكنة لمواجهة الصداع. فالجو، الآن، قائظ وعاصف. يستغل رجالنا فضائل العلـم بشقيه الغربـي والشرقي معـاً. فيبتلعون الحبـوب المسكنة التي نقدمها لهم ثـم يهرعون إلى الشيخ الذي يضع علـى جباههم أقراصاً معدنية ساخنة حتى الاحمرار «كي يطرد الروح الشريرة». أما أنا، فلا أدري، على وجه التحديد، الطرف الذي يعزى إليه الفضل بالشفاء!

يكتشـف منصور، هذا الصباح، أفعـى في غرفة نومنا عند دخوله إليها لـ «ترتيبها». الأفعى ملتفة على نفسهـا في السلة تحت المغسلة.

يســود الهرج والمرج ويسارع الجميع كــي يشاركوا في قتلها. أما أنا، فأسمع برعب، على مدى الليالي الثلاثة التالية قبل استغراقي في النوم، صوت فحيح. ثم أنسى الأمر برمته.

أســأل ماك علــى الفطور ذات صبــاح إن كان يرغب في الحصول على وسادة أنعم وأغمز بامبس بطرف عيني.

فيجيبني ماك وقد بدا أنه أخذ على حين غرة: «لا أظن ذلك. وهل هنالك من عيب في وسادتي؟»

أرمي بامبس بنظرة ظفر فيبتسم بتكشيرة.

ثــم يعــترف لي فيما بعــد: «لم أصدقــك في ذلك الحــين. ظننتك تختلقــين قصة عن ماك، لكنــه، في الواقع، شخصــ لا يصدق. يبدو أن لا شــيء ممــا يلبسه يتســخ أو يتمزق أو يتجعد. وهــو، كما تقولين بالضبط، لا يملك شيئــاً في غرفته باستثناء بساطه ودفتر يومياته، بل إنه لا يحتفظ ولو بكتاب. لا أعرف كيف يتدبر شؤونه».

أطوف بنظري على النصف الخاص ببامبس من الغرفة التي يشارك الكولونيل إياها، الذي تتناثر فيه من غير ترتيب علامات على شخصيته العامرة بالحيوية. وحدها الجهود المضنية التي يبذلها الكولونيل هي ما يحول دون حصول اجتياح لنصف الغرفة المخصص له.

فجأة، يبدأ ميشيل بضرب ماري الزرقاء المتوقفة تحت النافذة.بمطرقة كبيرة فيطير بامبس إلى الخارج كالصاروخ طالباً منه التوقف!

يبــدي كل من ماكس وبامبس، في هذه الفترة وقد حل الحر، تبايناً كبــيراً في طريقه ملبسهما. إذ ينزع بامبســ عنه كل ما يستطيع خلعه. أما ماكس، فينتهج الطريقة العربية ويضع على جسده كل ما هو متاح.

وهو الآن يرتدي معطفاً ثقيلاً من التويد ولا يبدو عليه أنه يعير أي اهتمام للشمس.

أما ماك، فنلاحظ أن الشمس لم تلفحه!

اقتربت اللحظة المحرقة، لحظة «الاقتسام». فمع انتهاء الموسم، يحضر مدير الآثار أو يرسل مندوباً عنه لتقاسم حصيلة الموسم.

تتم هذه العملية، في العراق عادة، على مستوى القطعة وتستغرق عدة أيام.

أما في سوريا، فالنظام أشد بساطة. إذ يترك لماكس أمر توزيع كل ما تم العثور عليه إلى قسمين بالطريقة التي يرتئيها. ثم يأتي ممثل الجانب السوري ويفحص المجموعتين ويختار تلك التي ستعود ملكيتها إلى سورية، وتوضب المجموعة الأخرى من أجل إرسالها إلى المتحف البريطاني. كما يتم، عادة، اقتراض أية قطعة فريدة أو ذات أهمية خاصة قد يضمها النصف السوري كي تدرس وتعرض وتصور، الخ... في لندن.

ويكمن الشقاء الحقيقي في تشكيل المجموعتين. فأنت محكوم بخسارة قطع تريدها بشدة، وعليك، بالتالي، أن تضبط التوازن بين المجموعتين. يستدعينا ماكس، جميعنا، لمساعدته في فرز القطع إلى فئات. مجموعتان من الفؤوس الحجرية، مجموعتان من التمائم وهكذا: قدور، حلي، أغراض مصنوعة من العظام، ... ثم ينادينا، الواحد تلو الآخر.

«الآن، أية مجموعة من الاثنتين ستأخذين؟ أ أو ب؟»

أتأمل المجموعتين.

«كنت لآخذ المجموعة ب».

«حقاً؟ حسناً. أرسلي بامبس».

«بامبس، أ أو ب؟»

«ب».

«كولونيل؟»

«أ بالتأكيد».

«ماك؟»

«ب على ما أظن».

«همم»، يقول ماكس. «ب مجموعة قوية بالتأكيد».

ثــم يسحب تعويذة حجرية صغيرة جميلة على شكل رأس حصان مــن المجموعة ب ويضمها إلى المجموعــة أ، مستبدلاً بها حملاً قبيحاً بعض الشيء ويجري بضعة تعديلات إضافية.

وندخل من جديد. وهذه المرة، نرجح المجموعة أ.

فيشد ماكس شعره.

وينتهــي الأمــر بنــا، في نهاية المطــاف، إلى أن نفقــد كل إحساس بالقيمة والمظهر.

في ذلك الوقت، يعم المكان نشــاط محموم. بامبس وماك يرسمان كالمجانــين ويهرعان إلى التل لرفع مخططــات البيوت والمباني. ويمضي الكولونيــل الليل في العمــل على اللقى التي لم يتم فرزهــا بعد تصنيفاً وتسمية. وآتي لمساعدته ونختلف بعنف على التسميات.

«رأس حصان– من الحجر الصابوني».

أنا: «إنه كبش».

«لا. انظري إلى اللجام».

«هذا قرن».

«هيه، ماك. ما هذا؟»

ماك: «إنه غزال».

الكولونيل: «بامبس – ماذا تدعو ذلك؟»

أنا: «كبش».

بامبس: «يبدو وكأنه جمل».

ماكس: «لم يكن هنالك من جمال. الجمل حيوان حديث للغاية».

الكولونيل: «حسناً. ماذا تقول عن هذا؟»

ماكس: «بوكرانيوم أسلوبي!».

على هذه الشاكلة يمضي الأمر بين تعاويذ صغيرة متنوعة مبهمة تمثل كلى وأخرى ملتبسة ومحيرة نطلق عليها، بتحفظ، اسماً مناسباً هو «قطعة عبادة».

أحمض الأفلام وأطبعها وأحاول الإبقاء على الماء بارداً قدر الإمكان – أقوم بمعظم العمل في الصباح الباكر، في الساعة السادسة. فالجو يصبح قائظاً للغاية في هذا الوقت من العام.

يغادرنا عمالنا يوماً بعد يوم.

«إنه موسم الحصاد يا خواجة. علينا أن نذهب».

اختفت الأزهار منذ أمد طويل، وقد أكلتها قطعان الماشية، واكتسى التل بلون أصفر باهت، والسهول حوله مغطاة بالذرة والشعير. الموسم

هذه السنة طيب.

وأخيراً، يحل اليوم المحتوم. فالسيد دونان وزوجته قادمان هذا المساء. إنهما صديقان قديمان سبق وقابلناهما في بعلبك عندما كنا في بيروت.

يحل المساء ويتم إعداد عشاء ممتاز (أو عشاء نظنه ممتازاً)، وتستحم هايو. يلقي ماكس نظرة متأملة أخيرة على المجموعتين اللتين تم توزيعهما على طاولات كبيرة من أجل المعاينة.

«أظن أن التوازن محقق. فإن خسرنا تعويذة رأس الحصان الصغيرة الجميلة تلك وذلك الختم الأسطواني النادر (المثير للاهتمام إلى حد كبير!)، حسناً، فسنحصل على إلهة شاغر بازار الأم وعلى التعويذة ذات الفأس المزدوج وذلك القدر ذي النقوش الدقيقة... لكن، بالطبع، هناك ذلك القدر العتيق المطلي على الجانب الآخر. آه، اللعنة. علينا أن نحل هذه المشكلة الآن. أيهما تختارون؟»

نرفض بحسنا الإنساني المشترك أن تستطيل اللعبة أكثر من ذلك ونقول إننا لا نستطيع، ببساطة، أن نقرر. فيتمتم ماكس واصفاً دونان بالحكم الداهية. «سينال النصف الأفضل بالتأكيد».

فنقوده بعيداً بحزم.

تمضي الساعات ويحل الليل ولا أثر للزوجين دونان.

«أتساءل عما يمكن أن يكون قد حل بهما؟» يفكر ماكس. «إنهما، كغيرهما في هذه الأرجاء بالطبع، يقودان بسرعة تسعين ميلاً بالساعة. آمل أنهما لم يتعرضا لحادث».

العاشرة ليلاً، الحادية عشرة ليلاً ولم يصل آل دونان بعد.

يتساءل ماكس إن كانا قد ذهبا إلى براك بدلاً من شاغر.

«لا. بالتأكيد لا. إنهما يعلمان أننا نقيم هنا».

وعند منتصف الليل، نستسلم ونمضي إلى أسرتنا. فالناس هنا لا يستقلون السيارات كثيراً بعد حلول الظلام.

ثم بعد ساعتين، نسمع صوت سيارة. يهرع الفتية إلى الخارج وينادوننا بحماسة. فنهب من أسرتنا ونرتدي ما نصادفه ونخرج إلى غرفة المعيشة.

إنهما الزوجان دونان وقد ذهبا إلى براك عن طريق الخطأ. فقد سألا، عند مغادرتهما الحسكة، عن الطريق إلى «موقع التنقيب عن الآثار» فأشار عليهما رجل كان يعمل في تل براك باستمرار بالذهاب إليه. ثم ضلا الطريق واستغرق العثور على التل بعض الوقت. ولدى وصولهما، رافقهما دليل إلى شاغر عبر الأراضي الريفية.

لقد أمضيا نهارهما في السيارة، بيد أنهما يبدوان سعيدين للغاية وغير مكدرين.

يقول ماكس: «يجب أن تتناولا شيئاً».

فتقول مدام دونان بتهذيب إنه لا ضرورة لتقديم شيء، بل يكفي كأس من النبيذ وقطعة من البسكويت.

في تلك اللحظة بالذات، يدخل منصور وفي إثره صبري وبرفقتهما وجبة عشاء كاملة من أربع جولات! أما كيف تمكن الخدم من تدبر الطعام بهذه الطريقة فأمر أجهله تماماً. فهو أشبه بالمعجزة. يتبين لنا أن الزوجين دونان لم يتناولا شيئاً وأنهما جائعان للغاية، فنأكل ونشرب حتى الساعات الأخيرة من الليل ومنصور وصبري واقفان يرمقاننا بابتسام.

وأثناء ذهابنا إلى النوم، يقول ماكس كالحا لم إنه يود لو يأخذ منصور وصبري معه إلى إنكلترا. فأقول وكنت، بدوري، أرغب في الحصول على صبري: «إنهما نافعان للغاية».

أتصور، في لحظة الصمت التي تلت ذلك، الأثر الذي يمكن أن يتركه صبري على خدمة المنزل على الطريقة الإنكليزية، بسكينه الكبيرة-بمئزره المشبع بالزيت وبذقنه غير الحليقة وبضحكته الكبيرة المجلجلة، وباستخدامه الرائع للقطع القماشية المخصصة لتنظيف الزجاج!

الخدم في الشرق كالجان. فهم ينبثقون على حين غرة من حيث لا تتوقع وتجدهم، لدى وصولك، في الانتظار.

لم نكن قد أشعرنا أحداً بقدومنا، لكننا وجدنا ديمتري، هناك، ينتظرنا. لقد قطع كل ذلك الطريق من الساحل كي يكون حاضراً عند وصولنا.

«كيف عرفت أننا قادمون؟»

«الأمر معروف أنه سيكون هناك تنقيب هذا العام أيضاً».

ثم يضيف بلطف: «وهو أمر موضع ترحيب. فأنا الآن أعيل أسرتي اثنين من أشقائي، حيث تضم الأولى ثمانية أطفال والثانية عشرة. هم يأكلون كثيراً. ولذلك فإن كسب المال أمر جيد. قلت لزوجة أخي: 'أترين كم إنّ الله عظيم. لن نجوع هذا العام - لقد نجونا- الخواجات قادمون من أجل التنقيب!'».

يمضي ديمتري بعيداً بلطف عارضاً سرواله الموسليني المزدان برسوم الأزهار. دماثة وجهه بتعبيراته المتأملة تبز أمومة عذراء شاغربازار بما لا

يقاس. إنه يحب الجراء وصغار القطط والأطفال. وهو، وحده، دوناً عن بقية الخدم، لا يتشاجر مع الآخرين. بل إنه لا يستعمل السكين إلا في المطبخ.

ينتهي كل شيء! أنجزت عملية الاقتسام بعد الفحص والتدقيق والتفكر ووقفنا نتأمل العملية والألم المعتاد يعتصر قلوبنا. يستغرق الأمر من السيد دونان ساعة كي يتخذ قراره. ثم يمد يده بإشارة غالية سريعة.

«*Et bien*، سوف آخذ هذه».

أما نحن، فنتمنى على الفور، بما تمليه الطبائع البشرية، لو أنه اختار المجموعة الأخرى.

ينتهي التشويق، على كل حال، وتتلاشى أجواء التوتر، ويسود الفرح ويتحول الاجتماع إلى حفلة. ثم نلتفت إلى موقع التنقيب ونفحص المخططات والرسوم المعمارية ونتوجه إلى تل براك ونناقش أعمال التنقيب للموسم القادم وما إلى ذلك. يتجادل ماكس والسيد دونان في التواريخ الدقيقة وفي تعاقب العمل. وتروّح مدام دونان عنا بملاحظاتها الدقيقة والفكهة. نتجاذب أطراف الحديث بالفرنسية على الرغم من أنه يخيل إلي أنها تجيد الإنكليزية. يضحكها ماك بالتزامه الصارم بكلمتي *oui* أو *non*.

«*Ah, votre petit architecte, il ne sait pas parler? Il a tout de même l'air intelligent!*».[٢٩]

٢٩–بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "آه، إنه لا يجيد الكلام، مهندسك المعماري الصغير؟ على الرغم من أنه يبدو ذكياً" (المترجم)

فنكرر الجملة لماك الذي لا يبدي أي اضطراب.

وفي اليـوم التالي، يتحضر الزوجان دونان للرحيل. التحضيرات ليست كثيرة – إذ يرفضان أخذ أي طعام أو شراب معهما.

يهتف ماكس: «ستأخذان ماء بالتأكيد»، مذكـراً إياهما بالمبدأ القائل بعدم السفر في هذه الأرجاء دون ماء.

فيهزان رأسيهما بلا مبالاة.

«افترضا أن السيارة تعطلت».

فيضحك السيد دونان ويهز رأسه.

«آه، لن يحدث ذلك».

ويعلـق جهـاز التروس وتنطلق السيـارة بالأسلـوب الفرنسي الصحراوي المعهود. أي بسرعة ستين ميلاً في الساعة!

لم تعـد لدينا أية تساؤلات عن أسبـاب ارتفاع معدلات وفيات علماء الآثار في هذه البقعة من العالم.

أمـا الآن، فنوضب قطعنـا ونستغرق في ذلك عـدة أيام! فتملأ الصناديق، الواحد تلو الآخر، وتغلق بإحكام وتدمغ.

ثم يأتي الدور على استعدادنا، نحن للرحيل. ننطلق من الحسكة على طريق قليل الاستخدام يخـترق البراري إلى مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات حيث سنعبر النهر من هناك.

ويقـول ماكس: «وسـوف نتمكـن من إلقـاء نظـرة على نهر البليخ!».

ينطـق كلمة «البليخ» بطريقة نطقه كلمــة «جغجغ»، فأخال أنه يخطـط للحصول على قسط مــن التسلية في منطقــة البليخ قبل أن يترك التنقيب في سورية نهائياً.

أقول ببراءة: «البليخ؟»

فيجيبني بوقار: «تلال عظيمة على طول النهر».

الفصل العاشر

الرحيل إلى الرقة

ها نحن ننطلق من جديد!

الألـواح الخشبيـة تغلـف المنزل مـن كل جوانبـه وسركيس يثبت الألـواح الأخيرة على الأبواب والنوافذ، في حـين يقف الشيخ جانباً وقـد انتفخـت أوداجه بخيـلاء. سيتم تأمـين كل شـيء إلى أن نعود! وسيعـين أكثر رجال القرية مصداقية خفـيراً لدينا! حيث سيقوم، على ما يقول الشيخ، بحراسة المنزل ليل نهار!

«لا تخـف يا أخي!»، يصـرخ الشيخ. «سيخضـع المنزل للحماية حتى لو اضطررت لدفع المال للرجل من جيبي».

يتسم ماكس، عالماً تمام العلم أن المكافأة المجزية المخصصة للخفير ستنتهي، على الأرجح، إلى جيب الشيخ، على شكل خوات.

ويجيـب: «سيكـون كل شيء علـى ما يرام في ظـل رعايتك. لن تتعرض محتويات البيت للتلف بسهولة. أما من الخارج، فسيكون من دواعي سرورنا أن نسلمك إياه وهو على أفضل حال عند حلول ذلك اليوم».

«أبعـده الله عنا!»، يقـول الشيخ، «لأنك لن تعـود إلينا بعد ذلك

اليوم وهو أمر سيكون سبباً لشقائي». ثم يضيف برجاء: «ربما ستنقب موسماً آخر فحسب. أليس كذلك؟»

«موسماً أو اثنين– من يدري؟ الأمر متعلق بمقتضيات العمل».

يقـول الشيـخ: «يؤسفني أنـك لم تعثر على أي ذهـب – بل مجرد حجارة وفخار».

«هذه الأشياء تهمنا كذلك».

فتلمع عينا الشيخ بشراهة: «لكن يبقى الذهب هو الذهب. في أيام البارون...».

فيقاطعه ماكس بأناقة:

«وعنـد عودتنا في الموسم القادم، أية هدية شخصية تود أن أحملها لك من لندن؟»

«لا شـيء – لا شيء على الإطلاق. لا أريد شيئاً. كم هو جميل أن يحمل المرء ساعة ذهبية».

«سأتذكر ذلك».

«دعنـا لا نتكلم عن الهدايا بين الإخـوة! فأمنيتي الوحيدة هي أن أخدمـك وأخدم الحكومة. فإن فرغت جيوبـي، فلا بأس من خسارة المال بهذه الطريقة المشرفة».

«لن يهنأ لنا عيش إلا إذا تأكدنا أنك ستخرج من العمل هنا بالربح لا بالخسارة».

في هذه اللحظة، يأتي ميشيل من حيث كان يزعج الجميع بإلحاحه وصراخـه بالأوامر كي يقـول إن كل شيء صار جاهـزاً وأننا نستطيع الانطلاق.

فيتحقــق ماكس من الوقود في الخزان ومن أن ميشيل ملأ الصفائح الاحتياطيــة كما طلب منه وأنه لم يصب بنوبــة «إيكونوميا» مفاجئة. نعم، كل شيء جاهز: المؤن والماء وأمتعتنا وأمتعة الخدم، وماري الزرقاء تــكاد تطفح بحمولتها على السطح، كما في الداخل، وعلي وديمتري محشوران بين الأمتعة. أما صبري وفرهيد، فيعودان إلى مسقط رأسيهما في القامشلي ويغادر رؤساء العمال بالقطار إلى جرابلس.

«إلى اللقاء يا أخــي!»، يصيح الشيخ ويعانق الكولونيل، على حين غرة، مقبلاً وجنتيه.

فتجتاح الحملة موجة هائلة من الفرح!

ويستحيل وجه الكولونيل أرجوانياً.

ويودع الشيخ ماكس من جديد ويصافح «المهندس» بحرارة.

أستقل بيلو، مع ماكــس والكولونيل وماك، في حين ينضم بامبس إلى ميشيــل كي يكبح جماح أية «فكــرة طيبة» قد تراوده في الطريق. ويعيــد ماكس تعليماته على مسامــع ميشيل. عليه أن يتبعنا، لكن ليس على مسافة لا تزيد عن ثلاثة أقدام. أما إن حاول دهس أية مجموعة من الحمير والنساء المسنات، فسيحرم من نصف أجره.

فيتمتــم ميشيــل بين أنفاســه: «المحمديون!»، لكنه يــؤدي التحية العسكرية ويقول بالفرنسية: «*Très bien*».

«حسناً، هيا بنا. هل الجميع حاضرون؟»

يأخذ ديمتري اثنين من الجراء معه، في حين ترافق هايو صبري.

يصيــح صبري: «سأبقيهــا في أفضل حال حتــى السنة القادمة من أجلك».

«أين منصور؟»، يصرخ ماكس. «أين ذلك الأحمق اللعين؟ سنتركه هنا إن لم يظهر. منصور!».

«*Présent!*»، يصـرخ منصور وأنفاسه تتقطع وهو يجري من بعيد نحونـا ويجر قطعتين كبيرتين من صوف الخراف تنبعث منهما رائحة كريهة.

"لا يمكنك أن تأخذها معك. أوف!".

"ستساوي الكثير من المال في دمشق!".

"يا لها من رائحة كريهة!".

"ستكـون الشمـس كفيلة بتجفيفهـا إن قمنا بنشرهـا على سقف ماري ولن تفوح منها أية رائحة".

"إنها مقرفة. دعها هنا".

"لكنـه محق. إنها تساوي الكثير من المال"، يقول ميشيل. ويتسلق إلى سقف سيارة النقل ويحكم وثاق الجلد باستخدام حبل.

فيقـول ماكس مستسلماً: "لن نشم أية رائحة طالما أن سيارة النقل خلفنـا. وهـي، على كل حال ستسقـط من السيارة قبـل أن نصل إلى الرقة. فقد قام منصور بعقد إحدى الأنشوطات بنفسه!".

فيضحك صـبري ملقياً رأسـه إلى الخلف، وتظهـر أسنانه البيضاء والذهبيـة: "هه، هه! ربما يرغب منصـور في القيام بالرحلة على ظهر حصان!".

فيتشنج رأس منصـور. يبدو أن العمال لن يكفوا عن السخرية من رحلته الشهيرة من القامشلي.

يقول الشيخ بصوت مستغرق: "كم هو جميل أن يكون لدى المرء ساعتان ذهبيتان كي يقرض إحداهما لصديق".

فيعطي ماكس شارة الانطلاق بسرعة.

وتخترق السيارتان تكتل المنازل ببطء وتخرجان إلى طريق القامشلي- الحسكة. ويهتف حشد من الصبية الصغار ويلوحون بأيديهم.

نجتاز قرية تل خنزير التالية، فيخرج الرجال من المنازل ويلوحون ويصرخون. إنهم عمالنا السابقون.

"عودوا في السنة القادمة".

فيصيح ماكس بدوره: "إن شاء الله!".

تنطلق السيارتان على الطريق إلى الحسكة، فنلتفت إلى الخلف كي نلقي نظرة أخيرة على شاغر بازار.

نتوقف في الحسكة ونشتري الخبز والفاكهة ونذهب لوداع الضباط الفرنسيين. فيحشر ضابط فرنسي شاب كان قد قدم للتو إلى دير الزور أنفه برحلتنا.

"أنتم ذاهبون إلى الرقة إذن؟ دعوني أخبركم التالي. لا تتبعوا الشاخصة عند وصولكم إليها. بل اتخذوا الطريق إلى اليمين منها ثم الطريق الذي يتفرع منه إلى اليسار، فتجدون أنفسكم على مسار مباشر يسهل اتباعه. أما الطريق الآخر فمربك للغاية".

فيقاطعه النقيب الذي كان يصغي إلى ما يقول موصياً إيانا بشدة أن نتجه شمالاً باتجاه رأس العين ثم إلى تل أبيض. ومن هناك، نتخذ الطريق بين تل أبيض والرقة، وهو طريق تتردد عليه السيارات كثيراً.

عندئذ، لن يكن هناك أي احتمال للخطأ.

"لكنه أطول بكثير. إنها دورة كبيرة".

"قد يتبين، في نهاية المطاف، أنه أقصر".

نشكره على النصيحة، لكننا نصر على الالتزام بمخططنا الأصلي.

يقوم ميشيل ببعض المشتريات الضرورية ثم ننطلق من جديد متخذين الجسر الذي يقطع نهر الخابور.

ثم نصل إلى تقاطع طرق انتصبت فيه شاخصة أو اثنتان. فنقرر أن نتبع نصيحة الضابط الشاب. تشير إحدى الشاخصتين إلى الطريق إلى تل أبيض وتشير الثانية إلى الطريق إلى الرقة، وبين الطريقين يوجد طريق لا تدل عليه أية شاخصة. لا بد أنه الطريق المعني.

ثم يتشعب الطريق، بعد مسافة ليست بالكبيرة، إلى ثلاثة طرق.

"إلى اليسار على ما أظن"، يقول ماكس. "أم أنه كان يعني الطريق الذي في الوسط؟"

فنتخذ الطريق الأيسر. لكن، لم يمض إلا وقت قليل حتى يتفرع هذا الطريق بدوره إلى أربعة طرق.

الأرض هنا مغطاة بالحجارة والنباتات الشوكية، فيصبح السير على الطرق الممهدة الخيار الوحيد المتوفر.

ينعطف ماكس إلى اليسار من جديد، فيقول ميشيل: "كان علينا أن نتخذ الطريق إلى أقصى اليمين".

لكن أحداً لم يعره اهتماماً لكثرة ما قادنا، في السابق، في دروب خاطئة.

يهيمن على الساعات الخمس التالية صمت مطبق. لقد تهنا - نحن تائهون في جزء من العالم لا قرى فيه ولا زرع ولا بدو يرعون قطعانهم - لا شيء على الإطلاق.

تزداد الطرق وعورة حتى لا تكاد تتمايز عن الأرض حولها. يحاول ماكس، باستمرار، اتخاذ تلك التي تتجه إلى اليمين تقريباً، أو بكلمة أخرى، إلى الغرب قليلاً من اتجاه الجنوب الغربي، لكن الطرق تزداد مراوغة، فتتلوى وتستدير ثم تنعطف، من جديد، إلى الشمال بعناد.

نتوقف لبرهة من الوقت ونتناول طعام الغداء ونشرب الشاي الذي يعده ميشيل. الحر خانق، ورحلتنا تزداد صعوبة. وتصيبني الرجرجة المستمرة والحر الشديد والسطوع المبهر بصداع مؤلم، ناهيك عن أننا، جميعنا، نشعر ببعض القلق.

"حسناً"، يقول ماكس. "لدينا ما يكفي من الماء بكافة المعايير - ماذا يفعل هذا الأحمق اللعين؟"

فنلتفت إلى حيث نجد منصور - المعتوه - يهدر، بحبور، ماءنا الثمين ويسكبه على وجهه ويديه!

أتفوق، في هذه المرة، على بذاءة ماكس! فيبدو منصور مذهولاً ومحزوناً قليلاً ويتنهد كما لو كان يفكر في مدى صعوبة إرضاء هؤلاء الناس. إذ يمكن لأي عمل مهما بدا بسيطاً أن يزعجهم.

نستأنف السير من جديد وقد صارت الطرق تستدير وتتلوى بأسوأ من ذي قبل. بل إنها تتلاشى كلياً في بعض الأحيان.

يتجهم وجه ماكس بقلق ويغمغم قائلاً إننا نتجه شمالاً بأكثر مما ينبغي.

بل يبدو أن الطرق الآن أصبحت تتفرع إلى الشمال والشمال الشرقي. فهل علينا أن نعود أدراجنا؟

يقترب حلول المساء. وفجأة تتحسن نوعية الأرض حولنا وتختفي النباتات الشوكية وتقل كثافة الحجارة.

"يبدو أننا على وشك الوصول إلى مكان ما"، يقول ماكس. "أظن أننا نستطيع، الآن، المضي مباشرة عبر الأرض الزراعية".

يسأله الكولونيل: "إلى أين تتجه؟"

يقول ماكس إلى الغرب نحو نهر البليخ. إذ نستطيع، إن بلغناه، أن نعثر على الطريق الرئيسي بين تل أبيض والرقة.

ونمضي قدماً. وفجأة، تثقب إحدى عجلات ماري، فنضيع وقتاً ثميناً في استبدالها. الشمس الآن تميل إلى المغيب.

وفجأة، نلمح مشهداً مفرحاً – رجال يسيرون على أقدامهم. فيشهق ماكس وينطلق إليهم ويحييهم ويطرح عليهم بعض الأسئلة.

البليخ؟ البليخ أمامنا مباشرة ويمكننا بلوغه في عشر دقائق باستخدام آلة كالتي في حوزتنا. الرقة؟ نحن أقرب إلى تل أبيض منا إلى الرقة.

وبعد خمس دقائق، نشاهد شريطاً أخضر– إنها النباتات المحاذية للنهر. ويظهر من بعيد تل فسيح.

يقول ماكس بطرب: "نهر البليخ – انظروا إليه، التلال في كل مكان!".

منظر التلال مهيب في الواقع. فهي واسعة، هائلة، وصلبة للغاية.

يقول ماكس: "تلال هائلة عظيمة".

فأجيبه بنبرة استياء، وقد بلغ الألم في رأسي وعيني حداً لا يطاق: "من زمان الرومان".

"أنت محقة"، يقول ماكس. "هذه هي المشكلة. هذه الكتلة الصماء تعني أسلوب بناء روماني. سلسلة من الحصون. لا تساورني أية شكوك في أن المادة المطلوبة موجودة تحتها، لكن الوصول إليها يتطلب الكثير من الوقت والمال".

أشعر أنني لا أبالي بعلم الآثار على الإطلاق. فما أنشده الآن هو مكان أتمدد فيه وقدر كبير من أقراص الأسبيرين وكوب من الشاي.

نصل الآن إلى طريق عريض يتجه إلى الشمال وإلى الجنوب، فننعطف جنوباً نحو الرقة.

نحن الآن بعيدون كثيراً عن مقصدنا، ويستغرق الأمر منا ساعة ونصف الساعة قبل أن نرى المدينة منبسطة أمامنا. نصل إلى الضواحي وقد حل الظلام الآن. إنها مدينة محلية بكليتها – لا أثر للبنى الأوروبية فيها. نسأل عن الخدمات الخاصة. الضابط هناك لطيف بالفعل لكنه مرتبك بشأن راحتنا. فالمدينة غير مجهزة لاستقبال المسافرين. وماذا لو اتجهنا شمالاً إلى تل أبيض؟ يمكننا بلوغها في ساعتين إن قدنا بسرعة – حيث سنشعر هناك بالراحة حقاً.

لكن لا أحد، أو أنا، على أقل تقدير، مع كل التعب الذي أعاني منه، قادر على احتمال فكرة التعرض لساعتين إضافيتين من الرجرجة والوثب. فيقول لنا الضابط اللطيف إنه توجد غرفتان – بسيطتان للغاية، وإن لم يكن فيهما ما هو أوروبي – وماذا لو كان بحوزتنا أسرتنا؟ وخدمنا؟

نصل إلى المنزل وسط الظلام الدامس. فيدخل منصور وعلي

بالمشاعـل وينـيران مصبـاح الكيروسين وبمـدان البطانيـات. أشتاق إلى صـبري بسرعته وكفاءتـه. أما منصور، فأخـرق وبطيء بشكل لا يصـدق. علي في الخارج مشغـول بإنزال الأمتعة. ثـم يدخل ميشيل وينتقـد منصور على مـا يفعله. فيتوقـف منصور ويتجـادل الاثنان، فأرشقهمـا بكل مـا في حوزتي من ألفـاظ عربية. فينظـر منصور إلي برعب ويستأنف العمل.

يتـم إحضار لفافة مـن الملاءات والبطانيات، فأغـرق فيها. وفجأة يظهر ماكس بجواري وبيده كوب الشاي الذي طال انتظاره. يسألني بمرح إن كنت ما أزال أشعر أنني لست على ما يرام. أجيبه بنعم وأقبض على كوب الشـاي وأبتلع أربعة أقراص مـن الأسبيرين. الشاي بطعم الرحيق. لم يسبق لي أبداً– أبداً– أبداً أن استمتعت بشيء بهذا المقدار! ثم أستلقي من جديد وأغمض عيني.

وأتمتم: "مدام جاكو".

"هاه؟"، ينظر ماكس بدهشة وينحني فوقي. "ماذا قلت؟"

أردد من جديد: "مدام جاكو".

الصلـة المنطقيـة موجـودة – أنا أعلم مـا أقول– لكـن الكلمات تخوننـي. ترتسم على وجه ماكس تعبـيرات ممرضة في مستشفى. لا تكذّب المريض مهما يكن الثمن!

فيقول محاولاً تهدئة روعي: "مدام جاكو ليست هنا الآن".

فأرميـه بنظرة سخط وأغلق عيني بهدوء. ما يزال هنالك الكثير من الجلبة والطعام قيد الإعداد. لكن من يبالي؟ سأغرق في النوم – النوم...

وفي اللحظـة التي أوشك فيها على الإغفـاء – أتذكر تلك الجملة. بالطبع!

وأردد بكثير من الرضا: "*Complètement knock out!*".

يقول ماكس: "ماذا؟"

أقول: "مدام جاكو" وأغط في نوم عميق.

أجمل ما في الذهاب إلى النوم من شدة الإرهاق والألم هو تلك المفاجأة الرائعة التي تنتظرك لدى استيقاظك في صباح اليوم التالي حين تجد نفسك وقد استعدت كامل عافيتك وطاقتك.

أشعر أنني مفعمة بالنشاط وأنني أتضور جوعاً كذلك.

يقول ماكس: "أتعلمين يا أغاثا؟ أظن أنك كنت في الليلة الماضية محمومة. لقد كنت تهذين وبقيت تتحدثين دون انقطاع عن مدام جاكو".

فأرمقه بازدراء ثم أتكلم حالما أستطيع وفمي مملوء بالبيض المسلوق.

وأخيراً أقول: "هذا هراء. فقط لو أنك تجشمت عناء الإصغاء، لعرفت بالضبط ماذا كنت أقصد! لكنني أفترض أن عقلك كان مملوءاً بتلال البليخ" .

فيقاطعني ماكس وقد استعاد حماسته: "كم سيكون مثيراً، لو تعلمين، أن نجري حفراً تجريبياً في واحد أو اثنين من تلك التلال..."

يدخل منصور وقد أشرق وجهه الغبي والنزيه سائلاً خاتون عن حالها هذا الصباح.

أقول إنني بخير. لكن منصور حزين، على ما يبدو، لأنني استغرقت في النوم قبل الانتهاء من تجهيز العشاء و لم يشأ أحد إيقاظي. فهل أريد تناول بيضة أخرى الآن؟

أقـول: "نعم" وقد التهمت أربع بيضات حتى الآن. لكن هذه المرة، يكفي لسلقها خمس دقائق!

ننطلـق نحـو نهـر الفـرات في الحادية عشـرة. النهر عريضـ للغاية هنـا، والأرض شاحبـة، منبسطة ومشرقة والجو سديمـي. كل شيء أشبه بسيمفونية "برتقالية محمرة" على حد قول ماكس لو أنه كان يصف آنية خزفية.

يتـم عبور نهر الفرات في مدينة الرقـة باستخدام عبارة بدائية للغاية. ننضم إلى عدد آخر من السيارات ونجلس ساعة أو اثنتين في انتظار قدوم العبارة وقد ملأت البهجة قلوبنا.

تصـل بعض النساء من أجـل تعبئة بعض صفائـح الكيروسين بالماء، وهنالك أخريات يغسلن الملابس. يبدو المشهد برمته أشبه بلوحة جدارية من أشكال بشرية ذات طول فارع تلبس الأسود وتخفي النصف الأسفل مـن وجوهها ورؤوسها شامخة، وتحمل صفائـح معدنية يقطر الماء منها. يتحركن إلى ضفة النهر هبوطاً ثم يصعدن بتمهل ومن غير استعجال.

أفكـر، بإحساس بالحسد، في كم هـو جميل أن تحجب وجهك. لا بـد أن الأمر يشعرك بخصوصية بالغـة، وبسرية مطلقة. وحدهما عيناك تطلان على العالم - فتراه من غير أن يراك...

أخـرج المرآة من حقيبة يدي وأفتح علبـة مساحيقي. "نعم"، أفكر. "كم هو جميل أن تحجب وجهك!".

اقتراب عودتي إلى المدنية يحـرك مشاعري. فأبدأ بالتفكير في بعض الأشيـاء... شامبو، مجفف شعر مترف. طـلاء أظافر... مغطس مصنوع مـن الخزف مزود بالصنابير. أملاح استحمـام. إنارة كهربائية... المزيد من الأحذية!

يقـول ماكسـ: "ماذا أصابـك؟ لقد سألتك مرتـين إن كنت قد لاحظـت ذلك التل الثاني الذي مررنا بالقـرب منه على الطريق من تل أبيض في الليلة الماضية".

" لم ألاحظه".

" لم تلاحظيه؟"

"لا. لم أكن ألاحظ أي شيء في الليلة الماضية".

" لم يكـن أصـم كالتلال الأخـرى. هنالك آثـار تعرية من الجهة الشرقية. أتساءل ربما..".

فأقول بوضوح وحزم: "لقد تعبت من التلال!".

"مـاذا؟" ينظـر ماكس إلي بالرعـب الذي ينتـاب عضو محكمة تفتيش من القرون الوسطى لدى سماعه هرطقة جلية.

يقول: "غير ممكن!".

"أفكـر في أمـور أخرى" وأستعرضـ لائحة منها، بـدءاً بالنور الكهربائي، فيمرر ماكس يده على مؤخرة رأسه ويقول إنه لا يمانع، في النهاية، في أن يحصل على قصة شعر محترمة.

ونتفـق، نحـن الاثنـين، علـى بؤسـ أن لا يكون بمقـدور المرء الذهـاب، على نحو مباشر، مـن شاغر... فلنقـل إلى سافوي مثلاً! فتضيـع، والحال كذلك، لذة التبايـن. إذ نعيش مرحلة من الوجبات العادية والرفاهية المنقوصة تفقد معها متعة إدارة مفتاح نور كهربائي أو فتح صنبور ماء بريقها.

تصل العبارة الآن، فنصعد بماري على متنها بحذر وفي إثرنا بيلو.

نحن الآن في وسط نهر الفـرات الواسع ومدينة الرقة تبتعد شيئاً فشيئاً وتبدو جميلة ببيوتها الطينية وأشكالها الشرقية.

فأقول بنعومة: "برتقالية محمرة".

"أتعنين ذلك القدر المقلم؟"

فأقول: "لا. بل الرقة..."

وأردد الاسـم بنعومة كتحيـة وداع قبل العـودة إلى العالم الذي تسري عليه قوانين مفتاح النور الكهربائي.

الرقة...

الفصل الحادي عشر

الوداع يا تل براك

وجوه جديدة وأخرى قديمة!

إنه موسمنا الأخير في سورية. نحن الآن ننقب في تل براك وقد أسدلنا الستار، أخيراً، على شاغربازار.

فقد قمنا بتسليم بيتنا – بيت ماك– إلى الشيخ (باحتفال كبير). كان الشيخ قد اقترض المال ثلاث مرات باسم ذلك البيت، لكنه يبدي اعتزازاً أصيلاً بملكيته على الرغم من كل شيء. فامتلاكه المنزل سيكون، كما يبدو لنا، مواتياً لـ «سمعته».

«على الرغم من أنه سيدق عنقه على الأرجح»، يقول ماكس بتأمل، وقد شرح للشيخ كل شيء على نحو مطول، وبالتفصيل، مشدداً على ضرورة معاينة السقف كل عام وإجراء ما يلزمه من ترميم.

«بالطبع، بالطبع»، يقول الشيخ. «لن يحدث أي خطأ إن شاء الله!».

فيعلق ماكس قائلاً: «في كلامه الكثير من إن شاء الله. الكثير من إن شاء الله ثم لا ترميم! هذا ما سوف يحصل».

نــال الشيخ، بالإضافــة إلى المنزل، ساعة ذهبيــة منمقة وحصاناً - كهدايا لا تشمل الإيجار المستحق والتعويض عن المحاصيل.

أمــا عــن كون الشيــخ يشعــر بالرضــا أو بالاستياء، فأمــر يصعب الجــزم بشأنــه. فالابتسامة وعلامات التأثر المفرط تمــلأ محياه بالتأكيد، علــى الرغم من محاولاته الجاهدة انتــزاع تعويض إضافي عن «الحديقة التالفة».

فيسألــه الضابــط الفرنســي على سبيــل الممازحة: «ومــا هي هذه الحديقة إذن؟»

مــاذا؟ ثم يطلــب منه تقديم أي دليل يثبــت امتلاكه حديقة من قبل - أو أي دليل يؤكــد معرفته بماهية الحديقة - فيرتد الشيخ على أعقابه ويقــول بتجهم: «لقد كنت أنوي إنشــاء حديقة. لكن أعمال التنقيب أحبطت مسعاي!».

تتحول «حديقة الشيخ»، لبعض الوقت، إلى مادة للتندر بيننا.

يرافقنــا، هذا العام، إلى تل براك ميشيل الذي لا غنى عنه، وصبري الجــذل مع هايو، ومجموعة من أربعة جــراء مخيفة وديمتري الذي يرمق الجراء بحنو، بالإضافة إلى علي. أما منصور، الرقم واحد، كبير الخدم، الخــادم الخبــير بشؤون الخدمــة الأوروبيــة، فقد انضــم، ولله الحمد، إلى سلــك الشرطة! يزورنــا، في أحد الأيام، متألقــاً بزيه الرسمي وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة من الأذن إلى الأذن.

كان غيلفورد قــد انضم إلينا في الربيع المنصرم كمعماري، وها هو ذا الآن برفقتنا من جديد. وقد نال احترامي بقدرته على تقليم أظلاف الحصان.

يتمتــع غيلفــورد بوجــه حسن طويل يمتــاز بالجديــة. وقد عرف،

في موسمه الأول، بتعقيمه المتقن للجروح والإصابات الموضعية وتضميدها. ثم لاحظ غيلفورد ما يحدث للضمادات عند عودة الرجال إلى منازلهم، ثم شاهد رجلاً اسمه يوسف عبد الله يزيل عصابة متقنة ويتمدد في أقذر أركان الحفرية فيختلط جرحه بالتراب، فصار يستخدم كميات مضاعفة من محلول البرمنغنات (الذي لقي الكثير من التقدير بسبب غنى لونه!) ويكتفي بالتركيز على ما يمكن كشفه إلى الخارج وما يمكن شربه بأمان.

يزور غيلفورد لتلقي العلاج ابن شيخ محلي يقود سيارة كمن يتخيل أنه على متن حصان فتي، فانقلبت السيارة به في أحد الأودية فجاء إليه بفتحة كبيرة في رأسه. يصاب غيلفورد بالهلع ويملأ الفتحة باليود، فيترنح الشاب من فرط الألم.

ثم يتأوه بإعجاب وقد استعاد قدرته على النطق أخيراً: «آه. تلك هي النار! كم هو رائع. سوف آتي إليك باستمرار في المستقبل – لن أذهب إلى طبيب بعد الآن. نعم، نار، نار حقيقية».

يحث غيلفورد ماكس على الطلب منه أن يذهب إلى الطبيب لأن الجرح خطير بحق.

فيتساءل ابن الشيخ بازدراء: «ماذا؟ هذا؟ إنه مجرد صداع». ثم يضيف بعد تفكير: «لكنه مثير. فإن سددت أنفي ونفخت – بقوة – فسيخرج من الجرح الكثير من البصاق!».

فيستحيل وجه غيلفورد أخضر ويذهب ابن الشيخ وهو يضحك.

ثم يعود بعد أربعة أيام من أجل المزيد من العلاج. جرحه يشفى بسرعة لا تصدق. لكنه حزين للغاية لأنه لن يحصل على المزيد من اليود، بل سيكتفي بمحلول مطهر.

ويقول باستياء: «إنه لا يحرق على الإطلاق».

تزور غيلفورد امرأة حامل بطنها منتفخ كالقدر. فتسر للغاية بنتائج العلاج اللطيف الذي قدمه، بغض النظر عن مشكلتها الحقيقية، وتعود كي تشكر غيلفورد على «إنقاذ حياة ابني» وتضيف إنه سيحصل على كبرى بناتها حالما تصبح كبيرة بما يكفي، فيحمر وجه غيلفورد وتمضي المرأة وهي تضحك من كل قلبها بعد أن تفوهت بملاحظة ختامية بذيئة. لا حاجة بي إلى القول إنها كردية لا عربية!

ننفذ، الآن، تنقيباً خريفياً نختتم به عملنا. فقد انتهينا في هذا الربيع من شاغر بازار وانتقل التركيز إلى تل براك الذي عثرنا فيه على الكثير من القطع المثيرة للاهتمام. أما الآن، فنستكمل أعمالنا في براك قبل أن نختتم الموسم بشهر أو ستة أسابيع من التنقيب في تل جيدل، وهو أكمة تقع على نهر البليخ! (هذا هو قسط الترفيه بمفهوم ماكس!).

يدعونا شيخ محلي ينتشر مخيمه بالقرب من جغجغ إلى وليمة احتفالية، فنقبل دعوته. وعند حلول يوم الوليمة، يظهر صبري بأبهة بذلته الأرجوانية وحذائه الصقيل وقبعة هومبورغ. كان، بدوره، قد تلقى الدعوة بوصفه تابعنا فيتصرف كالوسيط ناقلاً لنا آخر أنباء تقدم إعداد الوليمة واللحظة المحددة التي يجب أن نصل فيها.

يستقبلنا الشيخ بالكثير من التبجيل في خيمته الكبيرة التي يجتمع تحت سقفها حشد كبير من الأصدقاء والأقارب والطفيليين.

وبعد الترحيب الدمث يجلس علية القوم (أي نحن ورئيسا العمال، علاوي ويحيى، والشيخ وكبار أصدقائه) في حلقة ويتقدم رجل مهيب حسن الهندام بمصب قهوة وثلاثة فناجين ويصب قطرة من القهوة الكثيفة السوداء في كل فنجان مقدماً الأول لي- في دليل

على معرفـة الشيخ بالتقليد الغربي (غريب الأطوار!) الذي يقوم على خدمة النساء أولاً. ويقدم الفنجانين الآخرين لماكس والشيخ. فنحتسي قهوتنـا. تصب القهوة في الفناجين، من جديد، فنحتسيها كذلك. ثم تستعـاد الفناجـين ويعاد ملؤها مـن أجل غيلفـورد ورئيسي العمال. ويستمر الأمر على هـذا المنوال على طول الحلقة. وعلى مسافة بعيدة عنـا بعض الشيء، يجلس حشـد من أولئك الذين ينتمـون إلى المرتبة الثانيـة. تتناهى إلى مسامعـي، من القسم الخلفي مـن الخيمة أصوات حفيف وضحكات مكتومة. إنهن نسوة الشيخ اللواتي يختلسن النظر ويسترقن السمع إلى ما يحدث.

ثم يعطي الشيخ أمراً، فيخرج أحد أتباعه ويعود بسارية عليها صقر وسيـم يوضع في وسـط الخيمة. فيهنئ ماكس الشيـخ على هذا الطير الرائع.

ثم يظهر ثلاثة رجال يحملون طبقاً نحاسياً كبيراً يضعونه في وسط الحلقـة. الطبق ملـيء بالرز وسطحـه مغطى بقطع مـن لحم الحملان وينبعث منـه البخار وعطر التوابل ويبدو شهيـاً للغاية. يدعونا الشيخ إلى الطعـام بلباقة وتوزع علينا أرغفة مـن الخبز العربي نستخدمها في تناول الطعام من الطبق مباشرة بمعونة أصابعنا.

نـال، في اللحظة المحـددة (ودعوني أخبركـم أن ذلك لم يحدث بعد مرور بعض الوقت فحسب)، كفايتنا من الطعام والكياسة، فيرفع الطبـق الكبير، الذي خـلا، الآن، من أشهى مكوناتـه على الرغم من أنـه لما يزل نصف ممتلئ، ويوضع في قلـب حلقة أخرى تبعد عنا قليلاً (تضم صبري).

أما نحن، فتقدم لنا الحلوى ثم المزيد من القهوة.

وبعد انتهاء أفـراد الحلقة الثانية من تناول الطعـام، يرفع الطبق من جديـد ويوضع في مكان ثالث وقد أصبحت محتوياته تقتصر على الرز وبعض العظـام. فيجلس حوله الأفراد الأدنى مرتبة وأولئك المعوزون الذيـن «يعيشون في ظل الشيخ» وينكبون علـى الطعام فيه. ولا يرفع الطبق من أمامهم إلا وقد فرغ تقريباً.

نجلس لبعض الوقت ثم ننهض ونشكـر الشيخ على حسن وفادته ونرحـل. وينفح ماكس خادم القهوة مكافأة مجزيـة، كما يشير رئيسا العمال إلى بعض الأفراد الغامضين الذين، بدورهم يستحقون المكافأة على ما يبدو.

نسـير إلى البيـت وقد أصبح الجو حـاراً ونشعـر بالتخمة من الرز والخـراف. يبدو صبري راضياً تماماً عن التسلية التي أصابها ويعتبر أن كل شيء جرى بما تقتضيه اللياقة.

نستقبل اليـوم، بعد مضي أسبوع، ضيفاً ليس سوى شيخ عشيرة شمر- وهو رجل عظيم الشـأن في الواقع. كان الشيوخ المحليون في انتظاره عند وصولـه بسيارة رمادية جميلة. رجل وسيم ومتكلف ذو وجه طويل داكن ويدين جميلتين.

كانـت وجبتنـا الأوروبية هـي أفضل ما صنعناه حتـى الآن وكان مقدار الحماسة التي انتابت عمالنا بسبب هوية ضيفنا عظيماً!

أحسسنـا، مـع مغادرتـه أخـيراً، وكأن العائلة المالكـة كانت في ضيافتنا.

كان اليوم يوماً للكارثة.

يغـادر ماكـس إلى القامشلـي، وبرفقته صبري، للتسـوق وإجراء

بعض المعاملات المصرفية تاركاً غيلفورد في التل يرفع مخططات المباني ورئيسي العمال يشرفان على سير العمل.

يعود غيلفورد إلى البيت للغداء. كنا قد انتهينا للتو من تناول الطعام وغيلفورد على وشك الركوب في بيلو والعودة إلى العمل، عندما نشاهد رئيسي العمال يجريان إلى البيت بأسرع ما في وسعهما وقد بدا عليهما الاضطراب والضيق.

ثم يندفعان عبر الفناء ويتدفق منهما سيل من الكلمات باللغة العربية لا يفهم غيلفورد منه شيئاً في حين ألتقط كلمة واحدة من كل سبع كلمات.

أقول لغيلفورد: «لقد مات أحدهم».

يكرر علاوي قصته ببطء. ثم أفهم أن أربعة أشخاص قد ماتوا. أخال، للوهلة الأولى، أن الأمر يتعلق بشجار ما وأن الرجال قتلوا بعضهم، فيهز يحيى رأسه بشدة رداً على أسئلتي الركيكة.

ألعن نفسي لأنني لم أتعلم هذه اللغة! فعربيتي تقتصر على جمل من قبيل «هذا ليس نظيفاً. اصنع هذا على هذا النحو. لا تستخدم قطعة القماش تلك. أحضر الشاي» وما شابه من الأوامر المنزلية. أما هذه السردية العنيفة، فهي أكبر من قدراتي. يخرج ديمتري والصبي وسركيس وينصتون للقصة ويفهمون ما حدث. لكن ذلك لم يجلب معه أي تحسن بالنسبة إلي وإلى غيلفورد، لأنهم لا يجيدون أية لغة أوروبية.

يقول غيلفورد: «يحسن بي أن أذهب وأرى بنفسي»، ويذهب إلى بيلو.

لكن علاوي يمسكه من كمه ويكلمه بحماسة محاولاً منعه من الذهاب على ما يبدو. ويشير بطريقة مسرحية باتجاه التل إلى حيث يتدفق، من مسافة ميل تقريباً، حشد من الأشخاص بملابس ملونة وبيضاء وقد بدا عليهم الشر والتصميم. أما رئيسا العمال فيبدوان لي مصابين بالذعر.

يقول غيلفورد مقطباً: «هذان الشخصان هاربان. أود لو أفهم ما المشكلة».

هل قتل علاوي (ذو المزاج الملتهب) أو يحيى أحد العمال بفأس؟ يبدو الأمر غير مرجح - ناهيك عن أنهما لم يكونا ليقدران على قتل أربعة.

أسألهما من جديد، بلغة ركيكة وبالاستعانة ببعض الحركات البلهاء، إن كان ثمة من شجار. لكنهما ينفيان الأمر بشدة. يشير يحيى بيديه إلى شيء ينزل من الأعلى فوق رأسه.

فأنظر إلى السماء. هل أصيب الضحايا بصاعقة؟

يفتح غيلفورد باب بيلو. «أنا ذاهب كي أرى - وعلى هذين الاثنين أن يأتيا معي».

ويومئ إليهما بطريقة آمرة. لكنهما يرفضان على الفور وبحزم. لن يأتيا.

فيقول غيلفورد بلكنة أسترالية عدوانية: «عليهما أن يأتيا!».

فيهز ديمتري رأسه الكبير واللطيف.

ويقول: «لا، لا. الأمر سيء».

«ما هو السيء؟»

فيقول غيلفورد: «توجد مشكلة ما هناك»، ويقفز إلى السيارة. ثم يلتفت إلي بحدة، وقد رأى الحشد يقترب بسرعة، ويحدق في برعب وأرى في عينيه ما يمكن وصفه بـ «النساء والأطفال أولاً».

ثم ينزل من السيارة ويحرص على أن يتحرك بكسل ويقول بنبرة متراخية: «ما رأيك في نزهة بالسيارة كي نلاقي ماكس على الطريق؟ لم لا طالما أنه لا يوجد عمل للقيام به. خذي قبعتك أو أي شيء تريدينه».

غيلفورد العزيز، إنه يؤدي دوره بطريقة رائعة! وبحرص كبير على أن لا يخيفني.

أقول لم لا وأسأل إن كان يجب أن آخذ النقود. حيث أننا نحتفظ بأموال الحملة في صندوق تحت سرير ماكس. فإن كنا أمام حشد غاضب قادم لمهاجمة المنزل، فسيكون مما يدعو إلى الأسف أن يجدوا المال ويسرقوه.

فيتصرف غيلفورد، الذي ما يزال يحاول أن لا يقوم بما يخيفني، كما لو أن الموقف طبيعي تماماً.

ويقول: «هلا أسرعت قليلاً؟»

فأدخل إلى غرفة النوم وألتقط قبعتي وصندوق المال وأجره إلى السيارة وأصعد إليها مع غيلفورد ونشير إلى ديمتري وسركيس والصبي أن يركبوا في الخلف.

ويقول غيلفورد: «سنأخذهم معنا، أما رئيسا العمال، فلا» وهو لما يزل يلومهما على «فرارهما».

أشعر بالأسف لغيلفورد الذي كان راغباً في الذهاب ومواجهة

الحشد وأصبح مضطراً إلى الاهتمام بسلامتي. لكنني سعيدة للغاية كذلك لأنه لن يذهب إليهم، فسلطته عليهم ضعيفة وهو، فضلاً عن ذلك، لن يفهم كلمة مما يقولونه وقد يقوم بما يزيد الطين بلة. فالأمر الصائب الآن هو إحضار ماكس كي يعرف ما حدث بالضبط.

لكن علاوي ويحيى يفسدان خطة غيلفورد في إنقاذ ديمتري وسركيس وتركهما لتحمل مسؤولياتهما، فيدفعان ديمتري جانباً ويقفزان إلى السيارة. فيجن جنون غيلفورد ويحاول إخراجهما منها لكنهما يرفضان أن يتزحزحا.

فيهز ديمتري رأسه برباطة جأش ويشير إلى المطبخ ويعود أدراجه ويذهب سركيس معه وقد بدا مستاء بعض الشيء مما حدث.

ثم يعود غيلفورد من جديد: «لا أفهم لماذا هذان الشخصان...».

فأقاطعه قائلة: «لا نستطيع أن نقل أكثر من أربعة أشخاص بهذه السيارة – ويبدو أن علاوي ويحيى هما من يسعى في إثرهما الرجال، إن كانوا يسعون إلى قتل أحد. ولذلك أظن أن من الأفضل أن نأخذهما. لا أظن أن للرجال أي مأخذ على ديمتري وسركيس».

يلتفت غيلفورد ويرى أن الرجال أصبحوا أقرب من أن يكون الاستمرار في الجدل ممكناً. فيرمق يحيى وعلاوي بعبوس وينطلق بالسيارة عبر بوابة الفناء ويخترق القرية نحو الطريق الذي يفضي إلى القامشلي.

لا بد أن يكون ماكس قد بدأ رحلة العودة الآن لأنه كان ينوي العودة إلى العمل في وقت باكر من بعد الظهيرة. وبذلك فإننا قد نلتقي به عما قريب.

وأخيراً يتنفس غيلفورد الصعداء وأخبره أنه أحسن صنيعاً.

«ماذا تعنين؟»

«أعني دعوتك العفوية لي إلى رحلة ممتعة كي نلاقي ماكس والطريقة التي حاولت بها أن لا تثير قلقي».

«آه»، يقــول غيلفورد. «لقد أدركت، إذن، أنني كنت أريد أخذك بعيداً».

فأرمقه بنظرة إشفاق.

تســير السيارة بالسرعة القصــوى ونلتقي، بعد ربــع ساعة تقريباً، بماكــس وصبري العائدين على متن ماري. يبهت ماكس برؤيتنا ويقفز عــلاوي ويحيى من بيلو ويسارعان نحوه ويمتلئ الجو بكلمات عربية مفعمة بالانفعالات تقاطعها أسئلة ماكس الحادة.

نفهم الآن، أخيراً، ما يدور الأمر حوله!

كنا قــد اكتشفنا، في الأيام القليلة الماضية، عــدداً كبيراً من التمائم الحيوانيــة الصغــيرة المنحوتــة من العــاج والحجر في موقــع محدد من الحفريــة. وكان الرجال يحصلون على بقشيش كبير مقابل كل قطعة. فانصــب تركيزهم، من أجل العثور علــى المزيد منها، على تلك البقعة المحددة لأن التمائم مدفونة على عمق أكبر.

لكن الأمر أخــذ يزداد خطورة، فمنعهم ماكــس، في الأمس، من الاستمــرار في الحفر آمراً إياهم بالعــودة إلى السطح والبدء بالحفر من جديــد، فتذمــر الرجال لأن ذلــك كان يعني أنهم قد يمضــون يوماً أو يومين في الحفــر قبل الوصول، من جديد، إلى العمق التي توجد عنده التمائم.

كلف رئيسا العمال بمراقبة التزامهم بالأوامر، ففعل العمال ما أمروا به، وإن على مضض، وأخذوا يحفرون من الأعلى بطريقة محمومة.

ذلك ما كان عليه الوضع عندما توقف العمل من أجل استراحة الغداء. ثم نصل الآن إلى حكاية الخيانة والجشع. كان الرجال منتشرين على سفح التل بالقرب من جرار الماء، حين تسللت زمرة كانت تعمل في الجهة الأخرى من التل إلى البقعة الغنية بالمكتشفات وأخذ أعضاؤها يحفرون بهياج في النقطة التي أوقف العمل بها وفي نيتهم السطو على البقعة المخصصة للرجال الآخرين والزعم أنهم استخرجوا القطع المسروقة من المنطقة المخصصة لهم.

في تلك اللحظة، بالذات، حطت عليهم نمسيس - إلهة الإنتقام - بعد أن مضوا في الحفر أعمق مما ينبغي، فانهارت الطبقات العليا عليهم!

هرع جميع العمال إلى المكان عند سماعهم صراخ الرجل الناجي الوحيد وأدركوا في الحال، كما أدرك رئيسا العمال، ما جرى وبدأ ثلاثة عمال بالحفر بسرعة لانتشال زملائهم الذين نجا واحد منهم ومات الأربعة الآخرون.

وعم الهرج والمرج المكان في الحال فأخذ العمال يصرخون ويناجون السماء وقد سيطرت عليهم الرغبة في الإلقاء باللائمة على أحد ما. يصعب الجزم إن كان رئيسا العمال قد فقدا، في تلك اللحظة، رباطة جأشهما وقررا أن يوليا الإدبار أم أنهما تعرضا للهجوم بالفعل. لكن النتيجة، في الحالتين، كانت أن الرجال تدفقوا في إثرهما وقد اجتاحتهم نوبة مفاجئة من الغضب.

يميل ماكس إلى وجهة النظر القائلة إن رئيسي العمال فقدا أعصابهما

مـا جعل الرجال يفكرون في مهاجمتهما، لكنه لا يضيع أي وقت في توزيع الاتهامات. فنعـود إلى السيارتين وننطلق بالسرعة القصوى إلى القامشلي حيث يشرح ماكس المسألة للضابط المكلف بحفظ الأمن في نقطة الخدمات الخاصة.

يستوعب الملازم القضية بسرعة ويتصرف في الحال. إذ يجمع أربعة جنـود وينطلق بسيارته إلى براك ونحـن في إثره. الرجال مجتمعون في الأكمة الآن وهم يروحون ويجيئون في حالة من الهياج وكأنهم سرب من النحل. لكن وصول السلطة يجعلهم يهدؤون، فنصعد إلى التل في موكـب ويرسل الملازم سيارته مع واحد من الجنود ويذهب بنفسه إلى موقع المأساة.

وهنـاك، يحقق الملازم في الواقعـة، فيشرح الرجال الذين كانوا في موقـع استطاعوا معه مشاهدة ما حـدث أنهم لم يكونوا هم، بل زمرة منافسة كانت تحاول سرقة منطقتهم. ثم يتم استجواب الناجي، فيؤكد هـذه الرواية. هل هـؤلاء الرجال هم كل أعضـاء المجموعة؟ رجل لم يصـب بسوء وآخر مصـاب وأربعة قتلى؟ هل يوجـد أي احتمال أن يكون هناك آخرون ما يزالون مدفونين تحت التراب؟ لا.

في تلـك اللحظة، تعود سيارة الملازم مـع شيخ العشيرة التي ينتمي إليها العمال القتلى فيتولى مهمة الاستجواب مع الملازم.

وأخيراً، يرفع الشيخ صوته مخاطباً الحشد، مبرئاً الحملة من أي ذنب. فقد كان الرجال يحفرون خارج أوقات العمل والوقت المخصص لهم ناهيك عن نيتهم سرقة رفاقهم. وذلك كان جزاء عصيانهم وجشعهم. فليعد الجميع إلى بيوتهم الآن.

كانت الشمس قد غابت، في هذه اللحظة، وبدأ يحل الظلام.

يعود الشيخ والملازم وماكس بالسيارة إلى البيت حيث نسعد بمرأى ديمتري وهو يعد العشاء بهدوء وسركيس مكشراً بابتسامة عريضة.

تستأنف المشاورات على مدى ساعة. إنه حادث مؤسف بالتأكيد. لكن الملازم يقول إن لهؤلاء الرجال أسراً يعيلونها. وسيكون تبرعنا بمبلغ من المال موضع تقدير بلا شك، على الرغم من أنه ليس ملزماً. ويقول الشيخ إن هذا السخاء علامة على طبيعة نبيلة وأنه سيساهم كثيراً في تحسين سمعتنا في هذه الأرجاء.

يقول ماكس إنه يرغب بشدة في التبرع لهذه الأسر - على أن يفهم بوضوح أن الأمر يتعلق بهدية ولا يمثل أي نوع من التعويض. فينخر الشيخ موافقاً ويشير على الضابط الفرنسي أن يدون الاتفاق كتابة. وفضلاً عن ذلك، فإنه سيعلن الأمر بنفسه. ثم يأتي النقاش على مقدار المبلغ. وبعد الاتفاق على كل شيء، تقدم الأطعمة الخفيفة ثم يغادر الشيخ والملازم الذي يترك اثنين من الجنود في موقع الحادث.

يقول ماكس، ونحن في طريقنا إلى النوم وقد نال منا التعب: «أفكر في تكليف أحد بمراقبة الحفرية في الغد في ساعة الغداء كي لا يتكرر الأمر من جديد».

لكن غيلفورد يبدو متشككاً.

«لن يحدث ذلك بعد أن أدركوا مقدار الخطر وشاهدوا ما حدث!».

فيقول ماكس بتجهم: «انتظر وشوف ترى!».

وفي اليوم التالي، يكمن ماكس خلف جدار من الطين. وكما هو متوقع، يتسلل ثلاثة رجال حول سفح التل، في ساعة الغداء،

ويشرعون في الحفر بضراوة في مكان مجاور لا يبعد أكثر من قدمين عن الموقع الذي قتل فيه رفاقهم!

فيخرج ماكس من مكمنه ويواجههم بخطبة رنانة. ألا يدركون أن ما يفعلونه سيقتلهم؟

فيتمتم أحد الرجال: «إن شاء الله!».

ثم يفصلون من العمل رسمياً بتهمة محاولة سرقة زملائهم.

ومنذ تلك اللحظة، يخضع الموقع للحراسة بعد انتهاء العمل، ويستمر الأمر على هذا النحو حتى الانتهاء من حفر الطبقات العليا في بعد ظهيرة اليوم التالي.

يقول غيلفورد مرتاعاً:

«يبدو أن هؤلاء الناس لا يبالون بأرواحهم على الإطلاق. قلوبهم قاسية للغاية. لقد كانوا يضحكون من موت رفاقهم وقد قدموا، في هذا الصباح، استعراضاً إيمائياً للحدث!».

يقول ماكس إنه ليس للموت من أهمية كبيرة هنا.

يطلق رئيسا العمال الصافرة إيذاناً بانتهاء العمل ويمر الرجال أمامنا أثناء نزولهم من التل وهم ينشدون: «كان يوسف داوود معنا في الأمس– وهو ميت اليوم! ولن يملأ بطنه الكبير بعد اليوم. ها، ها، ها!».

فتكون صدمة غيلفورد عميقة.

الفصل الثاني عشر

عين العروس

ينتقل مقر إقامتنا من تل براك إلى البليخ.

نقوم بنزهة سيراً على الأقدام على طول نهر جغجغ في مساء اليوم الأخير الذي نمضيه هناك ونشعر بشيء من الانقباض. فقد أصبحت أحمل الكثير من الحب لجغجغ، ذلك النهر الضيق بمائه الطيني ذي اللون البني.

ويبقى، على الرغم من ذلك، أن قرية براك لم تحتل في قلبي المكان الذي احتله شاغر. فقرية براك سوداوية نصف مهجورة وخربة والأرمن بملابسهم الأوروبية الرثة يبدون خارجين عن سياق المحيط. وأصواتهم غاضبة باستمرار ولا أثر في المكان لفرح الحياة العربية أو الكردية وغناها. أفتقد للنساء الكرديات اللواتي يتجولن في الريف، تلك الأزهار المرحة العظيمة، بأسنانهن الناصعة ووجوههن الضاحكة وحملهن الفخور.

استأجرنا عربة نقل متداعية لنقل الأثاث الذي سوف نحتاج إليه. إنها من ذلك النوع من عربات النقل الذي يجب أن تربط كل ما تنقله فيها بحبل! يتبادر إلى ذهني أننا لن نجد على متنها أي شيء عند وصولنا إلى رأس العين.

يتم تحميل كل شيء أخيراً وننطلق، ماكس وأنا في ماري الزرقاء وميشيل والخدم في بيلو برفقةِ هايو.

نتوقف، في منتصف المسافة إلى رأس العين، من أجل غداء في الهواء الطلق ونشاهد صبري وديمتري يزمجران ضاحكين. يقولان إن «هايو أمضت الطريق وهي مريضة وأن صبري كان يحتضن رأسها!». وفي الداخل دليل حي على صحة روايتهما! ثم أفكر في كم أنهما محظوظان لأنهما يعتبران الأمر مضحكاً.

تبدو هايو، للمرة الأولى منذ أن عرفتها، مهزومة وكأنها تقول: «أستطيع أن أواجه عالماً عدائياً تجاه الكلاب، أستطيع مواجهة عداوة المسلمين والموت غرقاً والتضور جوعاً والضرب والركل والرجم ولا أخشى شيئاً. أنا لطيفة تجاه الجميع لكنني لا أحب أحداً. لكن أي مرض هو هذا الذي يجردني من احترامي لذاتي؟». عيناها الكهرمانيتان تنتقلان بيننا بحزن وإيمانها بقدرتها على مواجهة أسوأ ما في العالم يتداعى.

لكن هايو، لبالغ سعادتنا، تستعيد ذاتها بعد خمس دقائق وتلتهم كميات كبيرة من غداء صبري وديمتري. أسأل إن كان الأمر حكيماً – مشيرة إلى أن الرحلة في السيارة ستستأنف قريباً.

فيصيح صبري: «هاه. وستمرض هايو من جديد عندها!.

لا بأس، إن كان الأمر يسليهما...

نصل إلى بيتنا في وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم. إنه منزل يقع في أحد شوارع رأس العين الرئيسية – التي يقول التقليد إن إسحق التقى فيها برفقة عند البئر. الدار حضرية تقريباً، أو بحسب ما يقول مدير المصرف «*construction en pierre*». الأشجار مزروعة على

طول الشـارع وأوراقها تتلألأ الآن بألوان الخريف. لكن المنزل طافح بالرطوبة، لبالغ الأسف بسبب وقوعه تحت منسوب الشارع في مدينة كرأس العين تنتشر فيها المجاري المائية في كل مكان. فيجد المرء ملاءته العلويـة مبللـة تماماً في الصبـاح وكل ما يلمسه رطبـاً ونديـاً ويتصلب جسدي إلى درجة أكاد معها أن أعجز عن الحركة.

توجد خلف المنزل حديقة صغيرة جميلة وأكثر ذوقاً من أية حديقة أخرى عرفناها، منذ أمد بعيد.

فقدنـا أثنـاء رحلتنا إلى رأس العين ثلاثة مقاعـد وطاولة وكرسي المغسلـة الخاص بي! على الرغم من أن خسارتنـا كانت أقل بكثير مما توقعته!

يقع تل جيـدل إلى جانب بحيرة كبيرة من الماء اللازوردي الأزرق الـذي يغذي نهر البليخ. والبحيرة محاطة بالأشجار والبقعة محببة للغاية وهـي بالغة الاختلاف عن المـكان الذي كنا فيه من قبـل وفيها سحر جميل وإن يكن سوداوياً قليلاً – لكنها لا تحمل شيئاً من عذوبة شاغر البكر والريف الممتد حوله.

هنالـك الكثير من الرخاء هنا والأرمن وسواهـم من الناس حسنو الهندام يسيرون في الشوارع، وفي المدينة منازل وحدائق.

لم يكـن قـد مضـى علينا في هـذا المكان أكـثر من أسبـوع واحد عندمـا تلحق هايو بنـا العـار. إذ تتقاطر كافـة كلاب رأس العين كي تخطـب ودها، ولأن أيـاً من الأبواب لا يغلق بإحـكام، فإن أمر إبقاء تلـك الـكلاب في الخـارج أو جعل هايـو تخرس يصبـح مستحيلاً! هنالك الكثير من العـواء والنباح والشجار. وتقوم هايو، ذات العينين الكهرمانيتين الحالمتين بكل ما في وسعها لإبقاء ذلك الهرج مستمراً!

يتحـول المشهـد إلى مسرحية إيمائيـة على الطراز القـديم، إذ تنبثق الشياطين من النوافذ وتصفق الأبواب. تفتح النوافذ، ونحن جالسون لتنـاول الطعـام، ويقفز كلب ضخـم إلى الداخل- يليـه كلب آخر- ويقـع الاصطدام! ثم يفتح باب غرفة النوم بعنف ويظهر كلب ثالث ويركض الثلاثة بجنون حول الطاولة ويصطدمون بباب غرفة غيلفورد فيفتحونه ويختفون- كي يعـودوا إلى الظهور من جديد كالسحر من باب المطبخ وفي إثرهم مقلاة رماهم بها صبري.

يمضـي غيلفورد ليلـة لا يغمض له فيها جفـن والكلاب تتدفق من الباب وتقفز فوق سريره كي تخرج من النافذة، فينهض غيلفورد، بين الفينة والأخرى، كي يرميها بكل ما تطاله يده.

نباح وعويل وفوضى معممة!

أمـا هايو نفسها، فنكتشف أنها كلبـة متعجرفة. إذ تختار كلباً من رأس العين يضـع طوقاً! وكأنها تقـول: «هذه هي الأبهـة!». وهو، في الواقـع، كلـب أسود ذو أنف مرفوع وذيل كبـير يشبه معه حصاناً جنائزياً.

يطلـب صبري أخيراً، بعد أن حرمـه ألم في الأسنان من النوم بضع ليـال، إجازة كي يذهب بالقطـار إلى حلب ويزور طبيب الأسنان. ثم يعود بعد يومين وقد أشرق وجهه.

أما روايته لأحداث اليومين الماضيين فهي كالتالي:

«ذهبـت إلى طبيب الأسنـان وجلست على الكرسـي لديه وأريته سني. فقال نعـم لا بد من قلعه. قلت له كم تبلغ الكلفة؟ فقال عشرين فرنكاً. فقلت له هذا هراء وذهبت إلى البيت. ثم عدت إليه بعد الظهر. كـم تبلغ الكلفة؟ ثمانية عشر فرنـكاً. فقلت من جديد هذا هراء. كان

الألم يزداد باستمرار، لكن المرء لا يمكن أن يسمح لأحد بسرقته. عدت في صباح اليوم التالي. كم تبلغ الكلفة؟ ثمانية عشر فرنكاً. وعدت مرة أخرى عند الظهيرة. ثمانية عشر فرنكاً. إنه يظن أن الألم قد يهزمني لكنني أستمر في مساومته! وكان الفوز من نصيبي في النهاية يا خواجة».

«هل خفض السعر؟»

فيهز صبري رأسه بالنفي.

«لا، لم يكن ليخفض السعر، لكنني عقدت صفقة ممتازة. فقد قلت حسناً. ثمانية عشر فرنكاً لكن عليك أن تقلع أربعة أسنان، لا سناً واحدة!».

«لكن هل تؤلمك الأسنان الأخرى؟»

«لا، بالطبع لا. لكنها ستبدأ في إيلامي ذات يوم. أما الآن، فهي لن تستطيع ذلك. لقد تم قلعها، وبسعر قلع سن واحدة».

فيهز ميشيل، الذي كان واقفاً عند الباب يستمع للقصة، رأسه موافقاً ويقول: «*Beaucoup economia*».

كما عاد صبري معه بعقد من حبات حمراء يعقده حول عنق هايو قائلاً: «هذا ما تضعه الفتيات كي يظهرن أنهن متزوجات. لقد تزوجت هايو مؤخراً».

لقد تزوجت بالتأكيد! وعلي أن أقول، من كل كلاب رأس العين!

أعمل صباح اليوم، وهو يوم أحد يصادف كونه يوم عطلتنا، على تسمية اللقى وماكس منكب على سجل الأجور حين يرافق علي امرأة إلى الداخل. إنها امرأة ذات مظهر محترم ترتدي ثوباً أسود أنيقاً ويتدلى

على صدرها صليب ذهبي كبير وشفتاها منقبضتان بشدة ويبدو عليها الغضب الشديد.

يرحب ماكس بها بكياسة، فتتدفق من فمها في الحال قصة طويلة – قصة حزينة بالتأكيد يتردد اسم صبري فيها بين الفينة والأخرى. يتجهم وجه ماكس وترتسم الجدية على محياه. تستمر القصة وتزداد اتقاداً.

ينبئني حدسي أن الأمر يتعلق بالحكاية القديمة والمعروفة حول الخيانة التي تتعرض لها عذراء القرية. فتكون هذه المرأة هي الأم وصديقنا الجذل صبري هو الفتى المخاتل.

يرتفع صوت المرأة بنبرة سخط محق. ثم تقبض بيدها على الصليب المتدلي على صدرها وتتمسك به ويبدو أنها تحلف عليه بأمر ما.

يستدعي ماكس صبري وأفكر أنه من الأكثر كياسة أن أنسحب. وكنت على وشك المغادرة بهدوء عندما يأمرني ماكس بالبقاء حيث أنا. فأعود إلى الجلوس وأتظاهر بفهم ما يقال طالما أنه يفترض بي أن أعطي الانطباع بكوني شاهد عيان.

تلتزم المرأة الصمت وتكتسي ملامحها بالرزانة والوقار حتى اللحظة التي يظهر فيها صبري. فتهز يدها بعنف في إشارة شجب وتكرر اتهاماتها ضده بداهة.

لا يبدي صبري أية حماسة في دفع التهمة عن نفسه، بل يهز كتفيه ويرفع يديه ويبدو كمن يقر بصحة الاتهام.

وتستمر الدراما بين دفوع واتهامات ويتبنى ماكس بالتدريج دور القاضي. ثم يهزم صبري ويبدو وكأنه يقول حسناً، افعل ما بدا لك!

وفجـأة يستل ماكس ورقة ويكتب. ويضع الكلمات المكتوبة أمام المـرأة، فتضع على الورقة علامة صليـب وتمسك الصليب الذهبي من جديـد وتقسم اليمين برزانـة. ثم يوقع ماكس ويضـع صبري علامته كذلـك ويحلف يميناً خاصاً به على ما يبدو. ثم يعد ماكس بعض المال ويعطـي المرأة إيـاه، فتأخذه المرأة وتحنـي رأسها بوقـار شكراً لماكس وتغادر. ثـم يوجه ماكس بعض عبارات اللـوم اللاذعة لصبري الذي يذهب وقد بدا عليه الإحباط.

ثـم يسند ماكس ظهره على كرسيه ويمسـح وجهه بمنديل ويقول: «أوف!».

فأطفق في الكلام:

«عم كان يدور الأمر؟ عن فتاة؟ هل كانت ابنة هذه المرأة؟»

«ليس بالضبط. تلك كانت مديرة الماخور المحلي».

«ماذا؟»

ثم يسرد ماكس القصة مستخدماً كلمات المرأة قدر الإمكان.

تقـول إنها جـاءت إليه كي يتـم إنصافها من خطـأ جسيم ارتكبه بحقها خادمه صبري.

«ماذا فعل صبري؟»، يسأل ماكس.

«أنـا امرأة شريفة ولدي مكانتي وأحظـى بالاحترام في هذا الحي! والناس يتكلمون عنـي بالخير. وأديـر بيتي بمخافة الله. ثـم يأتي هذا الشخص، هذا الصبري، فيجد في منزلي فتاة كان يعرفها من القامشلي. فهـل يجدد صلته بهـا بأسلوب لطيف ولائـق؟ لا، بل يتصرف بعنف وبمـا يخالـف القانون - وبطريقـة تجلب العار علـي! إذ يقذف بسيد

تركـي، سيد تركي ثري، هو واحد من أفضل زبائني، من أعلى الدرج ثـم إلى خارج البيت. ويقـوم بكل ذلك بعنـف وبأسلوب غير لائق! والأدهـى من ذلـك أنه يقنع الفتاة، التي تدين لي بالمـال والتي أعاملها برقة، بمغادرة البيت ويشتري لها تذكرة ويرسلها بالقطار. وفضلاً عن ذلك، فإنها تأخذ معها مائة وعشرة فرنكات من مالي وهذه هي السرقة بعينهـا! والآن يا خواجة. ليس من قبيل العـدل أن تساء معاملتي بهذا الشـكل. لقد كنت على الدوام امرأة فاضلة ومستقيمة، أرملة تخشى الله ولا يمكـن لأحد أن يتناولها بالسوء. لقد ناضلت طويلاً ضد الفقر وارتقيـت في هـذا العالم بشرف. فـلا يمكن لك أن تنحـاز إلى العنف والخطأ. أنا أطالـب بالعدالة وأقسم لك (كانت تلك هي اللحظة التي انخـرط فيهـا الصليب في اللعبة) أن كل ما قلتـه صحيح وسأردده في وجه خادمك صبري. يمكنك سؤال القاضي والكاهن وضباط الحامية الفرنسية – وسوف يخبرونك أنني امرأة شريفة ومحترمة!».

لا ينفـي صـبري، بالإجمال، أية كلمة. نعم، لقـد عرف الفتاة في القامشلي. كانت صديقته. وقد أزعجه الرجل التركي فدفعه من أعلى الدرج. ثم اقترح على الفتاة أن تعود إلى القامشلي، وقد كانت تفضل القامشلـي على رأس العـين. فاقترضت الفتاة بعض المـال كي تأخذه معها، لكن المال سيرد بالتأكيد في يوم من الأيام.

ثم ترك الأمر لماكس من أجل النطق بالحكم.

يهمهم ماكس ساخراً: «غريبة هي الأشياء التي على المرء القيام بها في هذه البلاد. يستحيل عليك توقع ما هو آت».

أسأله عن طبيعة الحكم.

فيتنحنح ماكس.

«يفاجئني ويحزنني أن يكون أحد الخدم العاملين لدي قد دخل إلى منزلك، لأن ذلك لا يتفق مع شرفنا – شرف الحملة، وأؤكد لك أن أياً من خدمي لن يدخل إلى منزلك في المستقبل. فليكن ذلك مفهوماً تماماً!».

فيقول صبري بحزن إن الأمر مفهوم.

«في ما يتعلق بالفتاة التي غادرت بيتك، فإنني لن أتخذ أي إجراء بهذا الصدد لأن الأمر لا يعنيني. أما المال الذي أخذته منك فأعتبره مالاً يجب أن يرد وسأقوم بسداده الآن من أجل شرف خدام الحملة. وسوف يقتطع المبلغ من أجر صبري. سأكتب ورقة سأتلوها عليك أقر فيها بسداد المبلغ وأحرر نفسي من أية ادعاءات أخرى من قبلك. وسوف تضعين بصمتك على هذه الورقة وستقسمين أن الأمر ينتهي عند هذا الحد».

فأتذكر الوقار والحمية الإنجيلية اللتين أمسكت المرأة بموجبهما الصليب.

«هل قالت شيئاً آخر؟»

«'أشكرك يا خواجة. لقد انتصرت العدالة والحق كما هي الحال على الدوام – ولم يسمح للشر بالظفر'».

أقول: «حسناً، حسناً...».

أسمع وقع خطى خفيفة تمر بجوار النافذة.

إنها زائرتنا الأخيرة تحمل كتاباً مقدساً أو كتاب صلاة وهي في طريقها إلى الكنيسة. وجهها رزين ووقور وصليبها الكبير يقفز على صدرها صعوداً ونزولاً.

فأنهض وألتقط نسخة من الكتاب المقدس من الرف وأفتح قصة البغي راحاب وأشعر أنني أعلم، وإن قليلاً، عما كانت البغي راحاب عليه. وأستطيع أن أرى كيف تؤدي هذه المرأة ذلك الدور بحماسة وبتعصب وشجاعة، دور راحاب - المتدينة بعمق على الرغم من كونها بغياً.

شهر كانون الأول يقترب منا وحلت نهاية الموسم. كانت هناك في الأجواء لمسة من الحزن، ربما بسبب الخريف وكوننا معتادين على الربيع، أو ربما بسبب الشائعات المتداولة والتحذيرات من اضطرابات أوروبية. هنالك إحساس، هذه المرة، بأننا قد لا نعود...

ومع ذلك، فبيت براك ما يزال قيد الإيجار- سوف يتم تخزين أثاثنا فيه وما يزال هناك الكثير مما يمكن العثور عليه في الأكمة. عقد إيجارنا ممتد على سنتين إضافيتين. سوف نعود بالتأكيد...

تتخذ ماري وبيلو الطريق الذي يمر من جرابلس إلى حلب. ومن حلب، نتجه إلى رأس شمرا ونمضي عيد الميلاد لدى صديقينا البروفسور شافر وزوجته وأطفالهما الذين يبعثون على البهجة. لا يوجد في العالم مكان يتمتع بدفء رأس شمّرا، وهو خليج جميل مياهه زرقاء عميقة يحده الرمل الأبيض وصخور بيضاء واطئة. نمضي برفقتهم عيد ميلاد رائع ونتحدث عن السنة القادمة، عن سنة قادمة ما- لكن الإحساس بعدم اليقين يزداد وقعاً. ثم نودعهم ونقول: «سنلتقي، من جديد، في باريس».

باريس- للأسف!

نغادر بيروت بالسفينة هذه المرة.

أقف عند حاجز السفينة وأنظر. كم هو جميل هذا الساحل مع

جبل لبنان الذي ينتصب من بعيد شاحباً وأزرق يناطح السماء! دون أن يفسد شيء رومانسية المشهد الذي يحس المرء أنه شاعري– بل يكاد يكون عاطفياً.

وفجأة يندلع صخب مألوف – صرخات هائجة من سفينة شحن نمر بالقرب منها. لقد أسقطتِ الرافعة حمولة في البحر وانفتح صندوقها الخشبي...

يمتلئ سطح الماء بمقاعد المغاسل...

يصل ماكس ويسأل عن سبب الضجيج؟ فأشير إلى الماء وأقول له إن مزاج الوداع الرومانسي لسورية قد فسد الآن!

يقول ماكس إنه لم تكن لديه فكرة أننا نصدرها بهذه الكميات! و لم يكن له أن يظن أنه يوجد في البلاد ما يكفي من الأنابيب لوصلها!

أغرق في الصمت، فيسألني بماذا أفكر.

أتذكر الآن كيف وضع نجار عامودا مقعد المغسلة باعتزاز عند الباب الأمامي عندما جاءت الراهبات الفرنسيات والضابط الفرنسي لاحتساء الشاي. وأتذكر علاقة المناشف بـ «قدمها الجميلة!» والهر المحترف! وماك، بوجهه السعيد والقصي، يصعد إلى السطح وينزل منه عند الغروب.

أتذكر، الآن، نسوة شاغر الكرديات اللواتي يشبهن زهور التوليب. أتذكر الكولونيل يجثو بحقيبته السوداء الصغيرة أمام قبر أزيح الغطاء عنه فيهمهم العمال قائلين: «لقد جاء الدكتور للكشف على الحالة» فيصبح اسم «*M. le docteur*» لقباً للكولونيل منذ تلك اللحظة. أتذكر بامبس وقبعته الحرون وميشيل يصرخ «فرقع» وهو

يحكم وثاق حزامها. أتذكر تلاً صغيراً مغطى بقطيفة خضراء وأغلق عيني وأشم عبير الأزهار والسهب الخصيب في كل مكان حولي...

«أفكر»، أقول لماكس، «كم إنه أسلوب جميل للحياة...»

الخاتمة

بـدأت هذه اليوميات غير المتسلسلة قبـل الحرب، وقد شرعت في كتابتها للأسباب التي ذكرتها.

ثـم وضعتها جانباً. أمـا الآن، بعد أربع سنـوات من الحرب، فقد وجـدت أفـكاري تحملني شيئـاً فشيئاً إلى تلـك الأيام التـي أمضيتها في سوريـة وأحسسـت نفسـي، في النهايـة، مدفوعـة إلى استخراج ملاحظاتـي ويومياتي غير المصقولة كي أكمل ما بدأته ثم نحيته جانباً. إذ يبـدو لي حسنـاً أن أتذكر أنه كانت هناك أيـام كهذه وأماكن كهذه وأنـه، في هـذه اللحظة بالذات، يزهر تل القطيفـة الصغير ذاك ويسير رجـال مسنون بلحاهم البيضاء خلف حميرهـم دون أن يدروا، ربما، بوجود حرب. «لم تصل إلينا...».

لأنني أعلم، بعد أربع سنين من الحرب عشتها في لندن، كم كانت جميلـة تلك الحياة وكـم إنني أتوق إلى أن أعيش فـرح تلك الأيام من جديـد... فلا يعود تدويـن هذا السجل البسيط مجـرد مهمة، بل فعل حـب، لا هروباً إلى شـيء كان، بـل تطعيماً للمشقة والحـزن اللذين يكتنفان هذه الأيام بشيء خالد لم يكن في يوم مضى بل ما يزال كائناً!

ولأنـي أعشق تلك البلاد الجميلة والخصبة وأناسها البسطاء الذين يعرفون كيـف يضحكون وكيف يستمتعون بالحيـاة وكيف يكونون كسالى ومرحـين، والذين يتمتعون بالكرامة والطباع الحسنة وبالكثير من روح المرح والذين لا يمثل الموت بالنسبة إليهم حدثاً جللاً...

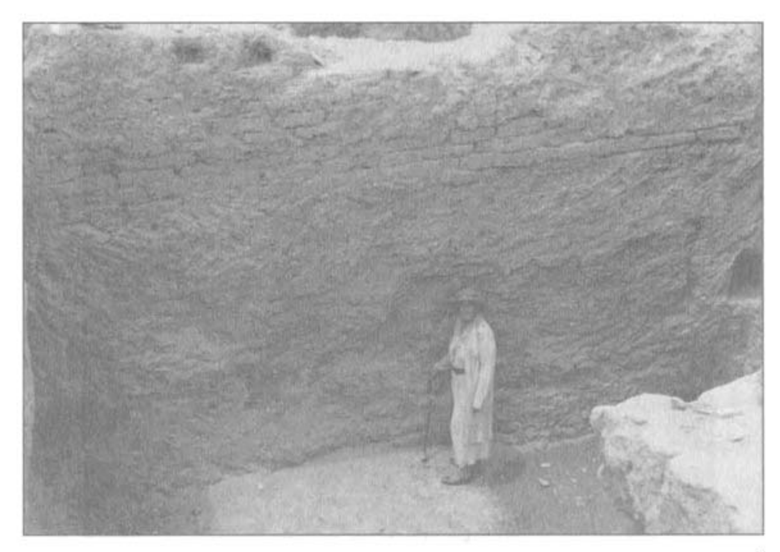
سأعــود إلى هناك، إن شاء الله، ولن تكــون الأشياء التي أحببت قد رحلت عن هذه الأرض...

ربيع عام ١٩٤٤

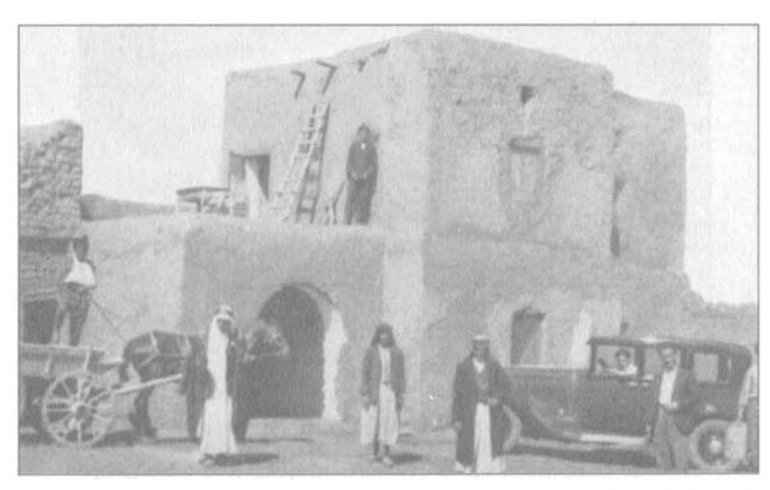


١

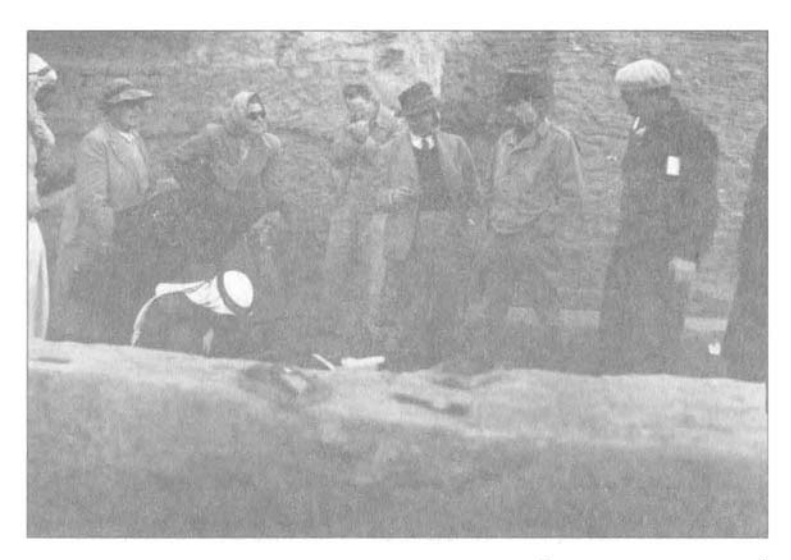
أغاثا كريستي في النمرود الموصل.



أغاثا كريستي في موقع تل شاغر بازار (١٩٣٥-١٩٣٧).



البيت في تل براك أثناء زيارة كريستي.



أغاثا كريستي مالوان، ملكة جمال باركر، ايرين هاينز، كارل هاينز، ماكس مالوان، دون ماك كوان، محمد علي، تل حلف.



سيارة كوين ماري على الفرات خلال رحلة كريستي السورية.



أغاثا كريستي في تل شاغر بازار، سوريا بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧.



ماكس وأغاثا في تل حلف.



أغاثا كريستي تتناول الإفطار على الشرفة في منزل ببغداد.



أغاثـا كريستي مع زوجها ماكس مالوان (يسار) وعالم الآثار البارز ليونارد وولي في أور.



أغاثا كريستي، ماكس مالوان (وسط) وبقية أعضاء الفريق الأثري في سورية.



أغاثـا كريستي مـع حفيدها ماثيو بريتشارد في مطار لنـدن في ديسمبر كانون الاول عام ١٩٥٦.

الفهرست

تركت **أغاثا كريستي** (1890 – 1976) إرثاً غنياً من الروايات والمسرحيات البوليسية الأكثر انتشاراً في الأدب العالمـي الحديث، وكانت حياتها عاصفة لاتهدأ، فمـع شغفها المتواصل بالكتابة اليومية كانت تطوف حول العـالم بكل أنواع وسائل النقـل، لتعرف كل وجوه الحياة في العالم، وتكتشف كل ماهو غريب أو جميل أو عجيـب أو مخيف، في الطبيعة والمدن والشواطئ والجزر وسكانهـا وتقاليدهم وطباعهم، وقادها بحثها عن الماضـي إلى معاينة المكتشفات الأثرية في الشـرق، في مصر والعراق وسوريا، والتقت عام 1930، بين أطلال مدينـة اور، بخبـير الآثار ماكس مالوان فتزوجـا، وعملا معاً في الحفريات الأثريـة في نينوى و أور ونمرود والأربجيـة، وفي عامـي 1937 و 1938 قاد مالوان وأغاثا ورشة تنقيب في حوض نهر الخابور، في تل شاغر بازار قرب عامودا، وتل براك في منتصف الطريق بين الحسكة والقامشلي، وكانت أغاثا ترصد كل المتاعب والأحداث والشخصيات والمفاجآت التي مرت بها من بريطانيا إلى بيروت وحمص ودمشق وتدمر وحلب وديـر الزور، وذهلت من كثرة التلال المتناثرة في الجزيـرة السورية، وهي أكثر مئة تل، ولكن عشقها انصب علـى تـل بـراك، بعد أن كشف عن أسـراره المخبأة منذ ستة قـرون ،.بما فيها القصر و "معبـد العين" برموزه الساحرة، التي تليق بعاصمة متحضرة في زمنها البعيد، وفي وقفة حالمة أمام التل طرحت عليه السؤال: **تعال قل لي كيف تعيش؟** ثم كتبت جوابه في قصيدة .

كانت أغاثا تعرف كل العمال في الورشة وترصد طباعهم وتعالج نساءهم وأولادهم، وحينما نشب خلاف بـين أحـد الايزيديين وعامل آخر أنصفت العامل الايزيدي وكتبت أنهـا عرفت الايزيديين عن قرب، حينما كانـت تعمـل في شمال العراق، حيث تبادلـت الزيارة مع المير، رئيس الإيزيديـين، فكتبت عن مقام الشيخ عـدي: " أعتقـد أنه لايوجد في العالم مكان بجماله وسكينته... والطبيعة البشرية هناك على درجة من النقاء يمكـن معهـا للنساء المسيحيات أن يسبحن عاريات في الجداول "، كما قامت بزيارة شيخ جبل سنجار حمو شيرو الذي أنقذ مئات المهاجرين الأرمن من الموت.

في عام 1950 بدأت أغاثا كتابة سيرتها الذاتية في منزل هادئ في موقع النمرود، وفيها سرد عاطفي لذكرياتها في العراق " كيف أحببت كثيراً هذا الجزء من العالم .."، كما كتبت روايتين استوحتهما من تلك الذكريات وهما " جريمة بين النهرين" و " الذين وصلوا بغداد".

مـدن قديمة متحضرة أحبتها أغاثا كريستي، وعاشت بين أطلالهـا، دمرها وأحرقها غزاة همجيون وبرابرة، منـذ عدة قرون، ومـا يزال أحفادهم يعيشـون معنا يزرعون المـوت، و يدمرون المدن الجديـدة وآثار المدن القديمة، ويرفعون رايات النصر.

بندر عبد الحميد


ISBN 978-284309000-4